

الفصل الثاني

مداولات فكرية – مساهمات علمية – مناقشات تاريخية
صحيفة الشرق الأوسط السعودية
١٨ مارس ١٩٨٩ – ٣١ مايو ١٩٨٩ م

هذا اليوم في التاريخ ٩ آذار (مارس) ١٨٩٧م

يوم وفاة جمال الدين الأفغاني

الأستاذ نجاة فتحى صفوة

في مثل هذا اليوم قبل ٩٢ عاما ، أى في ٩ آذار (مارس) سنة ١٨٩٧ ،
توفى في استانبول المفكر الإسلامى والمصلح السياسى والاجتماعى وفيلسوف
اليقظة الشرقية جمال الدين الأفغاني .

ولد محمد بن صفدر الحسينى سنة ١٢٥٤هـ . (١٨٣٨م) ، واختلفت
الروايات في مكان ولادته ، فمنها من يقول إنها كانت في مدينة أسعد آباد
القرية من كابل ، ومنها ما يذهب إلى أنها في قرية أسد آباد من قرى همدان
بإيران ، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره صحب والده السيد صفدر إلى
النجد وتركه فيها للدراسة في مدارسها الدينية ، وتشير القرائن إلى أن الأفغاني
قضى في النجد بضع عشرة سنة ، باستثناء فترة سافر فيها إلى الهند ، وحج
سنة ١٢٧٣هـ (١٨٥٧م) ثم عاد إلى أفغانستان فأقام في كابل ، ودخل في
خدمة « محمد أعظم خان » أمير الأفغان ، فلما أطيح بحكمه غادر الأفغان بحجة
الذهاب إلى الحج ، وذهب إلى الهند وأقام فيها ، وأخذ ييذر فيها بذور الوطنية ،
فأخرجته السلطان البريطانية ، فسافر إلى الآستانة مارا بمصر .

وفي الآستانة نال حظوة الصدر الأعظم على باشا ، وعين عضوا في مجلس
المعارف الأعلى ، ولكنه نفى سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) ، فقصد مصر واستقر
فيها مدة ثمانية أعوام كانت من أخصب سنى حياته ، نفخ فيها خلاها روح
النهضة الإصلاحية في الدين والسياسة ، وتحلق حوله فيها طائفة من المريدين
حملت بعد ذلك مشعل الإصلاح والتنوير والثورة في مصر بينهم الشيخ محمد
عبده وسعد زغلول ومحمود سامى البارودى والمويلحيان وسليم نقاش وأديب
إسحق وآخرون .

وفي سنة ١٨٧٧ أصدر الخديوى توفيق أمرا بطرد جمال الدين من مصر لما رأى من تعاظم نفوذه ، فرحل إلى حيدر آباد وأقام فيها ثلاث سنوات ألف خلالها كتابه « الرد على الدهريين » ومنها سافر إلى باريس وأنشأ مجلة « العروة الوثقى » بالتعاون مع تلميذه وصديقه محمد عبده ، ولما توقفت عن الصدور انتقل إلى لندن ومنها قصد إيران ، واتصل بالشاه ناصر الدين ، ثم قرر الذهاب إلى روسية وأقام في « سنت بطرسبرغ » أربع سنوات ، ودعاه الشاه ناصر الدين فسافر إلى فارس ، ولم تمض عليه في طهران مدة قصيرة حتى بدأ النفور بينه وبين الشاه ، فلما تفاقم الأمر أمر الشاه بطرده ، وفي أوائل سنة ١٨٩١ م سيقَ الأفغانى عن طريق كرمشاه إلى الحدود العراقية فلقى عنتا شديدا ، وجيء به إلى بغداد حيث بقى ثلاثة شهور ، ثم سافر إلى البصرة ، ومنها إلى لندن ، فوصلها في خريف سنة ١٨٩١م وفيها شن حملة شديدة على الشاه ناصر الدين .

وفي أواخر عام ١٨٩٢م دعاه السلطان عبد الحميد الثانى إلى الآستانة فذهب إليها ، ورجاه السلطان أن يكف عن التعرض للشاه فأطاعه ، وفي ١٠ أيار (مايو) سنة ١٨٩٦م قتل الشاه ناصر الدين وقد أطلق عليه الرصاص رجل يدعى الميرزا محمد رضا الكرمانى وهو يصرخ « خذها من يد جمال الدين » وادعت الحكومة الإيرانية أن الأفغانى هو الذى حرّضه على اغتيال الشاه ، وطلبت إلى الحكومة العثمانية تسليمه ، فرفضت الأخيرة بحجة أنه أفغانى وليس فارسىا وبقي الأفغانى فى الآستانة محاطا بالرقابة الشديدة والوشايات . وفي الآستانة ظهرت على الأفغانى أعراض مرض خطير فى فكه ، قيل إنه السرطان ، فلم يشف منه وتوفى يوم الثلاثاء ٩ آذار (مارس) سنة ١٨٩٧م (١٣١٥ هـ) . فدفن فيها ، وفى سنة ١٩٤٤م نقل رفاته إلى الأفغان عن طريق بغداد حيث أقيم لذكراه احتفال كبير .

وعلى الرغم من أهمية أثر الأفغانى فى الإصلاح وإيقاظ المسلمين والشرقيين ، فإنه لا يزال من الرجال الذين يكتنف الغموض جوانب كثيرة من سيرتهم ، ولا تزال تفاصيل نشأته وأسفاره وأعماله تحتوى على بعض النواحي الخفية ، وكان تأليفه حزبا سياسيا باسم الحزب الوطنى الحر وأسفاره ومغامراته فى الهند

وفارس ولندن وباريس وسنت بطرسبرغ ، وإقامته في هذه المدن سنوات طويلة ، ومورد معيشتة خلالها ، أمور تحتاج إلى بحث كثير . وكذلك أصله ، وهل هو فارسي أم أفغاني ؟ لم يتوصل فيه البحث إلى نتيجة قاطعة ، وقد كان في مصر وتركية يلقب نفسه ، الأفغاني ، بينما كان في إيران يتخذ لقب الحسيني ، ويظهر من مؤلفاته وأوراقه أنه كان يتخذ ألقابا أخرى مثل « الأسطنبولي » و « الكابلي » و « الرومي » و « الطوسي » و « الأسعد آبادي » كما كان يغير زيه ولباس رأسه كلما انتقل من بلد إلى آخر .

وقد كتب عنه الكثير ، ولكن مما يزيد في غموض سيرة الأفغاني أن معظم الذين كتبوا عنه اتخذوا الأسلوب الخطابي المبالغ في المديح ، ولم يلتزموا الموضوعية دائما ، ومهما يكن من أمره فلاشك في أنه يعد بين زعماء الإصلاح في الشرق ومن أبرز الذين رفعوا لواء الإسلام في الخافقين .

الرجل الولوع بعظائم الأمور العزوف عن صغائرها جمال الدين الأفغاني

الأستاذ محمد الهاشمي الحامدي

بعد محمد بن عبد الوهاب ، وسيد قطب تنتقل الشرق الأوسط لتتشر ملفها الجديد عن أبرز زعماء الإصلاح في القرن الماضي - إن المشاركين في هذا الحوار سيتبادلون وجهات النظر في سيرة رجل وصفه الإمام محمد عبده بأنه رجل بصير في الدين عارف بأحوال الأمم واسع الاطلاع جم التعارف جرىء القلب واللسان . سلامة القلب سائدة في صفاته وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع . إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب . فبينما هو حلیم أواب إذا هو أسد وثاب ، وهو كريم يذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر . عظيم الأمانة سهل لمن لاينه . صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسي إذا لاح له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور عزوف عن صغائرها ، شجاع مقدم لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمي إلا بنوع من الإشارة إليها .

لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . وله لسن في الجدل وحذق في صناعة الحججة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خصمه أحد إلا خصمه ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعدما أقر له الشرقيون ، وبالجملة فإني لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة وهو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكننت غير مبالغ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

تلك شهادة رجل لا يستهان بقوله . ومع ذلك فإن الأفغانى ليس محل إجماع لدى معاصريه ولدى لاحقيه ، ولم يسلم من النقد والانتقاد يوجهه كثير من العلمانيين ولا يتورع عنه بعض الإسلاميين كما أن تجربة الأفغانى فى الإصلاح ما تزال بعيدة عن أن تكون تجربة اختبار حقيقية لدى كثير من العاملين فى الحقل الإسلامى ، كأنما هى تراث لا يعنهم فى شئ . وكأنما تاريخ ما قبل العشرينات جدد وقفار لا يستهوى الناظرين .

من أجل ذلك بسطنا تجربة الأفغانى للحوار .. نريد أن نواصل سنة التناظر التى بدأتها الشرق الأوسط أخيرا ونرسخها ونطمح أن يسלט حوار النخبة أضواء جديدة على نجاحات الأفغانى وإخفاقاته وعلى المنهج الذى ضمن تلك النجاحات ولم يمنع حصول الإخفاقات .

نحن فى حاجة أكيدة إلى المنهج ، فبعد مائة عام من وفاة الأفغانى لانزال الأمة تتخبط تائهة بين المسالك ، وقبل ثلاثة أيام سخر الزميل عبد الرحمن حمد الراشد فى زاويته الأسبوعية « أبيض وأسود » بـ « الشرق الأوسط » من تعليق جمودنا بل وتدهور أوضاعنا على الاستعمار ، مللنا أسطوانة الاستعمار وتعنا من تعليق كل مشاكلنا عليه ، قليل منا يجرؤ على الاعتراف بهذا ولكنها مسألة لم تعد تحتل الإطالة ، فلنتصفح أرقام المديونيات العربية أرقام تتزايد وتذكرنا بمبررات الاستعمار القديم الذى اتخذ من عدم قدرتنا على السداد ذريعة للدخول من أوسع البوابات العربية بحجة الرغبة فى موازنة شئون البلاد المالية ومن نسى التاريخ فعليه أن يعاود قراءته .

أجل ، هذا الملف محاولة لإعادة قراءة التاريخ ليس فقط لإثارة الحمية وحفز الهمم ، ولكن لالتماس ما قد يساعدنا على مواجهة واقعنا الراهن ، فربما نكتشف مزيدا من الحجج على أن إعراض الأمة عن عرض الأفغانى ما يزال يعوقها عن التقدم ، الإعراض عن نداءات الاتحاد . وتحرير العقل المرتكز على القرآن ، ومحاربة الجبرية والجمود والإلحاد ، والبداة بإصلاح الإرادة السياسية وتوحيدها باعتبارها مصدرا لأوجه الإصلاح الأخرى .

غير أن هذا وحده لا يكفى ، إذ ثمة سؤال آخر بالغ الأهمية ، لماذا لم ينجح

مشروع جمال الدين رغم معقوليته القصوى ولماذا لم تتصل روحه العقلانية المتفتحة في كثير مما لحقه من مشاريع الحركات الإصلاحية الإسلامية ؟ ينبغي أن نعرف السبب حتى لا نكرر الهتاف في القفار ومناداة الأموات وحتى تسرع في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين ، فمن المؤلم أن المرء ما يكاد يجد مؤشرا واحدا على أننا نهتم بتقلبات الزمن وتنوع ابتلاءاته الحادثة الطارئة .

ما يزال الأمل يسكن قلوبنا ، وينبغي أن يستوطنها دائما لأنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولكن من الواجب ألا نكف عن التفكير والحوار في مشروع التجديد والنهضة الذي بدأه ابن عبد الوهاب وكرس له الأفغانى حياته بالإضافة إلى رجال آخرين ستعرض لتجاربهم في ملفات قادمة .

إن قصة الأفغانى مفعمة بالأمل من هذه الزاوية إن آثار أقدامه وغبار ثوراته وصدى أفكاره في بلاد الإسلام الواسعة لا يزال يشهد لشرف الإنسان عندما يخلص الروح والقلب لفكرة التوحيد .. كما أن أحزانه الممتدة في ذلك الزمن من كابول إلى طهران إلى الهند والقاهرة وباريس واسطنبول تشهد دائما للوحدة ولمشروع العالمية الإسلامية الثانية الذى يبشر به محمد أبو القاسم حاج حمد من شمال السودان .

هذا ملف جديد لـ « الشرق الأوسط » يقوم على التناظر والسجال ويراد له أن يكون وقفة احترام وإحياء لذكرى شخصية إسلامية بعد مرور زهاء قرن على وفاته .

* * *

نقول للمسلمين أن لا يقنطوا جمال الدين الأفغانى

عجبا كيف تتبدل أحكام الجيلة وكيف يحى أثر الفطرة ؟ وكيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟ وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل ؟ والأمل وحب الكرامة طبيعيان فى الإنسان . بعد إمعان النظر نجد السبب فى ذلك ظن الإنسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوته هى سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر ، فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه رجع إلى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فرآها واهنة ، فيعترف بوهنه ، ويسكن إلى عجزه فيأس ويقنط ، ويذل ويسفل اعتقادا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته .

ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل إلى العمل لاستحالة قهر المانع فيقطع الأمل فيقع فى الشقاء الأبدى ، أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبرا عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى . وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عبادته كيف يشاء ، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلة القنوط ، فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته لا يفوته النظر إلى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة ، فيركن إليها فى أعماله ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقا . فكلما تعاضمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا فى مدافعتها معتمدا على أن قدرة الله أعظم منها .

وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون إلى الله أبواب فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة ، لاعتقاده أن فى قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ، ويلقى قيادهم إلى الأذلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن

الضعفاء من نواصى الأقوياء ، وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار فتشند عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعى لنيل الكمال والفوز بما أعدّه الله له من السعادة فى الأولى والآخرة . وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط ويأس . ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التى لا رية فيها بما قال وهو أصدق القائلين ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ . وبما حكى من قول نبيه إبراهيم ﴿ وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر . ومن أين يطرق اليأس قلبا عقد على الإيمان بالله وقدرته الكاملة .

لهذا نقول إن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم فى إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم إيمانهم أن يرضخوا للذل ، ويرضوا للضم ، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم إلى الآن محفوظون مما ابتلى به كثير من الأمم ، فإن لهم ملوكا عظاما ، ولا يزال فى أيديهم ملك عظيم على بسط الأرض ، وأن من الحق أن نقول : إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها وأن روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها ، والفرص دائما تمد أيديها إليهم تطلب إنباضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم . وذلك أيسر ما يكون عليهم ، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم فأى موجب لليأس وأى داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ، وهل توجد واسطة بين الرشد والغى ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ هل يكون للقائطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا . ماذا يتغنون من الحياة إن كانت فى ذل وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ أيطمئنون وهم بين أجنبى حاكم ، وبغيض شامت ، ومقبح غبى ، ومشنع دنى ، ومعبّر خسيس يرمونهم بضعف العقل ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن

محالا عليهم أن يصيروا أمة في عداد الأمم . ألم ينسلخ الإنسان عن كل خاصية إنسانية ؟ كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات ؟ أينسون أنهم كانوا الأعلون في الأرض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ولا غفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الأرض . إن كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأى عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه . لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين . لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم ، لم لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات بينهم ، ولم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية آمال المسلمين ، وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم ؟

إن قوما شرح الله صدورهم للإيمان قاموا بهذا الأمر في مواقع مختلفة من الأرض يجمع التواصل بينها عقدة واحدة ، إلا أن أملنا في بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعريضهم ، ليتمكن الجميع من نصر الله ﷻ **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** .

الاستماع للطاعين في الأفغانى هزيمة إسلامية شائنة الشيخ محمد الغزالى

يعتبر السيد جمال الدين الأفغانى واحدا من أكثر الشخصيات البارزة فى التاريخ الإسلامى إثارة للجدل والخلاف ففى الوقت الذى يتفق الكثيرون على حيوية دوره الذى قام به فى مواجهة التحديات التى تعرض لها العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الماضى وفى وضع الجذور الحقيقية للإحياء الإسلامى ، تعرض الأفغانى لبعض الانتقادات بشأن جوانب معينة يتعلق بعضها بحركته وبعضها الآخر بأفكاره .

ومن جملة ما استطلعت « الشرق الأوسط » رأيهم فى هذا الزعيم المصلح الشيخ محمد الغزالى .

يقول الشيخ الغزالى :

إن الأفغانى ظهر عندما كانت الأمة الإسلامية تركة رجل مريض يوشك أن يلفظ روحه ويقتسم ميراثه ، ولم تكن لها فى المحافل الدولية مهابة ولا رسالة .

ولم تكن للثقافة الإسلامية موضوعات ذات بال ، أو قضايا نفسية واجتماعية وسياسية مهمة ..

ويتساءل فضيلة الشيخ الغزالى : ماذا يصنع رجل حكيم حاد البصر والبصيرة إزاء هذا الاختلال العقلى ؟ وهذا الموت المادى والأدبى ؟ ويجيب بسرعة :

لقد استجمع الأفغانى كل ما يملك من مواهب واشتبك فى صراع وحشى مع الحكام الذين أذلوا الشعوب، ومع الشعوب التى ذلت للحكام وشرع يعرض حركة عقل ، وإباء نفس ، ويرز خصائص الحضارة الإسلامية الأولى بما حوت من فكر نضير وجراءة على الحياة ، وقدرة على التغيير .

ويضيف : كانت الشورى قد ماتت مبنى ومعنى ، وكان الاجتهاد قد توقف وأمسى ذكريات بائدة ، وكانت الطاقة الروحية قد نفذت بين العامة والخاصة وسقط المسلمون من أعين البشر جميعا .

وكان على جمال الدين الأفغانى ومن التف حوله من الرجال أن يستأصلوا علل التخلف ، ويردوا الأمة إلى الصراط المستقيم ، وبديهي أن تكون الجامعة الإسلامية أساسهم فلا تعصب لجنس ، وأن يكون العقل الإسلامى رائدهم أو باعثنهم فلا تعصب لمذهب أو رأى . وقد أحس الأفغانى بما يشيع فى أجواء المسلمين المنهزمين من خرافات وبما يصحب اليقظة الأوربية من باطل وهوى وظلم ، فأخذ يعرض الإسلام على نحو يقمع المغرورين ويستنهض المقهورين . ويؤكد فضيلة الشيخ محمد الغزالى على أنه يتفق تماما مع الدكتور عبد القادر محمود أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة فى العناصر التى تشكل منهج جمال الدين الأفغانى فى الإصلاح وهى :

- إن الإسلام دين التوحيد الحق ، الرافض لكل صور التعدد المالحى لشتى الوثنيات وتبعية المرء لغير الله .

وهو دين الكمال العقلى ، دين أولى الألباب ، والأفكار الناضجة والمزايا البشرية السوية ، فلا مكان فيه لدعاوى جنسية وتفرقات عنصرية على نحو ما زعم « رينان » الفيلسوف الفرنسى الذى ناقشه الأفغانى وأوقفه عند حده . والإيمان فى الإسلام ينهض على النظر فى الكون . وعلى أداء العقل لوظيفته المنطقية ، والإسلام يأبى تعطيل العقل مرادفا للحيوانية .

ومنذ بدأ الإسلام ، والمسلم عزيز الجانب قوى بربه سيد لما حوله يفعل الخير ويدعو إليه ، ويحترم الحق ويحكم به ، ويستمد من الوحي الأعلى ، ويقم سلطان الدولة على دعائمه ، ومن ثم فهو يزدرى الأهواء والتقنيات الأجنبية ، ويجعل شريعة الله أساس الحكم فى أرض الله .

والأطوار التى جدت على المجتمع الإنسانى توجب على المسلمين ألا ينحسروا فى تقليد فقيه واحد من فقهاء الأمصار . بل يجب العودة إلى ينبوع

الذى يستقى منه الكل ، أى الكتاب والسنة ، وأن يفتح باب الاجتهاد للوفاء بالمصالح الدينية والمدنية التى جدت .

غالى جمال الدين الأفغانى فى الخصائص الأدبية التى كرم الله بها الإنسان ، ونوه بعظمة العقل وإمكاناته وقدرته على الكشف والحكم ، وأزاح العوائق التى تعترض نشاطه ، واحتقر الجمود الذى يلوذ به بعض المتدينين ، والفلسفات الانسحابية التى تشد المسلمين إلى الوراء .

ويرى الشيخ الغزالى أن منهج جمال الدين الأفغانى فى الإصلاح قام على مبدئين هما : إن الفساد يهبط من أعلى إلى أسفل ، وإن الإصلاح يصعد من أسفل إلى أعلى ، وأنه - الأفغانى - حاول أن يعمل بالمبدئين معا ، فحاول إسداء النصيح إلى الحكام . وتعريفهم بأنهم أجراء الشعوب وملزمون بالشورى ، كما حاول استحياء الأمة الهامدة وتبديد الخمول العلمى والخلقى الذى ران عليها .

أبواق خادعة :

ولا ينفى الداعية الكبير قول البعض إن الأفغانى كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية . ولكنه يسأل فى أى كتاب إسلامى شرحت آثام الماسونية وحذر المسلمون منها قبل عصر الأفغانى ؟

ويضيف : أنه - الأفغانى - خدع بكلمات الإخاء والحرية والمساواة كما خدعت أمتنا اليوم فى المؤسسات العالمية الكثيرة ، والمهم أنه منذ ظهر إلى أن مات عليلا أو قتيلا لم يؤثر عنه إلا العمل على استنهاض المسلمين وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم ، وذلك حسبه من الشرف ..

ويقول الشيخ الغزالى إنه من الطبيعى أن تنطلق الأبواق لتطعن فى شرف الرجل وعلمه ، وقد تكون هذه الأبواق خادعة ، أو مخدوعة ، غير أن الاستماع إليها هزيمة إسلامية شائنة ، ونصر مؤزر للصليبية الغازية وللسلطات العفنة التى عاشت وتعيش فى كنفها .

فهذا هو الدكتور لويس عوض وهو رجل واسع الاطلاع على الثقافة الغربية شديد الولاء لأغراضها ، يصب جام غضبه على الثائر الإسلامى الحر ويصفه بكل موبقة .

وأعتقد - يقول الغزالي - أن كرهه للأفغانى نابع من حبه لدينه واحترامه لدور أوروبا فى احتلال الشرق الإسلامى ، وتغييرها الواجب لعقله وضميره ، وقد نفس عن كوامنه بالأسلوب الذى هاجم به جمال الدين ومع أنى لا أتوقع أن يقول الدكتور لويس كلمة طيبة فى الأفغانى أو فى محمود شاكى إلا أنى فوجئت بهذا الضغن الشديد على زعيم من زعماء الإصلاح الإسلامى .

وينصح الشيخ الغزالي المسلمين المعاصرين بأن يستبينوا أمرين كانا من أهم ما دعا إليه جمال الدين وتلميذه العظيم محمد عبده .

أولهما : أن دراسة العلوم الحديثة واجب إسلامى أول ، وأن أى عقل نظيف يدرك أن هذه الدراسة امتداد محتوم لحديث القرآن الكريم عن الكون ، وأن نتائج الجهود العقلية الذكية دعم للإيمان الصحيح ودمغ للإلحاد .

أما الأمر الثانى فهو : جس معرفتنا لأنفسها ، أو بتعبير دقيق التفريق بين دين الله وبين عملنا به وله فى الماضى والحاضر .

أما التاريخ الإسلامى ، فى الماضى والحاضر ، فليس مصدرا للتشريع ولا مؤشرا على الحلال والحرام .

مكانة الأفغانى عند الغزالي فى كتابه « علل وأدوية » :

يقول العلامة الداعية المفكر الإسلامى الشيخ محمد الغزالي فى السيد جمال الدين الأفغانى ما يأتى : « وأذكر فى سطور قلائل رأى فى جمال الدين الأفغانى ، لوددت أن يكون علماء الدين على صفته فى عزة النفس ، وشموخ الأنف ، والتوكل على الله ، عندما ذهب إلى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يدع مهاجمة شاه إيران وأنصت جمال الدين دون أن يرد ، فلما طال إلحاح السلطان عليه قال منها الحديث : قد عفوت عنه » .

« وشده السلطان ، وذعرت الحاشية ، قد عفوت عنه ؟! العهد بعلماء الدين أن يكونوا مدفوعين بالباب ينتظرون الجدد أو يشكرون الندى ، فما بال هذا الرجل يناصى الملوك ، ويحكم أخطاءهم » .

قال المؤرخون : « ما كان جمال الدين يرى نفسه دون الخليفة » .

« وتذكرت وأنا أقرأ الحكاية بيتي الشريف الرضى وهو يعاتب الخليفة العباسى فى بغداد قائلاً :

مهلاً أمير المؤمنين فإننا فى دوحة العلياء لا نتفرق
إلا الخلافة ميزتك فإننى أنا عاطل منها وأنت مطوق

« هل هذا السمو خلق عميل للماسونية كما يقال ؟ إنه خلق متوكل وثيق الصلة بربه ، راسخ القدم فى دينه ، وما سمعت قبله ولا فى عصره من كشف أحقاد الصليبية العالمية ، وألب الجماهير ضدها ، وشن الغارات شعواء على المستبدین والظلمة ونفخ من أنفته فى الشعوب الراكدة المستعبدة يحضها على العمل لدينها ودنياها ، إن الرجل وحده كان صاحب هذا الصوت ويظهر أن تلك كانت جريمته » .

« قالوا : كان منتسباً لأحد المحافل الماسونية ، ولا أنفى هذا ، وإنما أسأل : فى أى كتاب إسلامى شرحت آثام الماسونية ، وحذر المسلمون منها قبل عصر الأفغانى ؟! »

« إنه خدع بكلمات الإخاء والحرية والمساواة كما خدعت أمتنا اليوم فى المؤسسات العالمية الكثيرة ، والمهم أنه منذ ظهر إلى أن مات عليلاً أو قتيلاً لم يؤثر عنه إلا العمل على استنهاض المسلمين ، وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم . وذاك حسيه من الشرف » .

« أذكر أن « بابا روما » الأسبق مات عقب مرض ألم به ، فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدرى ما فيها عن حياته الخاصة ، فصودرت الرسالة ، وفصل الطبيب من النقابة ، وانتهت حياته الاجتماعية » .

« وقد ألقت عشرات الكتب عن « نابليون » تنوه بأمجاده ، وتتواصى بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته » .

« القوم إن رأوا من عظمائهم خيرا أذاعوه ، وإن رأوا شرا دفنوه . أما نحن فمبدعون في تضخيم الآفات إن وجدت ، واختلافها إن لم يكن لها وجود ، والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ » .

« وقد نظرت إلى علماء الدين الذين تناولوا الأفغانى بالسوء فرأيتهم يحيون في إطار نظم تتبع الاستعمار الشرقى أو الغربى ، وأنهم في مواجهته ومواجهة سماسرته خرجوا بالصمت عن لا ونعم » .

« إن الهيايين لا يجوز أن يشتموا الشجعان » .

علل وأدوية ص ١٠١ محمد الغزالى

جمال الدين الأفغانى ما له وما عليه

الأستاذ محمد حسين زيدان

تسألوننى عن جمال الدين الأفغانى فى أكثر من سؤال وسأحصر الإجابة على ما لهذا السيد العظيم وما عليه من الذين ما كانوا لأنفسهم ، وإنما كانوا تبعاً لسلطان تجمد حتى تجلط وهو سلطان الجمود والطريقة ، فالسيد جمال الدين الأفغانى ينطبق عليه تعريف الكاتب المين مصطفى لطفى المنفلوطى إذ عرف العظيم بقوله « إذا رأيت رجلاً رفعه أناس إلى رتبة الملك وخفضه أناس إلى منزلة الشيطان فاعلم أنه عظيم » . فجمال الدين نسأل عن الذين رفعوه من هم ؟ ومن الذين تنكروا عليه من هم ؟ لنعرف قيمة هذا العظيم والقيم التى اعتنقوها عنه . فالذين ارتفعوا به ورفعوه ليس أولهم الأستاذ الإمام محمد عبده وليس أوسطهم السيد رشيد رضا وليس آخرهم سعد باشا زغلول .

ارتفعوا به حين تزعم الحرب على الاستعمار كما علمهم ، والتنكر للجمود والطريقة ، لأنه كان يرحمه الله أنهض رجالاً فى الهند وأمثالهم فى الأفغان وإيران وضافت عليه تلك الأرضون فلجأ إلى مصر فكان مشعل النهضة فى مصر ، فكيف أستطيع ترك هؤلاء العظماء الذين رفعوه لأكون مع الناكرين عليه ، فالناكرون هؤلاء أتباع سلطان تخاذل فخذل أمته ، فيوسف النبهانى نظم قصيدته الرائعة الكبرى والصغرى يهجو الوهاية وجمال الدين ومحمد عبده ، لأنه كان ينبج على حساب أبى الهدى الصيادى شيخ مشايخ العراق لقبه بذلك السلطان عبد الحميد .

فأبو الهدى الصيادى كان العدو رقم واحد لجمال الدين لأن نجاح دعوة جمال الدين تسقط مقامه ، إن جمال الدين الأفغانى حارب الاستعمار وأيد دعوة السلف ، فإذا هم يتهمون أول الأمر بالوهاية وحين اعتلت عقيدة السلف فى هذه المملكة وفى المغرب العربى وفى سوريا وفى مصر خذلوا فجاءوا

يتهمونه بالماسونية ، فقد يكون منضمًا إليها لا عبداً لها ، وإنما ليعرف مفاسدها ، فكثير من العلية في مصر كانوا الرؤساء للمحفل الماسوني ، فما عرفنا منهم أنهم أفسدوا شعبهم به .

جمال الدين الأفغانى أخاف الخديوى توفيق لأن نهضة الأزهر واستنهاض المشاعر يخافه السلطان الضعيف ، فإذا الخديوى توفيق الذى جلب الاستعمار الإنجليزى إلى مصر يأمر جمال الدين ليرحل عن مصر بازدواجية السلوك بين قسوة الترحيل وادعاء العاطفة للعون ، وعندما بعث ذهابا عونا لجمال الدين ، قال الرجل العظيم وهو يرفض هذا العون الرخيص : « إن الأسد لا يعدم فريسته أبنا ذهب » كأنما هو قد اقتدى بسلطان العلماء العز بن عبد السلام يوم رفض ذهب السلطان إسماعيل فقال : « لو مددت يدى لكففت رجلى » لأن السلطان زاره وهو مريض وقد مد رجله فما طواها لا يحفل بسلطان تخاذل في حرب التار .

إن جمال الدين الأفغانى أقرأه وكأنتى تلميذ لمحمد عبده ، أحتفل به لأنى من تلامذة أشياخنا السلفيين . وجمال الدين ومحمد عبده مجلة « العروة الوثقى » فليقرأها من يريد المعرفة ، وهناك اثنان من فلاسفة الغرب « هريس سنفرسف » البريطانى و « رينان » الفرنسى وحين اجتمع جمال الدين بسنفرسف جرى حوار بينهما فقال سنفرسف ما هو العدل يا جمال الدين ؟ فأجابه : يوجد العدل حين تتعادل القوى وهو يعنى بذلك أنه لا عدل ينشد من دول الاستعمار القوية بل سيكون العدل حين يقوى الذين استعمروا . وقال رينان : لقد تحدثت مع جمال الدين فوجدتنى وكأنتى أتحدث مع الفارابى وابن سينا .

ورحل جمال الدين إلى إسطنبول وهناك قتل وما يوم حليلة بسر .

الأفغانى أول من نادى بفكرة جامعة الشعوب الإسلامية

الدكتور إبراهيم العدوى
أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة

يعتقد الدكتور إبراهيم أحمد العدوى أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة أن جمال الدين الأفغانى كان من المصلحين الكبار الذين ظهوروا فى الشرق الإسلامى ، وقد ظهر فى مرحلة كان الاستعمار جاثماً فيها على صدور الشعوب الإسلامية ، وبالتالي كان لابد من تضامن هذه الشعوب حتى تزيح هذا الحمل عنها .

وبالتالى فقد ظهر الأفغانى فى سياق تاريخى يحتم عليه أن يهتم بالإصلاح السياسى ، لذلك كان هو أول من نادى بفكرة جامعة الشعوب الإسلامية . ويضيف الدكتور العدوى أن الأفغانى كان أول من استخدم أجهزة الإعلام فى توضيح فكرة الجامعة ونشرها بين الجماهير فأنشأ جريدة « العروة الوثقى » التى لعبت دوراً مهماً فى التنديد بالاستعمار وأعوانه ، ومن هنا حاربها الاستعمار بكل الطرق والوسائل ، ولم تستطع الجريدة إكمال رسالتها وتوقفت بعد صدور ثمانية عشر عدداً منها .

ويؤكد على أن الأفغانى هو أول من وضع نظام التثقيف السياسى فى العالم الإسلامى ، وقد استخدم اللغة العربية فى خلق وعى سياسى عام لدى الشعوب الإسلامية .

ويلفت الدكتور العدوى النظر إلى بعض أقوال الأفغانى التى كانت محرقة لمشاعر الجماهير لمقاومة الاستعمار ومنها قوله للفلاح المصرى : عجبت لك أيها الفلاح تضرب الأرض بفأسك ولا تشق بها صدور أعدائك ، وقوله لمسلمى الهند : لو كنتم ذباباً يطن ما استطاع الاستعمار أن يبقى بينكم ساعة واحدة .

ويشير إلى اهتمام السلطان عبد الحميد بحركة الأفغانى الإصلاحية وقد استدعاه إلى إستانبول لأن السلطان والأفغانى كانا من أشد المؤيدين لإنشاء جامعة الشعوب الإسلامية .

ويتساءل الدكتور إبراهيم العدوى : على أى أساس يوجه بعض الكتاب اتهاما للأفغانى بالماسونية ؟ هل درسوا الفكر الماسونى جيدا ورأوا ما يقول ؟ وهل وجدوا تطابقا بين الأفكار الماسونية وأفكار جمال الدين الأفغانى ؟

ويرد عليهم بأنه ليس هناك دليل تاريخى قاطع على هذا الاتهام . وبالتالى فليست له أية قيمة تاريخية ، فإذا كانوا يبنون إتهامهم على أن الأفغانى كان يميل إلى الجمعيات التى تدعو إلى حرية الفكر فهو أساس فاسد لأنه لا أحد يختلف على ضرورة أن يهتم كل مصلح بتشجيع هذه الحرية .

الإحياء الإسلامى

الدكتور أبو اليزيد العجمى

ويتحدث الدكتور أبو اليزيد العجمى عن الدعوة الإصلاحية لجمال الدين الأفغانى ، فيقول : إن الرسالة التى أداها فى عصره كان لها أثر بالغ وبارز على تلاميذه وعلى رأسهم الإمام محمد عبده ، ولاشك أننا سنجد أنفسنا أمام صحيحة مهمة من صحىحات الحق ودعوة من دعوات البعث والإحياء لواقع الأمة العربية والإسلامية ، خاصة أن العالم الإسلامى آن ذاك كان فى ظروف الاستعمار الذى هيمن على مقاليد الأمور فيه وكذلك إحساس المسلمين بفقد الهوية وافتقاد الذاتية ، وعندما يأتى رجل كالأفغانى يحرك مشاعر المسلمين ويدعو إلى إصلاح العالم الإسلامى فحسبه أنه هو البداية . وأنه كون مدرسة من العلماء والمصلحين الذين أثروا بصورة واضحة فى الحركة الفكرية فى عالمنا الإسلامى .. وحسبه أنه ضحى من أجل هذه الفكرة التى اعتنقها والتى كانت الأمة الإسلامية بحاجة إليها .

ولا يستطيع أحد أن يعد رواد الحركة والبعث الإسلاميين دون أن يعد جمال الدين الأفغانى ، ولا يستطيع أحد أن يعد المصلحين فى عالمنا الإسلامى دون أن يحسب فيهم جمال الدين الأفغانى وتلاميذه بغض النظر عما إذا كنت تعتنق الفكرة أو لا تعتنقها الآن ، لكن يجب أن ننظر إلى أعلامنا ومصلحينا من خلال الدور الذى أدوه والرسالة التى حملوها والعصر الذى عاشوا فيه وظروفه التى أحاطت به .

وكذلك أن البعض نظر إلى الأفغانى وفقا لعدد من المعايير المعينة التى حددها ومن يخالف هذه المعايير يعتبر خروجاً ومحل نقد .. والمدرسة العقلانية الحديثة فى التفسير اتهمت الأفغانى بالماسونية ، وهؤلاء من أمثال الأفغانى مصلحون اجتماعيون ومنطلقون من فهم التراث العربى والإسلامى ، فلا يعقل أبداً أن ينضوى تحت لواء جماعة أو مؤسسة فيها ما يخالف الإسلام .. ربما يكون

قد اجتهد أن هذه الجمعية قد تخدم فكرته أو تحمل معاني تتفق مع المعاني العامة التي كان يدعو لها الأفغانى والصورة التي أدركها كانت بعيدة عن مساوىء الماسونية التي اكتشفها العلماء فيما بعد .

وقضية الانتماء في حد ذاته لجماعة أو لمؤسسة لا تعنى شيئا بقدر ما تحمله هذه الجماعة أو المؤسسة من الأفكار التي تعرضها للقبول أو النقد ..

ويضيف : إن الأفغانى كان مجتهدا ومجددا له أثره على الصحافة وأثره على حركة التحرر العالمى وأثره على يقظة العقل العربى وتلاميذه الذين أصبحت لهم رؤية فكرية متميزة ولا بد أن نقدر فيه كل هذا حتى ولو اختلفنا معه أو اتفقنا .

ويقول : إننا عندما ننظر إلى الأفغانى ودعوته الإسلامية فيجب علينا ألا ننظر إليه بمنطق المرحلة الراهنة .. وإنما يجب أن ننظر بمنطق الأمس والوقت الذى وجد فيه حيث كان العالم الإسلامى مستعمرا والتبشير كان فى أشده والذاتية العربية نائمة ، وكاد العقل العربى أن يتوقف نتيجة توقف الاجتهاد والسيطرة الاستعمارية واجترار الأفكار وعندما يأتى مصلح كهذا يدعو إلى التجديد والبعث فيجب أن نضعه وفق معايير صحيحة للنقد .

ويضيف : إنه ربما لم تكن بعض أفكار الأفغانى متوافقة مائة بالمائة مع المشروع الإسلامى ولكن الإطار العام كان إسلاميا ، وكان البعث الذى ينشده إسلاميا .

هل كان الأفغانى أستاذا للإمام محمد عبده ؟ الدكتور أحمد شلبى

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة

ما أخذ على الأفغانى :

وينفرد الدكتور أحمد شلبى أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة بتوجيه انتقادات حادة للأفغانى ، فيقول :

إن الأفغانى كان ثائرا بدون شك ولكنه فى تقديرى الشخصى لم يكن أستاذا للإمام محمد عبده الذى كان يتجه لتربية الإنسان أولا لأن ذلك هو الذى يقود إلى النجاح السياسى .

أما الأفغانى فكان يرى أن السياسة إذا اعتدلت هى التى تصلح الأمور وبسبب ذلك اصطدم بشخصيات كثيرة جدا فى بلاده ، وفى مصر على السواء .. وكان ينبغى أن تتخذ دعوته طريق الحكمة والموعظة الحسنة كما علمنا القرآن الكريم ، وأن يقيم علاقات طيبة يتخذها وسيلة لتحقيق الإصلاحات وهو الأمر الذى غفل عنه وأهمله تماما .

ويتهم الدكتور أحمد شلبى الأفغانى بأنه عندما وجد الترف ووضع فى « قفص من ذهب » فى إستانبول هدأت ثورته ، وبأنه كان محبا للانتقاد .. فقد انتقد الشاه وحكومته وهو مما يؤخذ عليه حيث استخدمت الدول الأجنبية كلامه كحجة للتدخل فى شئون بعض الدول .

ومن أفكاره غير الموفقة أيضا - كما يقول الدكتور شلبى - فكرة لإقامة اتحاد بين الأديان ونقده للمذاهب المسلم بها حتى أنه نقد مذهب الإمام أبى حنيفة .

ويضيف : إنه قابل محاضرة الفيلسوف الفرنسى « رينان » بفتور شديد

وهى المحاضرة التى اتهم فيها الإسلام بأنه لا يشجع على العلم وبأن العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها .

إلا أن الدكتور أحمد شلبى يشير إلى جوانب مشرقة فى شخصية جمال الدين الأفغانى لا يستطيع أحد أن ينكرها ، فيقول : إن أبرز شئ فى حياته كان القلق والثورة التى لازمته أينما حل ، وأنه لعب دورا كبيرا فى تحريك الهمم بمصر والعالم الإسلامى ، وإثارة مشاعر الشعوب الإسلامية ضد الظلم والاستبداد الذى ينبع من الداخل أو يرد من الخارج .

وينفى عنه تهمة الإلحاد ، ويقول إن جهوده الكثيرة فى مجال الإصلاح تكفى لدفع هذه التهمة عنه . أما اتهامه بالماسونية فلا يستطيع أحد أن يلومه عليها لأن أخطار هذه النحلة لم تكن قد ظهرت بعد وقت ظهور جمال الدين الأفغانى .. كما أن بث سمومها يتفاوت من بلد إلى بلد ومن زمن إلى زمن . ويحذر الدكتور شلبى من خطورة الماسونية فى العصر الحالى حيث تقف إسرائيل بكل قوة وراء مؤسساتها الصهيونية والتى تتمثل فى «أندية» «الليونز» ، و «الروتارى» .

جمال الدين الأفغانى فى نظر التاريخ

الدكتور عبد الباسط محمد حسن

عميد كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر

اجتمع معظم المؤرخين والباحثين فى تاريخ العالم الإسلامى على أن نهضة الشرق الإسلامى مدينة إلى حد كبير إلى جهود السيد جمال الدين الأفغانى ، فقد استطاع أن يؤثر فيه من النواحي السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية أكبر تأثير ، وكان عاملا مهما فى كثير من الثورات التى قامت خلال القرن التاسع عشر .

استطاع جمال الدين أن يؤثر فى سير الحركات الإصلاحية التى تجاوزت بها أرجاء العالم الإسلامى ، فدعا إلى الجامعة الإسلامية لتحقيق الوحدة بين البلاد الإسلامية المختلفة ، ودعا المسلمين إلى نبذ الخلافات فيما بينهم وكشف لهم عن أدوائهم ونقائصهم ، ودعاهم إلى السمو بأنفسهم والاعتزاز بدينهم ، والحرص على مدنيتهم بعد تطهيرها من الشوائب والأخلاق لكيلا يتخطفهم العدو الذى يتربص بهم الدوائر ، ولذا يقول عنه جورج أنطونيوس : « إن الحركة التى هزت العالم الإسلامى فى أواخر القرن التاسع عشر واستهدفت بعث الإسلام وتحقيق الوحدة الإسلامية كانت مدينة بالدرجة الأولى إلى تفكيره » .

وإلى جانب دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية دعا إلى مقاومة التدخل الأجنبى والحكم الاستبدادى وطالب بإشراك الشعب فى الحكم . ولذا أثر فى قيام الثورة العراقية وكثيرا من الثورات التى قامت فى إيران وأهمها ثورة الشعب ضد امتياز احتكار الطباق الذى منحه الشاه ناصر الدين لشركة ريجى الإنجليزية .

كما اعترف سعد زغلول بقيمة الدور الذى قام به جمال الدين فقال : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم ، لا أقول ذلك ولا أدعيه ،

بل لا أتصوره وإنما نهضتكم قديمة من عهد محمد علي وعراي وللسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها ، وهذا حق يجب ألا نكتمه لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف » .

ولقد كان للسيد جمال الدين أثر علمي لا يقل عن أثره السياسى فقال عنه الرافعى : « إنه كان أشبه بمدرسة متنقلة » وقال عنه الشيخ رشيد رضا : « إنه غرس فى تلاميذه روح التفكير المطلق وحب الحقائق التى تتمشى مع العقل السليم والرأس الحصيف ، وكانت دروسه تتميز بسعة الأفق والتحرر من قيود التقليد » .

وقد استطاع جمال الدين أن يؤثر فى رقى الصحافة وخاصة فى مصر ، وشجع تلامذته على إنشاء الجرائد والمجلات والإكثار من القراءة فى كتب الأدب ليستقيم أسلوبهم وتقرب عباراتهم إلى الفصاحة والبيان ، ويتمكنوا من كتابة ما يعن لهم من الأفكار لصالح الأمة وخير الوطن ، ولذا يقول الشيخ محمد عبده : « وأصبحت ترى فى القطر المصرى كتبة لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به » .

أما من الناحية الدينية فقد طالب بالرجوع إلى جوهر الدين وتفسيره تفسيراً يتلاءم مع روح العصر ، والاعتماد على منطق العقل والبعد عن التقليد دون أدنى إهمال لسلطان القرآن والحديث ، ورد على كثير من المفتريات التى وجهت إلى الدين ، ولذا قال عنه رينان : « تعرفت بالشيخ جمال الدين .. وهو خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلنها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس .. وقد خيل إلى من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث إليه أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجهها لوجه .. وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد » .

ما يؤخذ على السيد جمال الدين الأفغانى

سرعة الغضب :

اتفق معظم المعاصرين للسيد جمال الدين على أنه كان سريع الغضب حتى أن الشيخ محمد عبده قال عنه : « إنه حديد المزاج ، وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعتة الفطنة » .

وقد روى عنه الخزومي قصة تؤيد هذا الرأي ، فقد طلب من السلطان عبد الحميد الثاني لأحد المصريين الموجودين في الآستانة رتبة وزيادة راتب ، فوعده السلطان بتحقيق رغبته ، إلا أن السلطان تلكأ في تنفيذ وعده ، فدخل عليه جمال الدين بوجه عبوس قائلاً :

« إنني أتيت لأستميح جلالتك أن تقللني من يعنى لك لأني رجعت عنها لقد بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد وقد رجوتك بالأمر الفلاني ، ووعدت بأن تقضيه لي ، ولم تفعل » .

فأطرق السلطان عبد الحميد برهة ثم قال :

« سبحان الله يا حضرة السيد إن أمرا طفيفا مثل هذا يحملك على نقض بيعتي !! أما كان يحسن بفضلك أن تلتمس لي عذرا بكثرة مشاغلي وتذكرني قبل نقض البيعة ؟ ساعلك الله ، وأحسن جزاءك » . ثم أصدر إرادته حالا بما طلب جمال الدين .

فقال جمال الدين : الحق يقال إنني شعرت بتسرعي ، وعرفت خطئي ، كما أنني عرفت للرجل كبير فضله ، وسعة صدره .

تشجيعه سياسة الاغتيال :

يؤخذ أيضا على السيد جمال الدين الأفغاني أنه كان يشجع سياسة الاغتيال ، فقال مستر بلنت : إن العلماء كثيرا ما كانوا يتباحثون سرا على كيفية عزل إسماعيل ، والوسائل التي تمكن من ذلك أو حتى من التخلص منه باغتياله ، فاقترح السيد جمال الدين على الإمام محمد عبده قتل الخديو إسماعيل ، كما قال لمستر براون : لا أمل في الإصلاح في إيران قبل قطع ستة أو سبعة رؤوس ، وذكر بالاسم شاه إيران وكبير وزرائه ، وكلاهما قتل بعد ذلك .

وما قاله قاتل الشاه ناصر الدين في محاكمته : « إنني أقسم بالله العلي القوي الذي خلق السيد جمال الدين الأفغاني وخلقني وخلق العالم أجمع ، أنه لم يكن أحد يعلم بنياتي الحقيقية سوى السيد جمال الدين » .

كان جمال الدين يشجع سياسة الاغتيال السياسي ، إلا أن هذه السياسة أثبتت فشلها في مختلف الأوقات ، فالرأي السديد والفكرة الصائبة يمكنهما أن

ينتشر بطريق غير طريق الاغتيال . ويمكننا أن نرجع تشجيع جمال الدين لهذه السياسة إلى سرعة غضبه ، وميله إلى الحدة التي قال عنها الشيخ محمد عبده : « إنها كثيرا ما هدمت ما رفعتة الفطنة » .

التجأؤه إلى الدول الأجنبية :

يؤخذ على السيد جمال الدين أيضا أنه استعان ببعض الدول الأوربية والسفراء الأجانب في تحقيق رغباته . فكيف يحق للسيد جمال الدين وقد قضى حياته داعيا إلى مقاومة التدخل الأجنبي أن يستعين بالأجانب ضد بنى وطنه ؟ وكيف يحق له أن يلتجئ إلى قنصل فرنسا الجنرال طالبا منه أن يعمل على عزل الخديو إسماعيل ؟ وكيف يحق له بعد اختلافه مع الشاه ناصر الدين أن يذهب إلى إنجلترا مطالبا الإنجليز بعدم التعاون مع الشاه ؟ وكيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية في إنجلترا ، وهى الدولة التى لها مصالح كثيرة في الشرق والتى سبق له أن هاجمها في خطبه ومقالاته بالجرائد المصرية والإيرانية وجريدة العروة الوثقى ، والتى يمكن أن تتخذ من أقواله ذريعة للتدخل في شئون إيران ؟

لقد أخطأ جمال الدين في التجأؤه إلى هذه الدولة ، كما أخطأ في تشجيعه لسياسة الاغتيال السياسى .

زعم بعض العلماء الرسميين من أمثال حسن أفندى فهمى في تركيا والشيخ عليش في مصر أن السيد جمال الدين خارج على تعاليم الدين ، واتخذوا من دروسه سبيلا للطعن عليه محتجين عليه بقراءته لبعض الكتب الفلسفية ، آخذين بقول جماعة من المتأخرين بتحريم النظر فيها .

وقد نسى هؤلاء أن الدين القوى - كما يقول الشيخ محمد عبده - لا ينفر من العقل . ولا يحقر من شأنه ، ولا يحارب أهله . كذلك أخذوا عليه أن بعض تلاميذه لم يكونوا متدينين ، وقد دافع عنه الشيخ رشيد رضا بقوله : « إن هؤلاء التلاميذ الذين يومئ إليهم خصوم جمال الدين لم يكونوا متدينين قبل اتصالحهم بأستاذهم ، كما أنه لا يسأل عن تدين تلاميذه أو عدم تدينهم » .

أما من ناحية عقيدة السيد جمال الدين ، فقد كان مؤمنا لا تشوب عقيدته شائبة ، فهو يؤمن بأن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق ، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه ، فلا ريب يكون سببا في السعادة التامة ، والنعم الكامل .

وهو يتحدث عن مزايا الدين الإسلامي في رسالة « الرد على الدهريين » فيقول : « إنه في مقدمة الأديان من حيث حاجة البشرية إليه ، لأن له مزايا ليست متوافرة في دين آخر » .

وبعد أن يعدد مزايا الدين الإسلامي ، يقول : « فإن قال قائل : إن كانت الديانة الإسلامية على ما بينت ، فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة والشأن المخزن ؟

فجوابه : إن المسلمين كانوا كما كانوا ، وبلغوا بدينهم ما بلغوا ، والعالم يشهد ، وأكتفى الآن من القول بهذا النص الشريف ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

كما دافع عن الإسلام دفاعا عظيما ضد منتقديه ، فليس من المعقول والحال كذلك أن يكون جمال الدين - وهو صاحب دعوة تجديدية في الدين - خارجا عن الدين .. كل ما في الأمر أن هناك أمورا ينكرها الجاحدون المتزمتون الذين درجوا على وضع عقائدهم الدينية في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، واتهام كل مفكر حر ، ومجدد مجتهد بالزندقة والإلحاد ، فاتهموا جمال الدين بالخروج على الدين .. وهي تهمة باطلة من أساسها ، لا يستسيغها العقل الواعي ، ولا يقرها المنطق السليم .

(من كتابه « جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث »)

من آثار الأفغانى فى السياسة والعلم والأدب والدين

هذه مساهمة أخرى للدكتور عبد الباسط محمد حسن عميد كلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر ، وقد نقلتها صحيفة الشرق الأوسط الغراء من كتابه القيم «جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامى الحديث» وهذه المساهمة العلمية تتناول الجوانب السياسية والعلمية والأدبية والدينية فى جهاد الأفغانى ونضاله الطويل ، حيث يقول :

أولا - أثره السياسى :

لما شعر الإنجليز بخطر جريدة العروة الوثقى عملوا على وقفها وذلك بوضع العقوبات فى سبيلها فانعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة وأصدر قراره إلى نظارة الداخلية قاضيا عليها بأن تشدد فى منع الجريدة من دخول الأقطار المصرية كما أعلنت نظارة الداخلية بأن كل من توجد عنده الجريدة يغرم مبلغا من خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين ولذلك قال « جمال الدين » متهمكا :

« وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية بركة تصرف الإنجليز » . وقد كان لمعارضة جمال الدين للاحتلال أثره فى نهضة مصر السياسية إذ بدأت الصحف تنجس هذا الاتجاه ، وسارت المؤيد فى محاربة الإنجليز من غير هوادة أو مهادنة ، وأفسحت صفحاتها الذوى الأقلام الملتبسة من أمثال سعد زغلول وإبراهيم اللقانى وإبراهيم المويلحى وغيرهم .

ويلاحظ أن معظم المصريين كانوا يدينون بالولاء لتركيا إذ كان جمال الدين يرى أن تركيا صاحبة الحق الشرعى فى مصر ، وكان يدعو فى جريدة العروة الوثقى إلى تكوين جماعة إسلامية تحت لواء دولة قوية ، فاتجه المصريون إلى تركيا باعتبارها زعيمة العالم الإسلامى وظل لهذه الدعوة أثرها فى المجتمع المصرى فكان الأدباء والشعراء (أمثال شوقى وحافظ) يمجدون الخلافة العثمانية - كما ذكرت من قبل - وظلت فكرة القومية مختلطة بعاطفة الولاء لتركيا ، وكانت خطب مصطفى كامل وكتابات بشير إلى هذه الناحية فمن قوله : « ... وواجب المسلمين أن يلتفتوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة وأن يعزوا أموال والأرواح نفق حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجددها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية المقدسة » .

وكان محمد فريد متفقا مع مصطفى كامل ، في أن مصلحة مصر في ذلك الوقت تدعو إلى مؤازرتها لتركيا .

وإذا راعينا أن الحزب الوطنى الذى أنشأه مصطفى كامل كان إحياء للحزب الوطنى الحر الذى أنشأه جمال الدين قبل الثورة العراقية لأدركنا مدى الأثر الذى أحدثه جمال الدين فى الحياة السياسية لمصر ، ويقول سعد زغلول :

« لست خالق هذه النهضة كما يقول بعض خطبائكم .. لا أقول ذلك ولا أدعيه بل لا أتصوره ، إنما نهضتكم قديمة من عهد محمد على وعراى وللسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها ، وهذا حق يجب أن لا نكتمه لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف » .

بهذا نرى أن جمال الدين نجح فى مقاومة الحكم المطلق وإثارة الوعى القومى فى مصر قبل الاحتلال وبعده ، وكان لدعوته وتعاليمه أثر كبير فى الحياة السياسية للبلاد ، بل يمكن القول بأن أثره فى مصر كان أقوى وأعظم منه فى أى بلد من البلدان الإسلامية الأخرى .

ثانيا - أثره العلمى والأدبى :

استطاع جمال الدين أن يفتح أذهان المصريين إلى البحث والتفكير وبين لهم طريق الاستنتاج والاستنباط ، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة فى مصر خطوات واسعة ، وتقدمت الصحافة تقدما ملموسا ، وتحررت من مختلف القيود ، فلم تعد تعيش بأموال الحكام وتتغذى بأفكارهم ولا تكاد تتحدث إلا بألسنتهم .. فقبل مجيء السيد جمال الدين كان الأفق العلمى ضيقا ، وكان العلماء يلتزمون جانب الحذر والتردد فى إصدار الأحكام ، فأخذ جمال الدين يغرس فى تلاميذه روح التفكير المطلق ، وحب الحقائق التى تتمشى مع العقل السليم والرأى الحصيف ، وكانت دروسه تتميز بسعة الأفق والتحرر من قيود التقليد ، فهو يجمع بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين ويجمع إلى الأصول فروعها ، وإلى المقدمات نتائجها .

ويروى الشيخ محمد عبده أنه بعد حضوره فى الأزهر سنين مل الدروس المعتادة ، وصارت نفسه تطلب شيئا جديدا ، وتميل إلى العلوم العقلية ، وكان

الشيخ حسن الطويل ممتازا في الأزهر ، بعلم المنطق فحضره عليه ، ولكنه لم يكن يشفى ما في نفسه ، وقرأ الشيخ حسن الطويل شيئا من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بالمعنى وكانت دروسه أغلبها احتمالات ، فلما جاء جمال الدين وجد عنده أمنيته فلم يكن جمال الدين يتردد في الحكم تردد الشيخ حسن الطويل وإنما كان يصدر أحكامه عن ثقة وينظر إلى الأشياء نظرة عميقة ، وقد لخص لنا الشيخ محمد عبده درسين من دروس السيد جمال الدين أحدهما عن التربية والآخر عن فلسفة الصناعة نستدل منهما على غزارة علمه وسعة أفقه .. وكانت طريقته في التدريس أن يشرح الموضوع ويعلق عليه من جميع نواحيه ويبين رأيه فيه ، ثم يقرأ النص بعد ذلك فإذا هو واضح كل الوضوح ، وبهذه الطريقة استطاع أن يعود الطلبة حرية البحث ، ويوجد شخصيات تبحث وتنقد وتحكم ، ولا تقف عند حد النص كأنه تنزيل من الله .

أما من الناحية الأدبية فقد تأثرت به المدرسة الصحفية الثانية وخرجت عن النطاق الضيق الذي عرف به رجال المدرسة الصحفية الأولى وسرى إلى أى حد أثر جمال الدين في نهضة الصحافة المصرية .

مرت الصحافة المصرية في أطوار عدة ، وأدوار متعددة ، حتى أصبح لها أثرها في توجيه الرأي العام ، وتهيئة الأفكار وتنقيف العقول ، وكان أثرها يختلف قوة وضعفا حسب الأحوال السياسية والاجتماعية للبلاد ، وأهم هذه الأدوار :

الدور الأول : ظهرت المدرسة الصحفية الأولى في عهد محمد علي وهي المدرسة التي كان من أشهر تلاميذها رفاعة الطهطاوى وعبد الله أبو السعود ، ومحمد أنسى وغيرهم .

وكانت الصحافة رسمية في أول أمرها تعيش بأموال الحكام وتصدر بوحى منهم ، ثم ظهرت الصحافة الشعبية ، وكانت في ذلك الوقت صورة دقيقة من الصحافة الرسمية .

ويغلب على هذه المدرسة الطريقة العلمية ، فجاءت أكثر الصحف مشحونة

بالفصول العلمية والأدبية - مؤلفة كانت أم مترجمة - وكان الكتاب يميلون إلى استعمال المحسنات البديعية متأثرين بقيود الماضي البعيد حين كان النثر العربى يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع التى فتن بها أدباء العربية منذ القرن الرابع الهجرى .

وأفضل ما فى تاريخ هذه الصحافة المصرية الرسمية أنها نشأت مصرية خالصة ليس لغير المصريين فضل فى إنشائها أو تقدمها أو ارتقاؤها بل كان لها هى الفضل على البلاد الشرقية بما علمت من رجالها أصول الإنشاء والتحرير .

ويمثل رجال هذه المدرسة من الصحافة دور الطفولة فلم يكن لهم أثر مباشر فى توجيه رأى العام أو خلقه بل عاونوا على تبئية الأفكار ، وتنوير الأذهان .

الدور الثانى : ظهرت المدرسة الصحفية الثانية فى عهد إسماعيل وتوفيق ، وكان إسماعيل يريد صحافة موالية للحكومة تكون فى خدمته وتخضع لرغبته لتستحق عطفه عليها واحتفاءه بها ، وكان يسمح لها بأن تخوض فى مختلف الموضوعات ما عدا موضوع الطعن عليه ولذلك لم تتمتع الصحافة بحرية النقد .

وظلت على ذلك حتى جاء جمال الدين إلى مصر فطلب من تلاميذه أن يشتركوا فى الكتابة ، وشجعهم على القراءة فى كتب الأدب ليستقيم أسلوبهم وتقرب عباراتهم إلى الفصاحة والبيان ، ويتمكنوا من كتابة ما يعن لهم من الأفكار لصالح الأمة وخير الوطن .

وكان القادرون على الكتابة والإجادة فى مختلف الموضوعات نفر قليل من أبناء مصر منهم عبد الله فكرى وخيرى باشا ومحمد باشا سيد أحمد ، على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبى على اختصاص فيه فعمل جمال الدين على أن يكون تلاميذه من بين هؤلاء المجيدين فشجع أديب إسحق ، على أن ينشئ جريدة مصر ، وكان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ، ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسمه أو باسم مستعار هو مظهر بن وضاح ، ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الإسكندرية والاشتراك مع سليم نقاش فى إصدار صحيفة التجارة وطلب من الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى أن يشتركا فى التحرير .

كما أصدر سليم العنحورى جريدة « مرآة الشرق » وتنحى عنها فى سنة ١٨٧٩م وتولاها إبراهيم اللقانى بإيعاز من السيد جمال الدين كما أصدر يعقوب ابن صنوع صحيفتين هما « مرآة الأحوال » صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦م و « أبو نظارة » صدرت فى القاهرة سنة ١٨٧٧م وكانت أيضا بإيجاء من السيد جمال الدين .

ولما انتقل جمال الدين إلى باريس اشترك مع الشيخ محمد عبده فى إصدار جريدة العروة الوثقى فكانت مثالا يحتذى لرجال المدرسة الصحفية الثانية ، وأغلبهم من تلامذة جمال الدين ، وبعد أن كانت المقالات قاصرة على النواحي العلمية والأدبية اتسع نطاقها على أيدي رجال هذه المدرسة وتناولت الموضوعات السياسية والاجتماعية والدينية ، وتخلصت من السجع والجناس وغيرها من ألوان المحسنات البديعية .

وأخذت تنتقد الولاة والحكام بصراحة وجلاء متخطية جميع الصعاب الرسمية من إنذار وتعطيل مؤقت وإلغاء ، وليس أدل على ذلك من أن جريدة التجارة عطلت فى أوائل عام ١٨٧٩م لمدة خمسة عشر يوما فاستقبلت أمر التعطيل بإصرار على المعارضة بقولها :

« فإن التجارة تحسب حب الوطن دينا ، والمدافعة عنه جهادا فإن عاشت فهى سعيدة ، وإن ماتت فهى شهيدة ، ولقد آتاه الله النعمتين ، وأتاح لها الحسينين فعاشت به وماتت عليه ، وستبعث بعد أسبوعين رافلة فى ثوب الشهادة مزينة بحلى السعادة على رغم أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا إلى ما لم نقصد ، وحاولوا إطفاء نور الحق ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون » .

وتتميز هذه المدرسة بغلبة الروح الأدبية عليها ، « ولذا يمكن القول بأن الأدب أفاد من الصحافة سعة فى الموضوع وغزارة فى الأفكار وتنوعا فى المادة » .

وهكذا استطاع جمال الدين أن يؤثر فى نهضة مصر الأدبية فزاد عدد الأدباء ، وقويت أساليب الكتابة وتطورت الصحافة المصرية تطورا ملحوظا ، ولذا يقول الشيخ « عبده » :

« وأصبحت ترى في القطر المصرى كتبة لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث في السن ، شيوخ في الصناعة ، وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به » .

ثالثا - أثره الدينى :

سبق أن ذكرنا أن جمال الدين كان يدعو إلى التجديد فى الدين وكانت دعوته قائمة على الاعتماد على منطق العقل ، والبعد عن التقليد دون أدنى إهمال لسلطان القرآن الكريم والحديث « وكان يرى أن المسلمين ما صاروا أمة ذات مدنية إلا بحسن فهمهم لدينهم وحسن عملهم به ، وما ضعفوا أو استكانوا بعد ذلك إلا لسوء فهمهم لدينهم وانحرافهم عن صراطه وابتداعهم فيه » .

وهو يطالب بالرجوع إلى جوهر الدين ، وتفسيره تفسيراً يتلاءم مع روح العصر ، وقد مكّنه علمه التام بالقرآن الكريم والسنة من إقامة الحجة على أنهما لو أحسن تأويلهما معا لكان الإسلام كفافاً لإحداث تطور راق عظيم .

ولذلك أخذ جمال الدين يشرح للمصريين قواعد الإسلام الصحيحة وأبان لهم أن المسلم لا يكون مسلماً صحيح الإسلام إلا إذا اعتقد عن دليل وبرهان ، وكان إذا ذكرت أمامه كلمة التوحيد قال : « إن الناس لو فهموا معناها لما استعانوا إلا بالله ، ولما طلبوا المدد إلا من الله » .. وكان يقول :

« ما أكثر الجرائد السياسية والعلمية والأدبية فى هذه البلاد مع أن أهاليها فى حاجة إلى أبسط من ذلك كله ... إلى جريدة تقول لهم اغسلوا أرجلكم .. اغسلوا أيديكم » .

وقد نشأ له من جراء صراحته هذه ، وتجديده فى الدين مريدون كثيرون ، وأصبح لدعوته أثر كبير فى المجتمع المصرى وكان طبيعياً أن يلقى جمال الدين مقاومة من بعض العلماء ورجال الدين إما لجمودهم وعدم فهمهم لروح العصر ، وإما لحقدهم وعدم رضائهم عن ظهوره بينهم .

(من كتابه « جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامى الحديث »)

تحليل تراث الأفغانى

الأفغانى كان مفكرا مستترا خيرا بالسياسة الدولية،
والماسونية فى شأنه ليست تهمة

الدكتور محمد عمارة

لكى نحدد الموقع الفكرى والسياسى ، والإنجاز الحضارى لجمال الدين الأفغانى لابد فى البداية من تحديد الملابس والتحديات التى كانت قائمة فى ديار الإسلام ، وفى الوضع العالمى فى الفترة التى عاش فيها والتى شهدت جهاده ، هذه الملابس تتميز بعدد من المشكلات والقضايا .. كان هناك أولا التخلف الموروث من حقبة الحكم المملوكى والعثمانى ، والذى يتمثل فى توقف وتراجع الإبداع والتجديد فى الحضارة العربية الإسلامية ، وكان هناك الضعف والتفسخ اللذين استشرىا فى نظام السلطنة العثمانية عندما عجزت لفرها فى الإبداع الحضارى عن أن تسد الثغرات التى بدأ الغرب ينفذ منها إلى الولايات المتحدة العثمانية .

وعندما تصاعدت حركة القومية التركية - الحركة الطورانية - خلقت تناقضا حادا بين الترك وبين العرب وعندما لتجهت فى التحديث نحو الغرب تريد تجديدا وتحديثا على النمط الغربى بدلا من أن تجدد وتحبى سمات وقسمات الحضارة العربية الإسلامية ، ثم كان هناك التصاعد فى المد والتحدى الغربى ذلك الذى قام بمهمة حراسة ضعف الدولة العثمانية تمهيدا لاحتوائها ، واقتطاع أجزائها بلدا وراء الآخر . تلك كانت أبرز الملابس والتحديات التى خيمت على العالم الإسلامى فى الفترة التاريخية التى ظهر فيها جمال الدين الأفغانى ، باختصار كان التخلف الموروث من الحقبة المملوكية قد تزايد وتدعم بالضعف العثمانى وكان التحدى الغربى قد تزايد بعد النهضة الغربية والثورة الصناعية والمد الاستعمارى الحديث .

لم يكن حالما ولا مثاليا :

أما المهمة التي حددها جمال الدين الأفغانى لنفسه ولحركته ودعوته فكانت هى مواجهة هذه التحديات ، ولم يكن الرجل حالما أو مفكرا مثاليا يطمح فى الحيلولة بين هذه المخاطر والتحديات وبين أن تبلغ مداها ، فلقد كان يؤمن بأن المرض إذا استشرى فإن الشفاء منه ليس بالأمر الهين ولا بالقريب الحدوث ، بل لقد شبه سقوط العالم الإسلامى بأنه مثل السقوط من الجبل العالى يستحيل على المصلح أن يمنعه فى منتصف المسافة وكان السقوط فى نظره هو السقوط عن نهج الإسلام كعقيدة وشرعية وحضارة ، ومن ثم فقد حدد فى واقعته أن مهمته هو التيار الفكرى والسياسى الذى قاده وحركه هى تقصير مدة السقوط وتقليل خسائر هذا السقوط والتعجيل بالشفاء من آثاره أى أنه مع هذه الواقعية قد حدد مهمته فى تلمس سبل الإحياء والنهضة لعالم الإسلام وكان الأفغانى يدرك أن أيديولوجية هذه الأمة هى عقيدة الإسلام وأن الإسلام هو المحرك الأول والأقدر لهذه الأمة ، فهو المحدد لحدود وطنها بل هو جنسيتها قبل كل الألوان والأجناس ، بل إن التدين بالإسلام فى نظره كان أشبه ما يكون بالطبع الذى تطبع عليه النفس الإنسانية .

الأصالة الإسلامية :

ومن ثم فلقد كان على الجبهة الفكرية .أول ما لفت أنظار تلاميذه ومريديه إلى المتابع النقية والجوهرية لتراث عصر الازدهار والخلق والإبداع فى الحضارة الإسلامية ، منها وداعيا إلى ضرورة النقد والتجاوز لتراث الركافة والتخلف والجمود الذى فصل بين مسلمى عصره وبين تراث عصر الازدهار والإبداع ، كذلك لفت الأنظار إلى تميز الحضارة العربية الإسلامية عن الحضارة الغربية ، فلم يدع إلى التبعية للنموذج الغربى فى الحضارة كما منع تيار التغريب ولم يقف عند الاكتفاء بالمروروث الفكرى كما صنع أهل التقليد والجمود وإنما دعا إلى إحياء السمات والقسمات الحضارية التى تتميز بها الحضارة الإسلامية مع فتح نوافذ العقل والفكر على ما هو مشترك إنسانى عام فى إبداع الحضارات الأخرى وهو صاحب رأى الذى يقول : إن العلوم هى بنت الدليل وحقائقها وقوانينها

هي ثمرة للبراهين . فالعلوم التي لا تتغير موضوعاتها ومادتها ومن ثم قوانينها وحقائقها هي مشترك إنساني عام وتعلمها وامتلاكها هو مصدر قوة لشخصيتنا الحضارية المتميزة .

أما تقليد الآخرين فيما تتميز نحن فيه عنهم فهو مسخ لشخصيتنا الحضارية وإضعاف لاستقلالنا بل ومنافذ يفتحها المقلدون للجيوش الغزو والاحتلال ، كذلك لفت الأفغاني الأنظار إلى نهضة اليابان ليضرب لأهل الشرق أى لأمة الإسلام المثل على أن النهضة والتقدم ليست حكرا للغرب ، فكما كانت لهم نهضة في الماضي فلليابانيين وهم شرقيون مثلهم نهضة معاصرة امتلكت العلوم التي هي مشترك إنساني عام مع احتفاظها بخصوصيتها الحضارية .

كذلك لفت الأفغاني أنظار المسلمين ، وهم يواجهون الشقاق القومي بين الأتراك والعرب إلى الارتباط الطبيعي بل والمقدس بين العروبة والإسلام لأن العربية هي لسان الإسلام ولأن كل الدول الأعجمية قد تسابقت إلى التعريب لأنه شرط في فقه الإسلام وفهم القرآن الكريم والسنة وشرط في التخلق بالأخلاق العربية التي صاغها وطبعها الإسلام .

الوعي بالتناقضات الدولية :

كذلك كان الأفغاني على الجبهة السياسية كما تثبت ذلك كتاباته وخاصة أعداد مجلة العروة الوثقى وكان خبيرا بالسياسة الدولية واعيا بتناقضاتها ماها في السباحة بين تيارات هذه السياسة الدولية كان يدرك حدود وخيوط العلاقات والتناقضات بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا والقيصرية الروسية ، وله اجتهادات ملحوظة في محاولة الاستفادة من تناقضات السياسة الدولية لحساب قضية تحرير ووحدة العالم الإسلامي ، وعلى الجبهة السياسية أيضا لم يكن حالما بوحدة أمة الإسلام في دولة واحدة في ذلك التاريخ وإنما كان داعية لما يمكن أن نسميه تضامناً عصبة دول إسلامية ، ولقد حاول ذلك تحت شعار الجامعة الإسلامية ورغم رأيه السلبي في الدولة العثمانية وفي السلطان عبد الحميد إلا أنه كسياسي حاول الاستفادة من إمكانيات السلطنة العثمانية بترميم ثغراتها وتجديد الخيوط الرثة في بنائها لكنه في النهاية نفذ يديه منها يائسا وعند ذلك

ركز على إحياء وتجديد إقليم من أقاليم الوطن العربى وكانت مصر فى ذهنه هى النموذج الذى أراد أن يصنع فى إطارها عندما أقام بها فى سبعينيات القرن التاسع عشر كانت النموذج الذى حاول إحياءه ليجتذب بقية أقطار الوطن العربى وليؤثر فى مجمل العالم الإسلامى .

إذن نستطيع أن نقول : إن الأفغانى ألقى بذور التجديد الفكرى لكن المشكلات والتحديات السياسية قد جعلته يركز أغلب جهوده فى العمل السياسى ، لقد صنع كوكبة من الرجال والقادة والعلماء وأقام العديد من التنظيمات مثل الحزب الوطنى الحر وجمعية العروة الوثقى فى مصر والهند وغيرهما من الأقطار وخاصة تلك التى كانت تعاني من النفوذ أو الاحتلال الاستعماري الغربى .

أما عن المؤاخذات أو بمعنى آخر الاتهامات التى وجهت إليه سواء فى عصره أو فى ما تلا ذلك العصر فهى :

أولاً : تهمة الماسونية ، وهذه التهمة حقيقة وليست اتهاماً لكن خطأ البعض من الذين يتخذونها سبيلاً للهجوم على الأفغانى ودعوته وحركته إنما يأتى من الغفلة عن ملابسات علاقة الأفغانى بالماسونية إن من الخطأ الشديد قياس الأحداث التاريخية بمعايير عصرنا الراهن فالماسونية فى الفترة التى كانت للأفغانى علاقة بمحافلها ورجالها أى فترة سبعينيات القرن التاسع عشر ، كانت حركة حسنة السمعة ولم تكن سلباتها ولا جرائمها قد انكشفت بعد . كانت قد تأسست فى الغرب فى العصور الوسطى كحركة مناهضة للبابوية ومعادية لاستبداد الكنيسة الغربية وكانت ترفع شعارات الثورة الفرنسية ، الحرية والإخاء والمساواة ، وكانت تستنكر التعصب الدينى والقومى وكانت تسمى المنتسبين إليها بالبنائين الأحرار ثم إن أكبر سلبات الماسونية وجرائمها هى الطابع اليهودى الذى جعل منها أداة تمهد لاغتصاب فلسطين ، لم تكن قد تكشفت بعد لأن أطماع اليهود الصهيونية قد ظهرت سافرة منذ عهد هرتزل والمؤتمر الذى عقده سنة ١٨٩٧م وهو العام الذى مات فيه جمال الدين الأفغانى ، إذن فلم تكن أطماع الحركة الصهيونية قد تكشفت فى سبعينيات القرن التاسع عشر لأن الحركة الصهيونية الحديثة نفسها لم تتكون إلا مع مشارف القرن العشرين .

كان الأفغانى من خصوم التعصب المذهبى

تعرض الدكتور محمد عمارة فى الجزء الأول من مساهمته المنشورة يوم أمس السبت ١٨ مارس ١٩٨٩م فى « الشرق الأوسط » إلى أبرز أفكار جمال الدين الأفغانى فى الإصلاح .

وفى هذا الجزء الثانى يرد صاحب المقال على اتهام الأفغانى بالماسونية ويثبت أنه كان حقيقة من أهل السنة الأفغان ولم يكن إيرانيا شيعيا ، موضحا أن تعرضه إلى هذه النقطة لا يقوم على أن الانتساب إلى إيران أو التشيع تهمة ، ولكن التهمة تصح من زاوية أن يكذب الإنسان على الجمهور فيدعى نسبته إلى قوم هو ليس منهم وإلى فكرة هو لا يعتقد بها .

ويزيد من خطأ اتهام الأفغانى بسبب علاقته بالماسونية أن الذين يتهمونهم ويتقصون من قدره لهذا السبب يغفلون تصور موقفه وعلاقته بهذه الحركة ، لقد انتسب إلى المحفل الماسونى وهذه حقيقة تسجلها الوثائق ويتحدث هو نفسه عنها بلا مواربة لكن الوثائق والحقائق تقول لنا أيضا إنه دعا المحفل الماسونى ليتصدى للاستبداد الداخلى وللنفوذ الأجنبى ، فلما رفض القائمون على هذا المحفل وكانت لهم علاقات بتنظيم المحافل الماسونية فى إنجلترا ، ثار الأفغانى ثورة كبيرة وخطب خطبة عصماء فى أعضاء المحفل وكان ذلك بحضور ولى عهد إنجلترا الذى كان يزور المحفل المصرى فى ذلك التاريخ ، هاجم الأفغانى هذا الموقف المتخاذل لأعضاء المحفل الماسونى ، وأعلن أن فى هذا الموقف تخاذلا عن الشعارات المعلنة من قبل الحركة الماسونية ، ثم استقال لكنه حاول الاستفادة من هذه الحركة كإطار تنظيمى فأنشأ محفلا شرقيا كانت له علاقة بالمحفل الفرنسى كى يستفيد من التناقض القائم بين فرنسا وإنجلترا باعتبار أن إنجلترا كانت صاحبة المطاعم الأكبر والنفوذ الأخطر فى القضية المصرية يومئذ وفى هذا المحفل الشرقى نظم عدة شعب للإدارة والمالية والجهادية والزراعية .. إلخ ، وفى هذه الشعب تم تثقيف وتدريب عدد من القيادات التى لعبت دورا بعد ذلك فى الثورة العربية تلك هى قصة العلاقة بين الأفغانى والماسونية ويجب

أن ينظر إليها في إطار سمعة الماسونية يومئذ وفي إطار استخدام الأفغانى لها كأداة تنظيمية حاول أن يوظفها في سبيل حركته ودعوته فلما وضحت له جوانب من حقيقتها هاجمها ونفض يده منها .

سنى لا شيعى :

أما التهمة الثانية فهي أنه شيعى إيرانى رغم أنه سنى أفغانى ، وهذه التهمة يجب أن نتنبه ونحن نناقشها إلى أن الانتساب إلى إيران ليس تهمة ، والتذهب بالتشيع ليس تهمة ، لكن التهمة هي الكذب فإذا كان الإنسان شيعيا إيرانيا ثم زعم أنه أفغانى سنى فتهمة هي الكذب على أنصاره وجمهوره ومريديه .. والحقيقة في هذه القضية أن الأفغانى قد نشأ في بلاد الأفغان ولكنه في مرحلة طلبه للعلم ساح في إيران بل وفي العراق وتلمذ على بعض علماء الشيعة .. وبعد ذلك عاد إلى بلاده واشترك في العمل السياسى بل ووصل إلى منصب الوزير الأول في حقبة صراع الأفغان ضد الاستعمار الإنجليزى وقبل أن يضطر إلى الخروج من بلده والسياسة في العالم الإسلامى ولقد كتب الأفغانى رسالة في تاريخ الأفغان تقطع بأنه أفغانى وكتب أقرب الناس إليه وأعرف الناس به وهو الإمام محمد عبده فقطع بأنه أفغانى وكتب كل من عرفه واقترب منه فقطع بأنه أفغانى ، لكن كيف ومن أين جاءت وبدأت تهمة أنه إيرانى يدعى أنه أفغانى ؟

لقد حدث ذلك بعد اختلافه مع الشاه الإيرانى ناصر الدين وبعد أن طرده الشاه من بلاد فارس على نحو شديد القسوة وبالغ الإهانة ثم حادثة اغتيال هذا الشاه بيد أحد تلاميذ جمال الدين وكان الأفغانى يومئذ يعيش في عاصمة الدولة العثمانية في الآستانة ، فأراد الشاه الذى خلف ناصر الدين أن يحتال على الدول العثمانية لتسلمه جمال الدين كى يحاكمه بتهمة التحريض على اغتيال الشاه السابق فكان أن استكتب عمدة (مختار) إحدى القرى الإيرانية وشيوخها ورقة قالوا فيها إن جمال الدين هو مواطن إيرانى نشأ في قريتهم (مازندران) وأرسل الشاه هذه الورقة إلى السلطان عبد الحميد طالبا تسليمه جمال الدين باعتباره مواطنا إيرانيا ، تلك هي بداية الزعم بإيرانيته وتلك هي ملابسات هذا الزعم .

لقد كانت حيلة إيرانية أراد بها الشاة القبض على جمال الدين لإعدامه وبالطبع فإننا يجب أن نعامل هذا الزعم على ضوء هذه الملابسات وغريب أن يتحول إلى حقيقة يرجحها البعض .

أما تهمة التشيع فيكفى في نفيها عن جمال الدين أن نراجع كتاباته وهي الوثيقة الشاهدة على مذهبه وفكره .. لقد كان الرجل كما أعلم فوق المذاهب فهو يأخذ الإسلام من منابعه بل وينتقد التعصب المذهبي وأكثر من ذلك فإن الكتب التي شرحها والأئمة الذين ألقى الأضواء على فكرهم تشهد بسنيته بل لقد انتقد نقدا صريحا نظرية الإمامة الشيعية ولا أعتقد أن هناك شيئا يمكن أن ينتقد القضية الجوهرية التي ميزت وتميز الشيعة عن السنة وهي نظرية الإمامة .

تلك هي أهم الملامح للرسالة والدعوة والحركة التي مثلها جمال الدين الأفغانى في فكرنا ونهضتنا الحديثة لقد كان باختصار شديد الرائد الذى ارتاد ميدان الخيار الحضارى الإسلامى المتميز فى مواجهة تيار التغريب ، وكان الرائد الذى حدد أن السبيل إلى تجديد دنيا المسلمين هو تجديد فكريتهم الدينية فى مواجهة تيار التقليد والجمود .

جمال الدين الأفغانى رجل قضى حياته سائحاً يشر بالحرية

الدكتور سيد رزق الطويل

عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية -

جامعة الأزهر

بدأت « الشرق الأوسط » منذ السبت ١٨ مارس ١٩٨٩م نشر آراء عدد من الكتاب والعلماء فى تجربة الزعيم المصلح جمال الدين الأفغانى وتراثه الفكرى ومن أبرز من شارك فى الحلقة الأولى الشيخ محمد الغزالى والدكتور محمد عمارة - وتواصل « الشرق الأوسط » اليوم الأحد ١٩ مارس ١٩٨٩م نشر بقية المساهمات مبتدئة بالدكتور سيد رزق الطويل عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية فى جامعة الأزهر .

جمال الدين الأفغانى شخصية متميزة ، ذات توجهات إصلاحية وأفكار ثائرة ، ولذا كان له تأثيراته الواضحة على امتداد القرن التاسع عشر الذى عاش فيه (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ . ١٨٣٩ - ١٨٩٧م) وأبرز أفكاره هى التالية :

١ - إصلاح العقول والنفوس وربط ذلك بالدين :

كان محور تفكير جمال الدين يدور حول تحرير العقل ، وبناء النفس الإنسانية بناء راشداً قويمًا ، ويعتمد فى ذلك على التوجيهات الإسلامية فى هذا الصدد ، وعلى رأسها القانون القرآنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ، فإذا صلح العقل الإنسانى واستقامت النفس البشرية تيسرت كل أسباب الإصلاح وفتحت أبوابه فى كل المجالات وصدق الله إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ؕ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . ولأجل هذا نجد من الآراء التى أعلنها الأفغانى :

إن الإسلام يمتاز عن سائر الأديان بما يأتي :
أ - صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوثة الأوهام والانغماس في الدجل والخرافات التي تزرى بالعقل الإنسانى .

ب - فتح الإسلام أبواب الشرف والسمو لكل إنسان متى سلك الأسباب الصحيحة له ، فليس الشرف مقصورا على حسب أو نسب أو جنس ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

ج - يتفرد الإسلام عن سائر الديانات بما يقوم به من تقرير المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون .

د - أوجب تعليم سائر الأمة .

هـ - ضرورة وجود المؤدب الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهذه النقطة هى التى قامت عليها خيرية هذه الأمة ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ .

٢ - إصلاح الحكومة :

يرى جمال الدين أن إصلاح الحكومة يتم عن طريق إصلاح الشعب أى أن الإصلاح يتم بالبناء التربوى السليم من القاعدة ، وفى ذلك يقول : (إن القوة الحقيقية لأى أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبعت من نفس الأمة ، وأى مجلس نياى يأمر بتشكيله حاكم ، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه) .

٣ - منهجه :

كان منهجه التفكيرى يحمل صفة المعلم ، وكان تعليمه ذا اتجاهين :
أولهما ، العبارة الثائرة المؤثرة التى تنبه الغافل وتوقظ النائم ، وباعثه على ذلك الواقع الذى كانت تعيشه الأمة المسلمة وكان من كلماته للهنود : « لو كنتم ذبابا لصم طنينكم آذان الإنجليز ولو كنتم سلاحف لرحفتم إلى الجزر البريطانية وابتلعتموها وعدتم إلى بلادكم أحرارا » .

ولذلك نراه ، حرك الثورة ضد الاستعمار في كل مكان نزل فيه .
والآخر ، عن طريق القدوة ومعايشة تلامذته الذين أحبوه وأقبلوا عليه ،
ورأوا بأعينهم أنماط حياته ، ووجدوا أنفسهم أمام شخصية فذة أخذت على
عاتقها الدعوة إلى تحرير العالم الإسلامي .

٤ - باب الاجتهاد مفتوح لعلماء المسلمين :

ذلك لأنهم مطالبون بمواجهة قضايا العصر المتجددة ، والمتغيرة والنصوص
الإسلامية خصبة معطاءة ، ويستطيع المجتهد في إطار النص أن يثبت عظمة هذا
الدين وقدرته الفائقة على مواجهة قضايا الحياة ذلك لأنه تشريع العليم ،
الحكيم ، الخبير ، ومن هنا أنحى باللائمة على العلماء الجامدين الذين ذكروا
للناس أن باب الاجتهاد مغلق وأن المسلم مطالب بتقليد واحد من الأئمة
الأوائل ، وبذلك حكموا على الدين - ظالمين - بالجمود والتخلف وأسلموا
أعداءهم حجة عليهم ليستبدلوا بالدين القوانين الوضعية ، ودين الله في سموه
بريء كل البراءة من ذلك .

٥ - قضية تحرير الشعوب الإسلامية :

قضى هذا الرجل حياته سائحا في بلاد المسلمين ، يبشر بالحرية ويدعو
إليها . وبلغت الأنظار إلى أن هذه الحرية عطاء إسلامي ينبع من : لا إله إلا
الله ، ويذكر بعداء الغرب ، وأحقاده ، وأن الإسلام يفرض عليهم مقاومة
هؤلاء ، يقول جولدزير : إن جمال الدين كان يرمى إلى تحرير الممالك
الإسلامية من السيطرة الأوروبية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبي .

ويقول لوثرود استودارد الأمريكي : إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر
في أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور ،
كما كانت في قلب بطرس الفاسك .

٦ - العروة الوثقى ومدرسة الزعماء :

في هذا الجو العاصف الذي يملأ أرجاء العالم الإسلامي من تسلط
الاستعمار ، وجمود العلماء ، ومن هنا تعاون جمال الدين مع صديقه الشيخ

محمد عبده على إصدار جريدة العروة الوثقى في باريس ، وصدر منها ثمانية عشر عددا من مارس إلى أكتوبر ١٨٨٤ م ، وكانت تأتى خفية إلى بلاد الشرق فيها مقالات بالغة العمق ، غاية في الحماسة والإثارة حتى أنها أزعجت قوى الاستعمار فمنعت دخولها وتوقفت .

بقيت نقطتان في حياة هذا الزعيم المصلح :

أولاهما : إتهامه بالإلحاد ، وتلك فرية بثها ضده الاستعمار ليصرف الناس عنه ، وشجعها علماء السوء الذين أزعجهم دعوته الإصلاحية التي رفضت جمودهم وتقليدهم وصدق القائل : إن قول الحق لم يدع لى صديقا .
والأفمن غير المعقول أن يتهم بالإلحاد رجل ألف كتابا في « الرد على الدهريين » .

والأخرى : موقفه من الماسونية ، انضم جمال الدين للمحفل الماسوني الأسكتلندي الذى يضم عليه القوم وكانت وجهته أن يوصل أفكاره بهذه الطبقة لأنهم أقدر على التغيير من غيرهم ، كما أغراه الشعارات البراقة التي يعلنها أصحاب هذه المحافل .

ولما دخل فيهم واختلط بهم ثارت ثائرتهم وهاجمهم لأنه كان يتصور الماسونية حرية وإخاء ودفاعا عن الإنسان ، ودكا لصروح الظلم ويقول : إذا لم تكن هذه المحافل لهذا الغرض فلا حملت يد الأحرار مطرقة ، ولا قامت لبنائها زاوية قائمة .
ثم استقال وأنشأ محفلا آخر تابعا للشرق الفرنسي وحوله إلى خلية للدفاع عن الحرية .

وكأنه بما كان عليه من تمكن وقوة شخصية حاول أن يسخر الماسونية أو شعاراتها لخدمة القيم التي حملها وهيئات .

لقد نجح في بث أفكاره ، لكن لم تنل من انحرافات الفكر الماسوني ولأجل هذا لابد أن نترث تماما قبل أن نحكم على أعلامنا الكبار بالانحراف عندما انضموا لبعض هذه المحافل في ظروف معينة ، أو في ظلال اجتهادات محددة .
رحمه الله وغفر له .

جمال الدين الأفغانى رجل فى مواجهة الحضارة

الدكتور عبد الحليم عويس

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

إن الحديث عن جمال الدين الأفغانى أو محمد عبده أو غيرهما من أعلام الإصلاح فى تاريخنا الإسلامى بعامة ، وفى العصر الحديث بخاصة ، يقتضى منا تقرير قاعدتين أساسيتين إحداهما :

— مدى النظر الموضوعى إلى الجانب البشرى الاجتهادى الخاضع للصواب والخطأ فى المصلح ، فلا عصمة لأحد بعد الأنبياء .

وثانيتها : مجموعة الظروف والتحديات المحيطة بالمصلح ، ومدى ما يتوقع منه من قدرة على اكتشافها واستيعابها ومواجهتها ، وهو مسلح بالقدر الإسلامى الثابت ، وبالنظرة الأصيلة للكون والحياة والعلاقات الإنسانية .
ويأتى الخطأ فى التقويم لدور المصلح من الخطأ فى إحدى القاعدتين أو فى كليهما معا .

ويؤسفنى أن أصرح أنه — لاعتبارات تتعلق بالطبيعة المرحلية المتخلفة لكثير من ممثلى العقل السليم — ساد منهج فى تقويم صناع حضارتنا لا يمت إلى الموضوعية بصلة .

فقد أصبح طبيعيا عند بعضهم رفض تاريخ بعض المصلحين بالجملة لمجرد الاختلاف فى بعض مواقفهم أو آرائهم بل أصبح المنهج السائد عند بعضهم هو التركيز على هذه النقاط الخلافية وإبرازها عند كل حديث عن الشخصية أو تقويم لها .

وبالطبع فالتقويم لأية شخصية ، أو أية دولة ، بهذا المنظور من شأنه أن يؤدى إلى تشويه كل مراحل تاريخنا وكل صناعة العظماء .

وقد تعرضت شخصية جمال الدين الأفغانى لهذا المنهج مثلما تعرضت شخصيات كثيرة فى القديم والحديث .. ولقد آن الأوان لرفض هذا المنهج وتقرير حقيقة « البشرية » فى كل الذين جاءوا بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وبالتالي أخذ صوابهم والتجاوز عن أخطائهم ما دامت غير متعارضة مع أصول الإسلام ، وما دامت نابعة من اجتهاد بشرى .

إن جمال الدين الأفغانى - وعلى خطاه محمد عبده ومحمد فريد وجدى والطنطاوى جوهرى وغيرهم - كانوا الطليعة التى قدر عليها أن تواجه الزحف الحضارى الأوروبى الشرس . وكانوا يتلمسون السبل الصحيحة التى تواجه هذا الزحف من جانب ، والتى توقظ المسلمين من سباتهم من جانب آخر ، وأحب أن أقول : إن هؤلاء كانوا - مع كل عظمتهم - أقل من أن يستوعبوا فى سنين قليلة صور التآمر الاستعمارى التى تلبس أثوابا مختلفة ومزركشة وخادعة لازلنا حتى يومنا هذا عاجزين عن استيعاب دورها فى المخططات العالمية .

- ففى عدد من البلاد العربية الآن تعمل أندية الروتارى والليونز ، بصورة رسمية وعلنية ، وتحرسها الحكومات الإسلامية ، ويخطب فيها أحيانا بعض علماء الإسلام الذين لا نستطيع أن نشك فى مصداقية بعضهم لكنه الجهل بأبعاد التآمر العالمى ، أو الرغبة فى اقتحام هذا المجهول ومحاولة معرفته لمقاومته ، أو محاولة تبصير بعض المتسبين إليه عن جهل .

- وفى يقينى أن السيد جمال الدين الأفغانى عندما تعامل مع الماسونية (لفترة محدودة) وعندما تعامل مع شتى التيارات الإصلاحية المطروحة ، والتى انكشف أمرها فيما بعد ، كان ينطلق من أنه أقوى منها وأنه يجب عليه احتواؤها . وليس الهروب منها فضلا عن ضرورة التعرف عليها عن قرب لاسيما وشعاراتها كانت تخدم كثيرا من السذج وكان من الواجب انتشال بعضهم منها .

لقد كان السيد جمال الدين الأفغانى - كما وصفه تلميذه محمد عبده - حنيفا مسلما يرد على الطبيعيين والماديين فى رسالته المعروفة (الرد على الدهريين)

وكان حنفى المذهب يميل إلى شيء من التصوف ، وكان يجوب العالم الإسلامى ليوقظه فى ضوء تعرفه على أمراضه ، كما جاب أوروبا وعامل أهلها ليتعرف على نقاط ضعفهم ولعل هذا المنهج المتحرك - وليس الساكن - قد فرض على الشيخ أن يفسح صدره بعض الشيء ، وأن يتعامل مع كل القوى ليربط بينها وبين الحقائق الإسلامية ... فقد تعامل مع القوميين ، وتعامل مع الوطنيين فى كل بلد ، وتعامل مع الليبراليين الذين يرون فى التجربة الأوربية وأهلها الخير كل الخير ويتعاملون عن نقائصهم ويغفلون الفروق الحضارية بيننا وبينهم .. وهذا المنهج الذى يرضى عنه كثير من الدعاة ، وقد طبقه بدرجة ما الشهيد حسن البنا رحمه الله ، إذ أقام جسورا مع كثير من التيارات .. هذا المنهج رفضه بعض الدعاة خوفا على أنفسهم من الشبه ، ومبلغ علمى أن هؤلاء هم أكثر الناس نقدا لشخصيات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما !!

لقد كان جمال الدين الأفغانى يسعى إلى أن يجد دولة إسلامية واحدة تستطيع بالفعل أن تقف فى صف الدول الأوروبية الكبرى ، ومثل هذا الأمل لازال يعيش فى أعماقنا ، وكل فجر يظهر يلهث المسلمون وراءه وشعارهم : « من خدعنا بالله انخدعنا له » وإنى لأعرف - وأعترف ، بأننى وعشرات الملايين من المسلمين انخدعنا فى عدد من الشخصيات وعدد من الثورات رفعت راية الإسلام بحماس شديد وعقدت المؤتمرات واستجلبت علماء تقنين الشريعة . ثم إذ بحقيقتهم تنكشف ، وإذ بنا نعرف أنهم يخادعون الله وما يخدعون إلا أنفسهم ، ونعرف أيضا أننا كنا سذجا وأنا متخلقون فى إدراك أبجديات لعبة الاستنزاف الدولى لطاقات العالم الإسلامى ، وإننا لم نبلغ سن الرشد فى فقه أصول اللعبة السياسية الدولية .

وإذا كان هذا حالنا مع تقدم الوعى وظهور عدد من انقلابات (الفجر الكاذب) وظهور حقيقة الحركات القومية والوطنية والطائفية المعادية للإسلام ، وظهور عشرات الدراسات التى تكشف أبعاد اللعبة الدولية وأساليب الصراع على حكم العالم الإسلامى ، وإجهاض نهضته إذا كان هذا حالنا ، فكيف لا نلتمس الأعذار لرجل لم يكن قد توافر له كل ذلك كالسيد جمال الدين الأفغانى . عفا الله عنه ؟

إن الأساسيات التي انطلقت منها جمال الدين الأفغانى أساسيات صحيحة ، فهو قد حث على الاستقلال السياسى ، وعلى النهوض العلمى وعلى بعث الذات المسلمة الحرة الأبية .

وغاية ما نأخذه عليه أنه لم يفتن لما فطن إليه تلميذه محمد عبده من أن النهضة العلمية هى الأساس للنهضة السياسية ، وأن بعث الذات المسلمة الحرة الإيجابية المؤمنة الواعية هو الأساس الأول للنهضتين السياسية والعلمية (يلاحظ تفكير محمد عبده فى إقامة مدارس للمتفوقين والقياديين وهو تفكير عظيم ، فالتربية للقياديين هى الأساس ، وبالتربية نجحت اليابان بينما فشل الغرب فى استثمار استقلالهم السياسى) .

والحق أن المنطلق السياسى الثورى لجمال الدين ما زال يقول به كثيرون لكنه أثبت فشله ، فالأمة التى لا تكون فى مستوى قيادة نفسها قد يسير بها بعض أبنائها إلى حتفها ويفعلون بها أكثر مما فعل الاستعمار ، بل يحققون لها من الخسائر والنكبات ما لم يكن يحلم الاستعمار بتحقيقه !

وهذه نقطة خلافنا الأساسى مع جمال الدين الأفغانى المصلح الذى ترك بصماته قوية فى النهضة الإسلامية الحديثة ، وكانت أفكاره تقف وراء حركات بناء كثيرة فى الهند والشمال الإفريقى وقد اجتهد فأصاب وأخطأ ، فله الأجر فى الحالىن فإننا نحسبه كان مخلصا ساعيا لوحدة هذه الأمة وخيرها ونهضتها فرحمه الله وعفا عنه .

**الأفغانى هو الذى أيقظ الحس الوطنى والشعور
بالحرية والدعوة إلى امتلاك الإرادة
الكاتب الإسلامى الأستاذ أنور الجندى**

يتواصل الحوار اليوم فى حلقة الثالثة عن تجربة الزعيم المصلح جمال الدين الأفغانى - وبعد نشر مساهمات الشيخ محمد الغزالى والدكاترة محمد عمارة وعبد الحليم عويس ومحمد حسين زيدان وعبد الباسط محمد حسن ، تنشر « الشرق الأوسط » اليوم الاثنين ٢٠ مارس ١٩٨٩م رأى الكاتب الإسلامى الأستاذ أنور الجندى والشيخ سيد سابق .

هناك ثلاثة محاور يمكن أن يدرس جمال الدين الأفغانى من خلالها .

محور الثورة أم التربية :

المحور الأول : جمال الدين ومحمد عبده (الثورة أم التربية) .

فمن خلال التجربة التى قام بها جمال الدين ومحمد عبده فى سبيل ابتعاث اليقظة الإسلامية (ومن خلال لقاءهما فى مصر ثم فى باريس وإصدار العروة الوثقى) ثم انفصالهما بعد ذلك تبين أن جمال الدين الأفغانى كان يحمل لواء الثورة من أجل تحقيق أهداف اليقظة وأن الشيخ محمد عبده كان يرى أن التربية هى الوسيلة الصالحة لذلك ، ولعل هذه كانت نقطة خلاف بينهما ولكن يبقى أن جمال الدين هو الذى أيقظ الحس الوطنى والشعور بالحرية والدعوة إلى امتلاك الإرادة ، وكانت حملته على الاستعمار هى كبرى أهدافه ، فقد كان يرى أن الإصلاح الحقيقى فى العالم الإسلامى يبدأ أولاً بالتخلص من النفوذ الأجنبى الذى كان فى ذلك الوقت يحث الخطى للسيطرة على البلاد العربية والذى كان قد سيطر فعلا على الهند وما حولها وكان الأفغانى يطمح فى أن يتخذ من مصر منطلقا لدعوته إلى الوحدة الإسلامية بمفهوم أن يكون القرآن الكريم هو إمام المسلمين وهو قد وضع أساس الحركة الإسلامية المعاصرة فقد

كان تركيزه شديداً على القرآن الكريم واعتباره العروة الوثقى التي تربط بين المسلمين والقدرة على جمع كلمتهم ، ولكن التجربة الطويلة التي خاضها قد أكدت أن منطلقه السريع العاصف لم يكن هو الأسلوب الأمثل ، وأن أسلوب الشيخ محمد عبده هو الأكثر صلاحية لولا أنه سخر به وقال للشيخ : إنما أنت مثبط .

محور الأصالة والتبعية :

المحور الثاني : جمال الدين وسيد أحمد خان (الأصالة والتبعية) ومن هذا المنطلق نجد أن جمال الدين الأفغاني كان أكثر أصالة إذ إنه اتمس بمنهج القرآن الكريم ، وهاجم أسلوب التغريب الذي أخذ به سيد أحمد خان حين حمل لواء فكرة (الدهرية) أو نظرية دارون وما حولها من مفاهيم من إنكار الغيب ومفهوم الخلق الإسلامي ، وهي النظرية التي فتحت الطريق أمام المسلمين إلى الفلسفة المادية والعلمانية وكان هذا المفهوم قد أدخله الإنجليز على المسلمين في الهند وأخذ يستشري لولا أن تصدى له جمال الدين الأفغاني بكتابه (الرد على الدهريين) الذي ترجمه الشيخ محمد عبده من بعد إلى اللغة العربية والذي يعد الركيزة الأولى لمقاومة سموم الفكر الغربي .

وهذا المحور يؤكد أصالة فكر جمال الدين واتماسه مفهوم القرآن الكريم وله في ذلك مقالة مستفيضة تؤكد سلامة وجهته من هذه الناحية .

ذلك أن جمال الدين ومحمد عبده كانا في الحقيقة من نتاج دعوة التوحيد التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب والشوكاني وغيرهما من الذين حملوا هذا اللواء ، غير أن دعوة التوحيد انتقلت من مرحلة إلى مرحلة وكانت هذه المرحلة التي عاشها جمال الدين أخطر المراحل لأنها كانت تحمل إرهابات السيطرة الاستعمارية على البلاد العربية .

ومن هنا فقد كان موقف جمال الدين من دعوة الدهريين ، هو أول صيحة لمواجهة ما أطلق عليه التغريب في هذه المرحلة الباكورة .

فكرة الجامعة الإسلامية :

المحور الثالث : جمال الدين الأفغاني والسلطان عبد الحميد ويكشف هذا المحور الثالث عن فكرة الجامعة الإسلامية وكيف كان تصورهما عند جمال الدين

باعتباره زعيما سياسيا واجه الاضطهاد في كل مكان وصل إليه وبين السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين الذي كان يحمل لواء الدعوة إلى « يا مسلمي العالم اتحدوا » وقد ألقى جمال الدين عصا الشعار أخيرا في إستانبول والتقى مع السلطان وكان واضحا أن هناك فرقا واسعا بين المنطلقين ، فقد كان السلطان يصدر عن أرضية واسعة للخلافة الإسلامية التي تحمل لواءها الدولة العثمانية التي تضم العرب والترك موسعا إياها لتجمع كل عناصر الأمة الإسلامية من هنود وفرنس وغيرهم .. أما جمال الدين فكانت دعوته تنطلق من محاولة اختيار قطر إسلامي كمصر أو غيرها لحمل لواء الدعوة وهو ما لم يتيسر تحقيقه بعد اتصالاته الواسعة في أفغانستان ، والهند ومصر والسودان ، وغيرها .

كذلك فقد تكشف من اللقاء بين جمال الدين الأفغاني والسلطان عبد الحميد تلك الفوارق الواسعة بين الرجلين والمنهجين والأسلوب النفسى ، وقد شهد جمال الدين لعبد الحميد بأنه كان يحمل لكل خطة يحاول النفوذ الأجنبي إنفاذها ما يغيرها ، وكيف أنه كان يقظا وقادرا على دفع مؤامرات النفوذ الأجنبي .

الماسونية :

ولقد تحدث الكثيرون عن صلة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بالماسونية وهى لم تكن إلا جزءا من أسلوب جمال الدين فى مواجهة الأمور ، ذلك الأسلوب الذى وضعه محمد عبده حين قال : (لقد هدمت الحدة فى جمال الدين ما بنته الفطنة) ، فقد كان يرى أن أى منفذ يمكن الولوج منه إلى تحقيق الهدف ممكنا ، فلا يتردد فى اقتحامه وكذلك فعل أول الأمر حين دخل الماسونية ولكنه حين اكتشف أنها خدعة مأكرة ، سرعان ما انصرف عنها وأنشأ محفله الخاص .

لقد كان جمال الدين صاحب أسلوب الثورة فى الإصلاح وهو أسلوب لم تتوفر له وسائله فإن إنشاء جماعات (العروة الوثقى) فى البلاد العربية وغيرها لم يحقق الهدف فى تكوين رأى عام إذ سرعان ما استطاع النفوذ الأجنبى اجتياحه ، ثم لم تلبث العروة الوثقى أن توقفت ورجع الشيخ محمد

عبده إلى المشرق ليجد الأمور قد تبدلت فكان لابد من التماس أسلوب التربية والتعامل مع النفوذ الأجنبي على طريق المسالمة واصطناع أسلوب الإصلاح . ولكن هذه التجربة كلها بكاملها كانت عاملا أساسيا في حركة اليقظة ، فقد أحييت المفهوم الأصيل الجامع للإسلام ، وأحييت اللغة العربية والشعر العربي والأدب وفتحت الباب أمام العودة إلى منهج الله تبارك وتعالى ومهدت للخطوات التي جاءت من بعد ، واتسع نطاقها في الشام والعراق ومصر والمغرب العربي تحت اسم « السلفية » وهي لم تكن سلفية جامدة بل مستنيرة أعطت حركة المقاومة للاستعمار طابعا قويا وفتحت الأبواب أمام أضواء العودة إلى المنابع والتماس مفهوم الإسلام الجامع بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع في المرحلة التي تلت ذلك وأصبح الأسلوب القرآني هو المنطلق الحقيقي بعد أسلوب المعتزلة الجدد .

اتفق الأفغانى وعبدہ على الأهداف واختلفا فى الوسائل

الشيخ سيد سابق

جامعة أم القرى

يوجز الشيخ سيد سابق أستاذ بالدراسات العليا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة فكر الشيخ جمال الدين الأفغانى الإصلاحى فيما يلى :

أولا : يرى أن الإسلام دين عام للناس جميعا ، وأنه قادر تمام القدرة بما فيه من قوى روحية على ملائمة الظروف المتغيرة فى كل جيل .

ثانيا : يرى توحيد المسلمين جميعا تحت راية الخلافة الإسلامية .

ثالثا : التزام تعاليم الإسلام ولا سيما الجهاد .

رابعا : يرى أنه لابد من الكشف عن آثار الاستعمار وضرره فى التفكير ، والدين ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وأنه لابد من محاربته بكل الوسائل المتاحة .

خامسا : يمكن بعد هذا أن يدبر المسلمون أمورهم دون الحاجة إلى غيرهم .

والوسيلة التى كان يرى أنها تحقق هذه الغايات هى الثورة السياسية فقد كان يؤمن بأنها أسرع الطرق فى تحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها .

أما وسائل الإصلاح التدريجى فكان يرى أنها بطيئة غاية البطء غير محققة العاقبة .

وجملة ما كان يقصد إليه الخلاص من السلطان الأجنبى والحكم الاستبدادى ،

ثم وحدة الأمة ووحدة يقوى التآخى بينها ، ويكفل لها الغلب والعزة والقوة .

أما الشيخ محمد عبده فكان يتفق معه فى الغايات والأهداف ولكنه يخالفه فيما يلى :

أولا : حدود الإسلام المطلوب وهو الإسلام الذى فهمه المسلمون الأوائل .

ثانيا : ويرى ألا يبدأ بالثورة بل يبدأ بالتربية على أساس الدين الصحيح ، وكان

يهتم بأمرين أولهما محاربة التقليد والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وثانيهما تأكيد حرية الفرد واختياره فى أفعاله الإرادية .

جمال الدين الأفغانى رجل من كبار القادة المسلمين الدكتور محمد على الصابونى

الأستاذ فى مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

جمال الدين الأفغانى رجل من القادة المسلمين والمصلحين الاجتماعيين ، وهو يعد من كبار القادة الذين حملوا راية الإسلام ، ونشروا تعاليمه فى بقاع المعمورة ، وهو رجل مجاهد بقلمه ولسانه وعمله لنصرة الإسلام والمسلمين .

وكل إنسان يمكن أن يقع منه هفوات وأخطاء ، وهذا شئ لا يمكن من جهاد الشيخ جمال الدين ، وربما غرر به كما غرر بكثير من قادة المسلمين حين قامت الحركات المشبوهة كالصهيونية وغيرها تحت شعار خدمة المجتمع ، وخدمة العالم ، وربما يكون قد تأثر ببعض هذه الحركات التى ظاهرها نفع المجتمع .

ولا يستبعد أن يكون قد غرر به من قبل الحركات الهدافية ، لأنها كانت تظهر النفع بأبناء العالم ، وهى تخفى المخالب التى تفترس بها فما ينسب إليه من أنه دخل فى الحركة الصهيونية إنما يكون من هذا القبيل ، إنه غرر بهذا تحت شعار نفع المجتمع .

وأما أن يكون تخلى عن دينه ، ودخل فى الصهيونية بعيد جدا بل هو مستحيل .

فالرجل له محاسن كثيرة ، وفيه بعض الهفوات والأخطاء التى لا يسلم منها إنسان .

كان الأفغانى منارة فى كل قطر نزل به

الدكتور رأفت غنيم الشيخ

عميد كلية الآداب فى جامعة الزقازيق

ولد السيد محمد جمال الدين بن صفتر الحسينى الأفغانى بمدينة «أسعد آباد» من أعمال «كابل» عام ١٢٥٤ هـ الموافق لعام ١٨٣٨ م من أسرة تنتسب إلى آل البيت حيث ينتهى نسبه إلى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وهذا هو السبب فى تسميته بالسيد وقد نشأ فى بيت شريف وبيت علم ودين .

وكانت شخصية السيد محمد جمال الدين منارة له فى كل قطر إسلامى ينزل فيه ، ففى مكة المكرمة أنشأ جمعية أطلق عليها اسم جمعية أم القرى عام ١٨٥٧ م وأصدر لها مجلة تنطق باسمها عرفت باسم أم القرى وتدافع عن أهداف الجمعية المتمثلة فى وحدة المسلمين لمواجهة الأخطار المحيطة بهم .

وعندما انتقل إلى الهند وأثناء وجوده فى بلده أفغانستان أثار السيد جمال الدين المسلمين هناك ضد الحكم البريطانى وسياسته الاستبدادية والاستغلالية ، وفى إستانبول استقبل عام ١٨٧٠ م ، استقبالا وديا من قبل الحكومة العثمانية والأوساط العلمية التى استطاع أن يحدث فيها تأثيرا بعيدا بما ألقى من دروس ومحاضرات فى الجامعة المنشأة حديثا .

وعاش السيد جمال الدين ثمانى سنوات فى مصر فى ظل رعاية وترحيب من الخديوى إسماعيل الذى شجعه على المضى فى دعوته الإصلاحية ، لأن ذلك يوافق غرض إسماعيل فى التصدى للنفوذ الأجنبى الذى يحاول سلب السلطة من صاحبها الشرعى ، وعلى هذا فقد نجح السيد جمال الدين فى تشكيل حزب من أنصاره وتلاميذه عرف بالحزب الوطنى أو الحزب الأهلى أو حزب الفلاحين .

وكانت ظروف العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر التى واجهها السيد جمال الدين الأفغانى تتمثل فيما يأتى :

١ - الحكم العثمانى لكثير من الأقطار العربية والإسلامية وهو حكم مهما كانت حسناته إلا أنه كان بعيدا عن الشورى الإسلامية وروح الديمقراطية الغربية .

٢ - الجهل والفقر الذى خيم على المسلمين فانصرفوا عن الفضائل إلى الرذائل وبعدوا

عن جوهر الدين الإسلامى وحياة السلف الصالح .

٣ - البعد عن الأخذ بأسباب التقدم الحضارى إما خوفاً على الدين وإما لأن الحكام العثمانيين فرضوا العزلة على المسلمين فى الوقت الذى عملت فيه البعثات التنصيرية على نشر التعليم الحديث بين المسيحيين العرب .

٤ - التعرض للغزو الاستعمارى الأوروبى الذى اهتم بإضعاف نفوس المسلمين حتى يبعدوا عن الجهاد الإسلامى والوطنى ضد المعتدين .

وجاءت دعوة جمال الدين الأفغانى الإسلامية والتي تمثلت فى فكرة الجامعة الإسلامية التى تجمع جميع الشعوب الإسلامية على الأسس الآتية :

أولاً - التحرر من التخلف :

وبأتى هذا من استخدام العقل للملاءمة بين الإسلام والمسلمين من جهة ومتطلبات العصر الحديث من جهة أخرى ، والاعتماد فى ذلك على التعليم بمؤسساته التى تأخذ بأسباب العلم الحديث وتخلص الإسلام من الشوائب التى علققت به وإصلاح المساوئ الدينية والاجتماعية التى تفشت بين المسلمين .

ثانياً - التحرر من استبداد الحكام :

ويقوم على إنهاء الحكم الاستبدادى المفروض على المسلمين سواء كان من سلاطين الدولة العثمانية أو من غيرهم ، لأن هذا الحكم لا يتفق مع الشورى التى دعا إليها الإسلام ومن ثم دعا السيد جمال الدين إلى النظام الدستورى وحكم الشورى .

ثالثاً - تحقيق الوحدة الإسلامية :

ويتم ذلك إذا انضوت جميع شعوب الأمة الإسلامية على اختلاف أوطانها وجنسياتها تحت حكم خليفة واحد تتجمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية حكماً حديثاً يأخذ بأسباب الحضارة الغربية التى لا تتعارض مع الدين الإسلامى الحنيف .

رابعاً - مقاومة الاستعمار :

عن طريق الوحدة الإسلامية ، خاصة أنه صاحب الغزو الاستعمارى لأقطار العالم الإسلامى غزو تنصيرى هدد الفكر الإسلامى وأن الخطر الأوروبى ليس فقط موجهاً ضد الأوطان الإسلامية ، ولكنه فى المقام الأول خطر يقوم على أساس دينى ، بل هو حركة نصرانية موجهة ضد الإسلام .

ومن هذا يتضح أن جمال الدين كان معبراً - ومواجهاً - لتحديات عصره أخطأ فى بعض الأساليب أو أصاب .

تقدير المستشرقين للأفغانى

الدكتور محمد البهى

مع نشاط جمال الدين الواسع ، وحركته الدائبة فى مقاومة الاستعمار الغربى ، وجلده القوى الطويل المدى فى هذه المقاومة .. يحاول المستشرقون وزنه وتقديره فى جانبه الفكرى ، على أساس أنه لم يكن عميق التفكير ولم يكن الشخص الذى يمكنه أن يفيد الإسلام فى عرض أفكاره وتعاليمه له .

يلقى المستشرق الإنجليزى « جب » عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فى كتابه : الاتجاهات الحديثة فى الإسلام THE MODERN TRENDS IN ISLAM على رأى محمد إقبال فى جمال الدين على النحو الآتى :

« إقبال يرى أن جمال الدين كان إنسانا له نظرة عميقة فى تاريخ الفكر الإسلامى والحياة الإسلامية .. لذلك كان يعتقد أن جمال الدين لو ركز قوته الذهنية فى خدمة الإسلام كنظام للتوجيه الإنسانى والحياة الاعتقادية للإنسان ، لوجد العالم الإسلامى اليوم على أساس أقوى بكثير » .. وعلى هذا رأى يعقب « جب » بقوله : « إن العمل الوحيد الذى نشر لجمال الدين هو كتاب (الرد على الدهريين) وهو عمل لا يوحى مطلقا بأن جمال الدين إنسان له هذه الاستطاعة العقلية على نحو ما تنبأ إقبال » .

ولو فارقنا « جب » إلى مستشرق آخر .. مثل « برون » « BROWN » أو « آدمز » « ADAMS » لوجدنا أن جمال الدين فى كتاباتهم : شخصية تملكها الحقد على الاستعمار الغربى ، بعد أن تمكنت منه العاطفة غير المعتدلة فى أحكامه وفى مقاييسه .. أما نصيبه فى التفكير عند أمثالهما : فغير وافر فى كفه ، وغير عميق فى نوعه !!

يقدر المستشرقون جمال الدين ، على هذا النحو ، لأن جمال الدين واجه الاستعمار الغربى وجها لوجه ، ولم تضعف إرادته فى مقاومته ولم يدار أو يمويه

بالنسبة لنقائض الغرب في المجتمع البشري ، وقد أشاد بالإسلام في مواجهة المسيحية ، فكان نصيبه من دراسة المستشرقين لآثاره نصيب المفكر الإسلامي ابن تيمية ، الذي وصف في كتاباتهم بضيق الأفق وعدم تقديره للعقل الإنساني فيما كتبه في « رد المنطق » ويعلم الله أن ابن تيمية أراد بكتابه هذا أن يبين أن الإسلام ليس في حاجة إلى (منطق الإغريق) ليروج ، أو لتوازن به مبادئه فله أسلوبه الخاص ، ومنهاجه الواضح في الدعوة إلى الله وهدايته للإنسان ، ولكن السبب الخفي في الحقد على ابن تيمية ، هو مهاجمته للمسيحية ، في شخص الصليبية التي حاولت انتزاع بيت المقدس من المسلمين ، كما حاولت تحطيم جمعهم والنيل من مقدساتهم .

بين جمال الدين الأفغاني وابن تيمية

شرح السيد جمال الدين رأيه في الرجوع إلى القرآن الكريم وإلى تعاليمه الصافية ، بعد أن آلت شروحه وتخريجه المتنوع إلى مذاهب ، وآل أمر هذه المذاهب إلى تفريق الأمة إلى طوائف ، وآل أمر الطوائف إلى العvisية والتنابد في الخصومة ، وصار ذلك كله بالأمة إلى الضعف ، ثم إلى الانهيار .

يقول في بعض كتاباته متعجبا من أمر الفرقة بين المسلمين ، مع وحدة المصدر في التوجيه ، وعدم الاختلاف في المصالح العامة :

« أى فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين ؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد ﷺ .. فعلى الأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا حظهم بفكر سديد وعقل رشيد ، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين ، فليس بينهم وبينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية .. فالجميع من أصل واحد ، وتجمعهم رابطة الدين الإسلامي » .

يريد إضعاف الفوارق بين المسلمين ، لتقوى سيادة المسلمين على أنفسهم وأمام غيرهم !! وإذا اهتم جمال الدين بالإسلام كله بوجه عام في كفاحه ضد الاستعمار الغربي ، فإنه يهتم على وجه الخصوص بذلك الجانب من الإسلام الذي يدعو المسلمين إلى العزة والمحافظة على استقلالهم في شخصيتهم بعدم انصهارهم في غيرهم ، فضلا عن الخضوع والاستسلام للأجنبي المتحامل عليهم .

بيد أن جمال الدين لم يحاول تلك المحاولة التى حاولها فيما بعد « محمد إقبال »
فى الهند والشيخ « محمد عبده » فى مصر ، من شرح المنهج الذى يحول دون
الاستمرار فى ضعف الأمة الإسلامية ، والذى يخلق نشئا آخر يشعر بالأخوة
الصادقة بين المسلمين جميعا ، كما يشعر بقوة الإسلام فى توجيهه نحو حياة
أفضل ، ونحو مجتمع متماسك البناء ، وهذا النهج قد عرف عند إقبال بـ « إعادة
تجديد مفاهيم الفكر الدينى فى الإسلام » كما عرف عند الشيخ محمد عبده بمنهج
« التربية الإسلامية » أو التربية القومية .

جمال الدين الأفغانى وابن تيمية :

قام جمال الدين - إذن - بحركته فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ،
كرد فعل للاستعمار الغربى ، وخاصة فى مصر . وقد بدت الرغبة فى استعمار
مصر واضحة منذ مشروع قناة السويس ، ثم اشتدت هذه الرغبة فى وضوحها
منذ الاحتفال بافتتاحها على عهد الخديوى إسماعيل ، حتى كشف عنها القناع
تماما منذ الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ م .

وفى سبيل مواجهة هذا الاستعمار ، طالب جمال الدين بمقاومته .. ولأجل
هذه المقاومة عمل على إيقاظ روح التضامن الإسلامى ، عن طريق : طلب
التمسك بالقرآن الكريم ، وإلغاء العصية المذهبية وطرح التقليد الحزبى ، وإعمال
الاجتهاد فى فهم القرآن الكريم ، والملاءمة بين مبادئه وظروف الحياة التى يعيش
فيها المسلمون ، وطرح الخرافات والبدع التى غيرت من جوهر الإسلام ، والتى
جعلته وسيلة فى الحياة ، بدلا من كونها حقيقة واضحة ، وقوة إيجابية فى السيطرة
على الحياة وتوجيهها .. لقد أراد جمال الدين فى كفاحه ضد الاستعمار الغربى أن
ينقل المسلمين من حال الضعف إلى حال القوة كى يستطيعوا مواجهة الاعتداء
الغربى فى إعدادة النظم وعدته القوية .

وحال الضعف التى كان عليها المسلمون إذ ذاك ، تتمثل فى : تفريق
الكلمة - فى تعصب - بسبب كثرة المذاهب وتباينها ، والتقليد - فى تبعية لا
تخضع لثرو أو فهم - لآراء أرباب الفرق ، والانحراف عن الإسلام بالاعتقاد فى
البدع والخرافات ، ككرامات الأولياء وقدرتهم على الشفاعة والوساطة .. هذا إلى

سلبية واضحة في الحياة باتباع التصوف المنحرف وتحكم عقيدة الجبر والتسليم في التوجيه !!

أما القوة: فهي في طرح ذلك كله... واتمسك بالقرآن الكريم كأساس موحد بين المسلمين، وإيجابية في الحياة بمباشرة الاجتهاد على الوضع الذي كان عليه السلف. حال الضعف التي وصفها جمال الدين للمسلمين في وقته، هي حال الضعف التي كان عليها المسلمون في وقت « ابن تيمية » .

ووسيلة القوة والتكتل التي حددها ابن تيمية من قبل، هي الوسيلة التي تمسك بها جمال الدين، وأصر على سلوكها .

وليس هناك اختلاف بين الاثنين، سوى أن: ابن تيمية برهن كعالم إسلامي مطلع، واستخدم الدليل الديني والمنطقي في تدعيم رأيه، وكتب وراسل وألف .. أما جمال الدين فاتخذ أسلوب « الإثارة » وإيقاظ الوعي، فتحدث وخطب واتصل بزعماء المسلمين وقادتهم اتصالا شخصيا مباشرا، مستحثا همهم، ودافعا إياهم إلى مقاومة الاعتداء الغربي، في أية صورة من صور المقاومة، لأنه اعتداء مذل مخرب .

ابن تيمية: كان مضطرا أن يؤلف، وأن يحتاج بالدليل النظري والمنطقي أو النقلى ... لأن خصومه في داخل الجماعة الإسلامية دفعوه إلى الحجاج والنزاع العلمي، وهؤلاء الخصوم هم أرباب الفرق الإسلامية المختلفة .

أما جمال الدين: فقد حدد له خصومه - وهم المستعمرون - نوع الوسيلة التي يقاوم بها، وهي وسيلة الإثارة، والتكتيل الشعبي، عن طريق إلهاب العواطف واستفزاز الهمم الإنسانية والحماسة الدينية ... إذ المستعمر كان حاكما للشعوب الإسلامية، ومقاومته يجب أن تكون - في الصف الأول - من الشعوب ذاتها، وتكتيل الشعوب، وتجميع المنشورة فيها، يتبع إثارة العواطف، قبل أن يتبع الإقناع بالحجة .

ومع ذلك فقد خلق جمال الدين جيلا من القادة، خلفه بعد وفاته، على أساس من المعرفة والتبصير الهادئ الرزين، على أساس من فهم صحيح للإسلام وتعاليمه، وفي توجيه العلم المحرب . فلم يكن جمال الدين قائد شعب أو شعوب ضد اعتداء أجنبي قوى منظم فحسب، بل كان مع ذلك رائد فكرة، ورائد فهم سليم للإسلام .

ظلموه حيا وميتا

بقلم الدكتور مصطفى عبد الواحد

مدير مركز إحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى

مضى على وفاة السيد جمال الدين الأفغانى قرن من الزمان وما يزال الجدل يدور حوله ، وما يزال يتعرض لمحاكمات ظالمة تفتقر إلى شروط العدالة والموضوعية والإنصاف .

بعض الباحثين غالى فى مدحه وتصوير أثره العميق فى النهضة الإسلامية المعاصرة ، وهو دون ريب صاحب أثر وباعث نهضة ، ولكن لابد من تقدير ذلك الأثر على حقيقته دون غلو أو إسراف .

وآخرون هاجموه بقسوة بالغة ، وحاولوا إلصاق التهم والسوءات به ، إلى حد أن أخرجوه بعضهم من الملة ، ونسبه إلى الإلحاد والزندقة ووصمه بالعمالة للأعداء . نذكر من أعداء السيد جمال الدين الأفغانى الذين حاولوا تشويه صورته إلى أفطع حد : « الميرزا لطف الله خان » الذى ألف عنه كتابا بعنوان : (جمال الدين الأسد آبادى) شكك فيه فى أصله ونسبه وألقى عليه التهم جزافا دون دليل .

ومنهم على الوردى العراقى الذى ألف كتابا عنوانه : (لمحات اجتماعية فى تاريخ العراق الحديث) تطرق فيه إلى جمال الدين الأفغانى بنزعة عدائية واضحة ، وأصبح كتابه هذا مرجعا لكل من يحاول التطاول على هذا الرجل ووصمه بأقبح الصفات !!

ثم جاء الدكتور محمد حسين رحمه الله وهو يؤرخ للأدب فصب جام غضبه على الأفغانى فى كتابه : « الاتجاهات الوطنية فى الأدب الحديث » و « الإسلام والحضارة الغربية » .. وقد اعتمد فى هذا الهجوم على كتاب الميرزا لطف الله خان

الذى أشرنا إليه ، ولم يستخدم المنهج العلمى فى تحقيق التهم المنسوبة إلى جمال الدين الأفغانى وكأنه رأى أن إظهار غيرته على الإسلام لا تتحقق إلا بإدانة هذا الرجل !

واعتمادا على هذه المحاكمات الظالمة جاء باحث آخر هو مصطفى فوزى غزال فألف كتابا بعنوان : (دعوة جمال الدين الأفغانى فى ميزان الإسلام) ، نال به درجة الماجستير فى الدعوة الإسلامية ، وقد ملأه بالتهم الفظيعة لجمال الدين الأفغانى ، وأكبرها أنه ملحد وزنديق خائن لأمة عمالء للمستعمرين صديق لليهود جندى من جنود الماسون !.

فأين العدل فى قضية هذا الرجل .. وكيف تقف منه أمة هذا الموقف وهو الذى عاش سنوات عمره مزعجا قلقا من أجل قضاياها جاهدا فى دفع الخطر عنها ؟ !

إن هناك من الباحثين المنصفين من دفعتهم الغيرة على رجال الإسلام ورد الظلم عنهم إلى بحث قضية جمال الدين الأفغانى بحثا موضوعيا منصفا ، ومن هؤلاء الدكتور محسن عبد الحميد الأستاذ بجامعة بغداد الذى ألف كتابا قيما بعنوان : (جمال الدين الأفغانى المصلح المفترى عليه) ، وقد تصدى فيه بخاصة إلى مقولات الدكتور محمد حسين فى كتابيه اللذين أشرت إليهما وفيهما خلاصة الشبهات والتهم التى ألصقت بهذا الرجل .

وقد ناقش قضية انتباء الأفغانى إلى الماسونية مناقشة مفصلة انتهى منها إلى أن الأفغانى لم يكن يعلم حقائق الماسونية ولم يكن مطلعا على أهدافها واستدل على ذلك بستة أدلة .

ومع أن هذه القضية قد أشبعت بحثا من قبل حين تناولها كثير من الباحثين فى شخصية جمال الدين الأفغانى وأثره فى النهضة الإسلامية المعاصرة ، وقد تناول بعض وقائعها محمد باشا المخزومى فى كتابه (خاطرات جمال الدين الأفغانى) ، ويتضح منها أن الأفغانى كان يظن الماسونية حركة سياسية ، قد يفيد منها فى مقاومة الاستعمار ، لكنه فوجئ حين وجدهم يحظرون الكلام فى السياسة فترك المحفل الإسكتلندى بعد أن هاجمه هجوما عنيفا ورأى أن الشعارات التى

يتشددون بها وهي الحرية والمساواة والإخاء شعارات كاذبة لا وجود لها في سلوكهم ونشاطاتهم .

ولقد دفع الأفغانى شغفه بالسياسة ومحاولة إنهاض الأمة الإسلامية من كبوتها ، إلى تلمس الطريق لتحقيق هذا الهدف ، وكان انخداعه بالماسونية خطأ كبيرا ، لكن هذه الحركة الخبيثة لم تكن قد انكشفت خباياها في ذلك الوقت . بدليل أنه قد انخدع بها كثير من المشهورين ، ونحن اليوم نعلم عن خفايا الماسونية وأهدافها الموعلة في الكيد للإسلام وأهله الكثير .. ولكن هل كان جمال الدين على علم بذلك ؟؟ لقد انفصل عن المحفل الماسونى الإسكتلندى غاضبا منكرا عليهم مسالكهم الغامضة المستخذية ناعيا عليهم الاشتغال بالتوافه والشكليات .

ولا نقول : إن جمال الدين الأفغانى مبرا من الخطأ ، فلا شك أن له أخطاءه في مجال الرأى والتقدير ، وليس هناك بشر معصوم من الخطأ إلا من عصم الله ، وهم الأنبياء والمرسلون .. ولكن شتان بين تقرير أخطاء جمال الدين في صورتها الواقعية دون تضخيم ولا تهويل ، بعيدا عن الظنون والأوهام ، وبين استغلال هذه الأخطاء لهدم كفاحه وتشويه صورته ، ونقله إلى معسكر أعداء هذه الأمة !

إن من العجيب أن يهاجم لويس عوض جمال الدين الأفغانى في الوقت الذى يهاجمه فيه بعض أهل الغيرة على الإسلام !

فكيف يكون الرجل مكروها من الطرفين المتناقضين ، وكيف يكون محاربا للاستعمار في نظر البعض وعميلا له في نظر آخرين .

وكيف يوصف بالإمامة في الإسلام من قبل من يشيدون به .. بينما يوصف بالإفساد والتحريض عليه من مبغضيه . ؟؟

لقد ظلم جمال الدين حيا .. وما يزال يظلم بعد أن فارق الحياة !

الأفغانى والماسونية

الدكتور على شلش

عاش الأفغانى فى مصر ثمانى سنوات (١٨٧١ - ١٨٧٩ م) من أخطر سنى تاريخها الحديث ، لا لأنها آخر سنوات حكم الخديو إسماعيل وقمة التغفل الأوروبى قبل الاحتلال البريطانى وحسب ، وإنما لأنها أيضا قمة مرحلة التأسيس التى مرت بها الماسونية فى مصر ، وقد شهدت السنوات الأربع الأخيرة من إقامة الرجل فى مصر نشاطا عجيبا للمحافل الماسونية التى أنشأها الأوروبيون المستوطنون فى المدن الكبرى ، ولا سيما فى القاهرة والإسكندرية ومع أن المصريين الأصلاء كانوا قلة بين أعضاء هذه المحافل فقد اجتذبت الماسونية الأفغانى مثلما اجتذبت الصحافة والخطابة والتعليم .. ووجد فيها وسيلة للاتصال بالصفوة من الحكام الذين قاموا برعايتها والمتعلمين الذين دخلوا المحافل بتأثير الأوروبيين وكانت تلك السنوات الأربع - من ناحية أخرى - فترة اختار للحركة الوطنية وسط الظروف الصعبة التى أوصل إسماعيل البلاد إليها من الاقتصاد المتردى والديون المتزايدة إلى الاستبداد المطلق والفقر المدقع ، فضلا عن الصراع بينه وبين عمه المطالب بالعرش الأمير محمد عبد الحليم أصغر أبناء محمد على .

وكان عبد الحليم هذا ، أو الأمير حليم كما عرفه الناس ، قد وصل إلى مرتبة الأستاذ الأعظم لمحفل الشرق الأكبر المصرى سنة ١٨٦٧ م، وبدأ يحرك أنصاره من الأوروبيين ضد إسماعيل حتى تنبه الأخير فطرده من مصر فى نهاية العام التالى ، وسافر عبد الحليم إلى الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية ، حيث أقام إلى آخر حياته ، ولكن شبحه ظل يطارد إسماعيل وابنه توفيق من بعده ، كما ظل أنصاره مهيمنين على الحركة الماسونية ، يدعون لولايته فى السر ، ويفضلونه على توفيق فى العلن ، ولا سيما بعد تأكيدات السلطان ولاية أبناء إسماعيل عام ١٨٧٣ م .

وعندما انضم الأفغانى إلى الماسونية عام ١٨٧٥ م كان ذلك بتأثير بعض

المهاجرين من أبناء الشام الذين التف بعضهم حوله ، وصاروا من مريديه ، وكان هو نفسه قد اقتنع بعجز إسماعيل عن حل مشكلات الوضع المتفاقم في البلاد ، وبدأ في استقطاب عدد من شباب المتعلمين حوله مثل محمد عبده وإبراهيم اللقاني وإبراهيم المويلحي ، فضلا عن المهاجرين مثل سليم عنحوري وأديب إسحق وسليم نقاش .

ومع أنه كان يؤيد - مع هؤلاء - فكرة عزل إسماعيل وتولية ابنه توفيق فقد كانوا جميعا يعطفون على قضية الأمير المنفى المطالب بالعرش ، وكان من أنصار الأمير وقتها يعقوب صنوع الذي ظل يؤيده في صحفه العربية بباريس حتى وفاته ، وحسن موسى العقاد شيخ تجار القاهرة الذي نفى عقب فشل الثورة العربية ، والشيخ عليش الذي تولى مشيخة الجامع الأزهر ومع ذلك ظل الأفغاني أقرب وأميل إلى ولي العهد الأمير توفيق ، ولا سيما بعد أن اتفق معه على إصلاح حال البلاد والحكم بالدستور والبرلمان .

وجد الأفغاني نفسه - فجأة - في قلب الصراع الدائر ، وبعد أن قضى سنواته الأولى في القاهرة في تعليم الشباب بمجالسه الخاصة أو في داره ، وتجميع حلقة من التلامذة والمريدين على اختلاف عقائدهم نزل إلى ميدان السياسة التي شغلت الجميع وقتذاك ، وشجع المحيطين به على إصدار الصحف ودخول الماسونية ، ولم يكن تشجيعه على دخول الماسونية « لأنه رأى فيها امتدادا لحركات التطرف الإسلامية القديمة التي تعاطف معها » كما قال أحد المستشرقين ، وإنما لأنه رأى فيها وسيلة للإصلاح والتغيير ، ويبدو أنه أعجب بشعار الماسونية الذي رفعته في ذلك الوقت (الحرية والإخاء والمساواة) وهو ذاته شعار الثورة الفرنسية الذي روجته المحافل التابعة لفرنسا في مصر .

وكان أول محفل انضم إليه الأفغاني مع ٤٠ شخصا من تلامذته ومريديه يتبع المحفل الأكبر في إسكوتلندا .. وكان المحفل يسمى « محفل كوكب الشرق » أسسه الفنصل الإنجليزي في مصر ونائبه . ومع ذلك تبين من الأوراق التي اكتشفت حديثا للأفغاني في إيران أنه كان على صلة ببعض المحافل الأخرى في مصر ذات الولاء اليوناني والإيطالي وفي أواخر عام ١٨٧٧ م انتخب الأفغاني رئيسا لمحفل

كوكب الشرق وأصبح من أهم الشخصيات الماسونية في مصر .. وصارت الصحف التي شجع تلامذته على إصدارها (مصر ، التجارة ، مرآة الشرق) تنابع أخباره ونشاطه الماسوني ، ومن هذه الأخبار ما نشرته صحيفة التجارة في ٢١ يناير ١٨٧٩ م حين وصفت إحدى الحفلات الماسونية التي خطب فيها الأفغانى بصفته رئيسا للمحفل ، فقالت :

« انتظم على مائدتها نيف ومائة قائل بالحرية والإخاء والمساواة معظمهم من وجوه الوطن ونبائه ، وفهم فئة كبيرة من ذوى المقامات والعلماء من المسلمين وغير المسلمين ، فقام فيهم الرئيس المحترم خطيبا ، يبين ماهية ذلك الاجتماع ومقاصد الماسونية ، وصفق الحاضرون ونادوا بأعلى الصوت فلتحيا الحرية والمساواة والإخاء ، ثم توالى الخطب للسعى في ما يوجب سعادة النوع الإنسانى وينقذه من ربكة الذل والعبودية ، وتحالفت القلوب على الانتصار للحق والإنسانية وألا يخافوا فيها أحدا » .

واستمرت صحافة الأفغانى - إذا صحت التسمية - في هذه الحماسة للماسونية حتى اعتقاله ليلة السادس من رمضان عام ١٢٩٧ هـ (٢٤ أغسطس ١٨٧٩ م) وترحيله إلى الهند بعد يومين .. وكانت هذه الصحافة تقود تيارا ينادى بالحكومة الدستورية الشورية كما كانت تسميها .. ولكن الرجل أقدم قبل أيام من خلع إسماعيل في ٢٦ يونيو ١٨٧٩ م على تصرف جرى أثار انقساماً خطيرا بين الماسونيين ، وأنشب معركة حادة بين أنصار توفيق وأنصار حلیم ، فقد طلب من سليم نقاش مدير جريدتي « مصر » و « التجارة » أن يصحبه إلى دار القنصلية الفرنسية في القاهرة كمرّجم بينه وبين القنصل الفرنسى حتى يبلغه رسالة مهمة ، وكانت الرسالة تلتخص في تأييد موقف القنصل الذى سبق أن طلب من إسماعيل التنازل لابنه عن الحكم ، ورد عليه القنصل مطمئنا بأن « التنازل صار أمرا مقروا وشيك الحصول ، على حد تعبير جريدة « مصر » التي نشرت الخبر في ٢٧ يونيو ١٨٧٩ م . أى في اليوم التالى لخلع إسماعيل .

ومع أن الجريدة هنأت البلاد لتولية توفيق بعد أبيه فسرعان ما نشبت معركة حامية بين أنصار توفيق ، ومنهم الأفغانى وجماعته أو حزبه ، وبين أنصار حلیم من

مؤسسى محفل « كوكب الشرق » فقد اتهم المؤسسون (القنصل الإنجليزى ، ومفتش اللغات الإنجليزى أيضا ، ومترجم القنصلية الشامى وطبيب سويسرى) وأنصارهم من الأوروبيين والشاميين الأفغانى وجماعته بأنهم خرجوا على المبادئ الماسونية وخالفوا قانونها الذى يمنع التدخل فى المسائل السياسية والدينية ومع أن الاتهام صحيح لأن الماسونية تزعم عدم التدخل فى السياسة والدين ، فإن سببه الحقيقى كان عدم تأييد هؤلاء المؤسسين وأنصارهم لتولية توفيق حتى ذلك الوقت ، لأنهم رجعوا عن رأيهم هذا فور إعلان السياسة الإنجليزية عن تأييدها لتوفيق بعد ذلك ، وبدأوا فى محاربة الأفغانى وجماعته ، ورد الرجل وأنصاره على التشهير بهم فى الصحف المعادية ، ولا سيما صحيفة « الوقت » التى حملت عليه حملة شعواء ثم قدم استقالته مع ٤٠ شخصا من أنصاره من المحفل الإنجليزى ، وشرع فى تأليف المحفل المصرى كما سماه ، فاتخذ أعداؤه هذا التكتل الجديد قرينة ضده ، وأوعزوا إلى الخديو أنه ألف جمعية هدامة تسعى إلى قلب نظام الحكم ، وتولية الأمير المغضوب عليه .

كان يرأس الوزارة المصرية فى ذلك الوقت محمد شريف باشا الذى كان من العاطفين على الأفغانى ، وإن كان عطفه أقل من عطف خصمه مصطفى رياض باشا الذى ترك مصر قبيل عزل إسماعيل وأقام فى إيطاليا ولكن الأحداث لم تلبث أن تحركت بسرعة على غير ما يشتهى الأفغانى فلم يمض أسبوعان على انسحابه من المحفل الإنجليزى ومحاولته تأسيس محفل جديد ، حتى وصلت « إرادة » السلطان العثمانى بتولية توفيق رسميا . وعلى الفور أقال الخديو الجديد وزارة شريف التى كانت تطالب بالدستور والحكم النيابى ، وتولى هو بنفسه رئاسة الوزارة الجديدة فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩ م . ونشرت جريدة « التجارة » بعد أربعة أيام خبرا عن مثول بعض رؤساء الماسون بين يدى الخديو للتهنئة ومن الواضح أن هؤلاء ما جاءوا للتهنئة وحدها فقد فات مياعداها ، وإنما للتبرؤ من تصرف الأفغانى وإقحامه الماسونية فى السياسة ، واحتكاره الكلام بلسانها ، وإذا ربطنا بين هذا كله وبين اعتقال الأفغانى بعد يومين آخرين من نشر الخبر لأدركنا خطورة تصرفه الجرىء ذاك وإسهامه فى التعجيل بطرده .

وهكذا كان أول قرار لحكومة الخديو الجديدة هو إبعاد الأفغانى عن مصر ، وبعد أيام نشرت الصحف بيانا رسميا حول الإبعاد ولما رفضت جريدة « مرآة الشرق » الموالية للأفغانى نشره صدر أمر بإيقافها ، ولكن البيان ذاته - مع ركاكة لغته - يشير إلى تحركات الأفغانى الأخيرة ويرر طرده بطريقة مضحكة .. فهو يقول: إن الحكومة «استشعرت بأن هناك جمعية سرية من الشبان ذوى البطش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا المضر بالبرية ، رئيسها شخص يدعى بجمال الدين الأفغانى ، مطرود من بلاده ثم من الآستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة فى ديارنا المصرية ، المتحقة بالقبض من أهل الضبط ، والتيقظ والبصيرة والربط ، على أوراق عنده مضمونها شاهد عليه بالتوسل بتلك الجمعية إلى السعى فى جميع القبائح والمفاسد التى لا تخفى على أهل الكياسة ، خصوصا رجال الحكومة المحنكين المديرين على السياسة والرئاسة » .

هكذا أيضا راح الأفغانى ضحية وشايات « إخوانه » من الماسونيين ، ولم يتشفع له أحد . ومع ذلك طلب وهو فى باريس عام ١٨٨٤ م بعد تحريره من منفاه الالتحاق بأحد المحافل الفرنسية ولم يدرك عبث الماسونية إلا فى أواخر حياته ، حين أفضى لتلميذه محمد المخزومى وعبد القادر المغرى - وهو فى قفصه الذهبى بالآستانة بأنه اكتشف أن الجين ينخر عظام الماسونية ، وأن شعاراتها استدرجته لكنه وجدها مفعمة بالأنانية وحب الرياسة والأعمال التى تقودها الأهواء .

ومن هذا كله نستطيع أن نخلص إلى أن الأفغانى أقبل على الماسونية بدافع الإصلاح ، مثلما أقبل على غيرها من وسائله كالتعليم والخطابة والصحافة . ولم تكن الماسونية وقتها مكروهة ولا منبوذة فى مجتمع ينوء بالأنقال ويتطلع إلى الحرية والعدل .

قراءة عامة في تجربة الأفغانى وآثاره

الدكتور إبراهيم حركات
أستاذ بكلية الآداب - الرباط

يتميز القرن التاسع عشر الميلادى بالنسبة للمجموعة الإسلامية بكونه عصر الانبعاث الدينى واليقظة الوطنية تجاه التغلغل الاستعمارى ولقد دشن عهد الانبعاث الدينى منذ القرن ١٢/١٨ م انطلاقا من حركة محمد بن عبد الوهاب التى امتزجت هى نفسها بالروح الوطنية بسبب رغبة الحركة فى الاستقلال عن السلطة العسكرية العثمانية . وفتح جمال الدين الأفغانى عينه على الأمة الإسلامية وقد أخذ الاستعمار الأجنبى يقتص أطرافها مواصلا عمله على مرأى من هذا المصلح فى شبابه وكهولته فشمل الاحتلال الجزائر ومصر والسودان ومسلمى الهند وتونس كما بدأ ينشب أظفاره فى جهات أخرى كالمغرب بعد أن سطا بإفريقيا الغربية .

امتدت حياة جمال الدين تسعا وخمسين سنة بالتاريخ الميلادى وأقل من ٦٢ سنة بالتاريخ الهجرى (١٢٥٤ - ١٣١٦ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧) وإذا كان الأفغانى قد جمع بين دراسة العلوم الشرعية والعلوم الحديثة لا سيما الطبيعيات والفلسفة فضلا عن عدة لغات أجنبية فإن الدراسة والفلسفة لم تؤثر فى اتجاهه الإسلامى حتى مع خضوع أفكاره للأسلوب العقلانى والمنطقى فى فهم الأحداث وتبليغها واستيفائها ، وإلى ذلك ، فقد كانت لديه معارف عسكرية جيدة .

وقد بدأ الأفغانى حياته بعد الدراسة سياسيا وختمها سياسيا وبينهما ناضل فى المجال السياسى كما ناضل فى واجهات الدين والعقيدة والتربية والإصلاح ، واستعمل كل الوسائل الممكنة ، فكتب وألف وأسس وشارك فى تأسيس منظمات وجمعيات وألقى الدروس وأجرى اتصالات شرقا وغربا وخطب وتحمل النفى والاضطهاد ولم يغير شيئا من مبادئه حتى نهاية حياته .

بين أفغانستان وإيران :

سواء أكان جمال الدين إيرانيا أم أفغانيا أم يرتبط دما ولحما بالبلدين ، فقد

كان منشؤه بأفغانستان ، وبفضل ما كان لأسرته من جاه قديم فقد ارتبط جمال الدين بعلاقة جيدة مع الأمير الأفغانى دوست محمد خان ، وما لبث أن بلغ منصب رئيس الوزراء وهو دون الثلاثين وذلك لمدة قصيرة وبدأت تبرز روحه الإصلاحية انطلاقاً من هذه الفترة ولكن حرباً داخلية بسبب العرش ، جعلت جمال الدين يغادر أفغانستان متنقلاً بين عدد من الأقطار ومهماً حيثما حل بالتنديد بالاستعمار وفضح أساليبه ودعوة المسلمين إلى مراجعة ذاتية شاملة تعصف بمجمودهم وتنهض بأفكارهم وتزعج عنهم ذل الهيمنة الأجنبية وفي ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ م استقدمه شاه إيران ناصر الدين ورحب به كمالقى تكريماً عظيماً من الشعب الإيراني ، وكانت شخصية جمال الدين قد اكتملت وشهرته تجاوزت الأقطار الإسلامية وبالنظر لخبرته الواسعة فقد عينه وزيراً للحرية غير أن شعبية جمال الدين وتوجهاته الإصلاحية ضايقت السياسيين وعدداً من الفقهاء ، مما اضطر جمال الدين إلى التعلل بالسفر إلى روسيا لأسباب صحية ، قبل أن يدعو الشاه من جديد إلى الرجوع ، وهناك أعد مشروع دستور للمملكة الإيرانية ، فلقى قبولاً من الشاه ، غير أن حاشيته حذرته من التخلي عن سلطاته ، وأصبح الأفغانى فى وضع حرج جعله يلجأ إلى ضريح معظم قبل أن يأمر الشاه بترحيله إلى الحدود بالقوة وقد أصابه المرض فدخل إلى العراق ، وبدأ حملة تنديد واسعة ضد الشاه وأنصاره الذين يسيؤون إليه ، وإلى البلاد ، ولقيت الحملة آذاناً صاغية من شيعة الأفغانى والمتعاطفين معه حتى أن حجة الإسلام ميرزا حسن أصلر فتوى بتحريم التباك الذى أعطى حق احتكاره لمؤسسة إنجليزية شأن حق تأسيس بنك بريطانى وغير ذلك من وسائل التغلغل الاستعمارى الذى سلكه ساسة آخرون من دول استعمارية كأسبانيا وفرنسا .. ونجح جمال الدين فى وقف التغلغل البريطانى فى إيران على يد أبنائه لكن بفضل حكمته هو ، ومساعيه وموضوعية كتاباته ، وسواء فى أفغانستان أو إيران لم يكن جمال الدين يعمل باسم القومية ولا باسم الحدود الضيقة ، وحتى فى الهند كان يلفت انتباه السكان وخواصهم إلى عدم موضوعية احتلال دولة لها تراب صغير لأمة تعد عشرات الملايين فقد كره جمال الدين الاستبداد من حيث هو سواء كان من الأفراد أم من الدول .

مصر والمسألة المصرية :

زار الأفغانى مصر لأول مرة سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م حيث أقام فى القاهرة أقل من ستة أسابيع ، وذلك بعد أن نفتته الحكومة الإنجليزية من بلادها وأجبرته على امتطاء باخرة متوجهة إلى مصر ، وأثناء إقامته القصيرة دعاه السلطان العثمانى إلى الآستانة ، غير أن بعض الأطراف التى تعصبت ضده خصوصا شيخ الإسلام حسن أفندى فهمى اضطرته مرة أخرى إلى الالتحاق بمصر فى مطلع ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م حيث قضى ثمان سنوات يمكن اعتبارها أخصب فترات حياة جمال الدين نشاطا وأبلغها تأثيرا ، واتجه جمال الدين توالى إلى عنصر الشباب من الطلبة الأزهرين وذى الثقافة الحديثة ، والفئة الأخيرة كانت أكثر إقبالا عليه وتجاوبا معه فى دروسه ومناقشاته ، وفى الأزهرين من تشبثوا به وتأثروا به معجبين ومساندين كمحمد عبده وسعد زغلول ، كذلك أقبلت الجماهير على دروس الأفغانى وخطبه ومحاضراته التى تتناول قضايا الحرية والاستبداد ، وكان لهذه الدروس وما أزاها من نضال داخلى لدى الجماهير والفئات المستنيرة أثر قوى فى إثارة الروح الوطنية لدى الشعب المصرى ، نظرا للحالة السياسية والمالية التى كانت تعانيها البلاد ، ولتدخل الإنجليز فى إدارة شؤونها فضلا عن الفرنسيين أيضا .

وحيث إن دعوة جمال الدين عملت عملها فى عدد من أعضاء مجلس النواب وغيرهم من الزعماء السياسيين فقد تماثلت القوة المعادية لجمال الدين ضده ، وفيهم فقهاء مترمتون وعوام يومهم هؤلاء بضلال الأفغانى لأنه يثير مسائل فلسفية فى أحاديثه ، ووجدت الأطراف الاستعمارية بغيتها فى هذا التماثل ، فعملت لدى السلطان العثمانى على عزل إسماعيل باشا وتنصيب نجله توفيق الذى ازدادت الأوضاع فى أيامه تفاقمًا فالمرحلة وإلى ما بعدها لم يصل الشعب المصرى فضلا عن الشعوب الإسلامية الأخرى إلى درجة كافية من الوعى السياسى والثقافى لممارسة نقد ذاتى حقيقى يسمح بتجاوز ضغوط مراكز القوى الداخلية فالأفغانى لم تكن له سلطة سياسية نابعة من جهاز ، ولكن كانت سلطته المعنوية تسير فى

اتجاهين أحدهما يجلب المتعاطفين والمقتنعين ، والآخر ينخر سلطة المتخاذلين والخائفين والمتناقضين ، وهذا هو الذى تنتظره الجهة الاستعمارية المتربصة للإجهاز على الطرف القوى وتكثيف صفوف المستضعفين وحيث إن توفيق باشا كان يخضع لمشية القنصل الإنجليزى العام ، فقد استجاب لرغبته فى طرد جمال الدين من مصر فقادته إلى الهند باخرة كانت فى طريقها إلى هناك ، وتعتبت السلطة أنصار الأفغانى وسائر المعارضين وحتى من تخلفوا من أسرته ، ونفى محمد عبده إلى قريته قبل أن يتوجه إلى بيروت ، وغضب الشعب المصرى لتدخل الإنجليز والفرنسيين فى شؤونه وتحرك الجيش بقيادة عراى سنة ١٨٨٢ م وكانت الثورة غير مسبقة بتنظيمات محكمة ، كما أن عوامل خارجية أفشلتها ، لكن حركة الأفغانى بذرت بذرتها لتثمر على مدى أبعد ، ولكل أجل كتاب .

الماسونية وموقف جمال الدين :

لا مجال هنا للحديث عن أصول الماسونية وفى العصر الحديث ظهرت لها رموز وطقوس فعرفت بالماسونية الرمزية ، وورد فى كتاب الأستاذ محمد سلام مذكور عن جمال الدين الأفغانى أن الماسونية الرمزية بمصر ، عرفت مع حملة نابليون سنة ١٧٩٨ م فأسس نابليون محفلا سماه أريس ، وضم إليه الأعيان والعمد وغيرهم بقصد توطيد نفوذه ، ورجوع نابليون من مصر انتهى أمر المحفل ، ثم أنشئ محفل آخر سنة ١٨٤٥ م باسم محفل الأهرام بالإسكندرية والتحق به عدد من كبار الشخصيات بينهم الأمير عبد القادر الجزائرى وكان المحفل يرعاه الخديوى إسماعيل ثم توفيق باشا ومن شروط عضويته الإيمان بالله وطاعة الحكومة وشريعتها وكتان الأسرار إلى جانب الشروط الأخلاقية ، وكان المحفل تابعا لمحفل الشرق بفرنسا ، وعمل جمال الدين على جلب عدد كبير من العلماء والأعيان ، فجمع ثلاثمائة عضو ، وما لبث الجمع أن توسع بساسة وأدباء وعمد إلى عقد اجتماع سرى نوقشت فيه أوضاع مصر ، وعلى أثره تقرر إنشاء الحزب الوطنى الذى وضع برنامجا طالب فيه بإصلاحات اجتماعية ودستوية واقتصادية ، كما طالب باعتبار

المراقبة الأجنبية للسيادة المصرية مؤقتة يجب أن تزول في أقرب وقت .. وهذا الحزب هو أصل الحزب الوطني الذي أنشأه مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ م ، وكان الذى تقدم بيرناج الحزب المنبثق عن الحركة الماسونية هو جمال الدين مع وفد من الأعضاء الذين اتصلوا بالفرنسى والجهات البريطانية وكان الإمام محمد عبده من أعضاء المحفل .

والماسونية لم تكن بعد قد تسرب إليها النفوذ الصهيونى وهيمته ، كما أن دخول شخصيات لا يجادل فى تقواها وبعد نظرها وذكائها إلى محفل سرى كهذا بدون أن يصدر عنها ما يشين مبادئها الأصلية أو يمس بسيادة بلادها قد يكون له الكثير من الإيجابيات ما لم يثبت العكس .. وقد تعود المسلمون بالنظر لروحهم المحافظة وخشية من القيل والقال أن لا يتسربوا إلى أوساط الآخرين بينما يندس الآخرون بين صفوف المسلمين بكل وسيلة بل إن المحافل الإسلامية تفتح صدورهم للغير دون أن يكون للمسلمين أنفسهم من الشجاعة والثقة ما يقتحمون به كل الأوساط وهذا مع استثناءات أغلبها يصبح تابعا مطيعا ، أما حال جمال الدين الأفغانى ورفقائه اللامعين فليست من هذا الصنف .

الفكر السياسى والدينى عند الأفغانى ومحمد عبده :

محمد عبده تلميذ لجمال الدين الأفغانى وغرس يده ، فقد أثر فيه ثقافيا وفكريا وسياسيا ونقله من المؤثرات الصوفية إلى فلسفة التصوف ثم إلى الفكر السياسى والتجريدى ولكن محمد عبده يعترف بأىدى جمال الدين عليه وعلى كل مصر والعالم الإسلامى ، وبالمقابل فمحمد عبده له شخصيته المتميزة التى تزن الأمور باستقلال أكثر . وحتى بوجهة نظر مغايرة فى بعض القضايا الرئيسية .

وهكذا فالأفغانى يستأثر به المجال السياسى أكثر من غيره وليس دون غيره ، ومحمد عبده يستأثر به الجانب الدينى أكثر من غيره وليس دون غيره ، وعندما يعالج الإمام الجانب الدينى فليس بطريقة الوعظ والإنذار ، بل بالرزانة والحكمة والعقل . وهذا من تأثير أستاذه على أن حرارة العاطفة تستشف لدى التلميذ أكثر منها لدى شيخه ، وكلاهما عميق الإيمان .

ومن أهم الفروق بين الرجلين أن الأفغانى ذو روح ثورية تناهض الظلم

والاستبداد وتلاحق أشخاصهما بالشهير والتنديد وتحذير الجماهير ، أما محمد عبده فتجاذبته الروح الثورية والعزوف عن النشاط السياسى لفائدة العلم والتربية حسب الظروف ، وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الأفغانى ثوريا وانتهى ثوريا ، وقد عاتب الشيخ تلميذه عندما انتقل فى أخريات حياته إلى إسطنبول بعد أن لاحظ فتور حماسه وحذره من الاصطدام بالإنجليز .

وانصب اهتمام الشيخ محمد عبده على أوضاع مصر وإذكاء الروح الوطنية بها لأن ظروف البلاد كانت تقتضى من أبنائها أن يعالجوا قضاياها وهى قلب العالم العربى والإسلامى ، وموقعها البالغ الأهمية فى الربط بين القارات يسيل لعب الأطراف الاستعمارية ، وهذا مع كون الشيخ محمد عبده وضع القضية الدينية فى عمق اهتمامه ، أما الشيخ الأفغانى فأنشأ فكرا إسلاميا سياسيا للمجموعة الإسلامية ككل واتجه تولا نحو الدسائس المناققة التى تتعامل معها بين المسلمين كما عنى بلفت أنظار المسلمين إلى امتلاك حريتهم الداخلية والخارجية معا ويسلك السبيل الأقوم لمسيرة الركب الحضارى وهو التصنيع والعلم الحديث ، دون التضحية بالقيم والتقاليد الحسنة ، ولم يلتفت الأفغانى إلى القوميات فى حد ذاتها ، وحتى عندما فعل نادرا ، فمن أجل تعزيز الوحدة لا من أجل فصمها ، كدعوته لوحدة الأفغان مع إيران بالنظر للرباط المشترك جغرافيا وثقافيا ودينا .

وإذا كان محمد عبده يتجه إلى النخبة بالدرجة الأولى فالأفغانى يخاطب المجموعة الإسلامية ككل ، ويضع فى اعتباره أهمية الفئات الشعبية فى مساندة أفكاره الوحدوية والسير فى طريق تنفيذها ، ومن ثم فهو يناصر بقوة التوجه الديمقراطى والشورى فى الحكم ، وذلك لا يتم إلا بإقرار دساتير فى الأقطار الإسلامية تضع الناس جميعا فى مستوى واحد أمام العدل والقانون ، ويسلك الأفغانى كل الطرق الواضحة حتى الثورية منها للعمل على تمكين الأقطار الإسلامية من ارتجاع سيادتها وتخليصها من مغالب الاحتلال .. ولذلك ساند بعزم حركة المهدي بالسودان مع أن توجهاته وأبعاد مبادئه تختلف فى كثير من أسلوب هذه الحركة والذى ربما كان ضرورة ظرفية لا يمكن أن تطبق عليها الأساليب الثورية فى المجالات السياسية والاجتماعية ، وإن كانت حركة المهدي نفسها ثورة نضالية .

الجامعة الإسلامية والعروة الوثقى

هذا هو الجزء الثانى من مساهمة الدكتور إبراهيم حركات أستاذ كلية الآداب فى الرباط عن تجربة جمال الدين الأفغانى ..
الجامعة الإسلامية :

نضجت فكرة الجامعة الإسلامية لدى جمال الدين الأفغانى وهو دون العشرين عندما انتقل لأول مرة بين عدد من الأقطار العربية وأدى فريضة الحج . واستغل فرصة اجتماع الحجاج من كل البقاع الإسلامية فعمل على إنشاء جمعية أم القرى والتي يمثل أعضاؤها مختلف الأقطار الإسلامية وكان يرى أن الأمة الإسلامية يجب أن تنشئ وحدة روحية ونضالية ضد الاستعمار من أجل محاربة التخلف ولذلك فالفكرة لدى الأفغانى تتجه إلى وحدة الشعوب الإسلامية نفسها ، دون أن يعمل على وضع مشروع لها كل هذه الوحدة لأن المسلمين غالبيتهم إما تحت الاحتلال أو مهددون به بما فيهم الأتراك ، غير أن فكرة الجامعة الإسلامية والتي لا تزال حتى يومنا هذا لم تختمر على نطاق الشعوب ، مع كونها قطعت أشواطاً مهمة فى المستويات السياسية العليا ، لم تكن قيادتها لقومية ولا لدولة بعينها لكن السلطان العثمانى عبد الحميد تبناها لنفسه بينما ظهر الكواكبي فيما بعد ، يبعث فكرة الجامعة الإسلامية على أساس أن تقودها أيد عربية ، وكان فى هذا الاتجاه إحياء للاتجاه الأموى القديم والذي يعطى للقومية العربية تميزاً كانت الظروف التاريخية وطبيعة الثقافة الإسلامية تقتضيه أو تسمح به .

أما فى عصر الكواكبي نفسه فإن أحسن ما فى اتجاه هذا المصطلح هو المزج بين القومية العربية ودولية الأمة الإسلامية ، لكن الفكر القياىى للجنس دون غيره يبعد هذا التعايش عن المنظور الديمقراطى الذى دافع عنه الكواكبي بحماس واقتدار ، مثلما دافع عنه سلفه الأفغانى ، وهو أيضاً معاصره ، أما السلطان عبد الحميد فقد كان يواجه عداء الدول الأوروبية التى لم تكن مرتاحة للسيادة العثمانية ولا تسمح بنشأة جامعة إسلامية قوية ، وهذه السياسة لا تزال قائمة .

العروة الوثقى :

ضمت جريدة العروة الوثقى والتي أصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده

١٨ عددا نشرت في باريس كما هو معلوم وانتهت مع نهاية العام الأول من القرن الرابع عشر الهجرى ، وهى فى الواقع مجلة أسبوعية ولو أنها صدرت باسم جريدة والمخاور الرئيسية لمجموع الأعداد هى :

١ - الأوضاع الإسلامية وانحطاط المسلمين .

٢ - الوحدة الإسلامية .

٣ - أسلوب الحكم ونظرات حوله .

٤ - قضية السودان .

٥ - المسألة المصرية .

٦ - الدولة العثمانية .

٧ - السياسة الإنجليزية عموما .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : « وقد أخذت هذه الجريدة من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منه ، وهى ذات أثر فى كل ما جد من حركات الوطنية والحرية فى بلاد الشرق » .

ويمكن أن يضاف على سبيل المثال ، أن الحركة السلفية والحركة الوطنية بالمغرب كان أفرادها يتداولون العروة الوثقى فى الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين كمستند يحظى بنوع من القداسة ويرجع إليه فى مداورة القضايا الوطنية الإسلامية .

وحسب الدكتور محمد عمارة فى كتابه عن الشيخ محمد عبده كانت كل الأفكار الأساسية فى العروة الوثقى للأفغانى ، والصياغة والترتيب لمحمد عبده الذى لم يكن فى قرارة نفسه مرتاحا لدوره هذا غير أن معظم الأفكار فيما يبدو يلتقى فيها الرجلان وهما يواجهان نفس العدو يعانيان الكثير من الهموم المشتركة وإن كان بينهما خلاف فيما يخص أسلوب التعامل مع قضية الوحدة الإسلامية .. وأسلوب الحكم فى الأقطار الإسلامية .

ومن الأمور التى أثارها العروة الوثقى بشأن السودان ما تردد بمنطقة طشقند الروسية من أصداء عن انتصارات عرب السودان فى بعض مواجهاتهم مع الإنجليز وظهور داع جديد بطشقند يدعو إلى ثورة على الحكام هناك .. وتتبع الجريدة أخبار المقاومة الوطنية فى السودان بكثير من التركيز والضغط .

بينما شغلت المسألة المصرية جزءا كبيرا من اهتمامها خصوصا فى المجال الإخبارى ، وهو ما يقال أيضا فى السياسة الإنجليزية لا سيما بمصر ، وكذا فى مناطق أخرى كإلهند وإيرلندا ، أما اتجاه الدولة العثمانية فبقى سياسة الجريدة متحفظة وأحيانا مدافعة عن وجهة نظر هذه الدولة وفى ذلك يتفق محمد عبده وجمال الدين الأفغانى محافظة على مبدأ الوحدة الإسلامية وعدم تقديم فرصة للأطراف المعادية حتى لا تتخذ من منطق الجريدة حجة فى هذا المجال إن كانت لغير صالح الدولة العثمانية .

ومن أهم ما يمكن أن يؤخذ على الأفغانى أنه فيما عدا مصر والسودان لم تأخذ أوضاع الشعوب الإسلامية وأقطارها بإفريقيا بنصيب يذكر من اهتمامه مع أنها كلها إما تحت الاحتلال أو تواجه التغلغل الاستعمارى اقتصاديا على الأقل ، وهذا فضلا عن تخلفها الشامل ، وقد كانت فرصة إصدار العروة الوثقى مناسبة ممكنة للفت أنظار العالم ، خصوصا المجتمع الإسلامى الواسع ، إلى أوضاع المسلمين ومعاناتهم فى القارة الإفريقية عموما ، لكن لا جدال فى أن قبس الثورة الفكرية التى أعلنها جمال الدين الأفغانى أشع بنوره حتى عبر المجهل الإفريقية من طريق كتاباته التى تنبض حنيئا إلى الحرية والوحدة .

خطاب الأفغانى وتجربة النخبة فى تونس

دكتور أحمد النيفر

جامعة الزيتونة - تونس

« التقيت هنا بالعلماء والأمرء فتعرفت عليهم وقلت لهم : ليست « العروة الوثقى » اسم جريدة فقط بل هى قبل ذلك اسم الجمعية أسسها سيد جمال الدين الأفغانى فى حيدر آباد بالهند ولها فروع سرية فى بلاد كثيرة ، فأعلمتهم بأننا نرغب فى تأسيس فرع لها بتونس فقبلوا ، وأنا أسعى لتكوين هذا الفرع من العلماء وأعتقد أنه لا مجال للخوف لما يتسم به أولئك العلماء من غيرة ودفاع وسيحافظون على سرية هذا الفرع ، ولو وقفتم بأنفسكم على مدى إكرامهم لى لسعدتم كل السعادة »^(١) .

هذه فقرة من رسالة بعثها الأستاذ الإمام محمد عبده من تونس بتاريخ ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٤ م إلى السيد جمال الدين الأفغانى فى باريس يعلمه فيها بتفاصيل مهمته التى قدم من أجلها إلى تونس ، والواضح من هذه الفقرة أن الأستاذ الإمام فوجئ مفاجأة سارة من إقبال النخبة التونسية على مشروع الجمعية المناهضة للاستعمار الأوروبى ، من الجلى - إذن - أن زعيمى الإصلاح لم يكونا يتوقعان مثل هذا الاندفاع من قبل علماء عرف نظراؤهم فى العالم الإسلامى بمهادنة الأوضاع السياسية القائمة واستسلامهم للبدع والخرافات التى كانت تطفئ على الحياة الدينية الشعبية ، هذا الاكتشاف الذى تحقق إثر الزيارة الأولى لمبعوث السيد جمال الدين لم يزد مع الأيام إلا وضوحا إذ تحول عند الأستاذ الإمام إلى قناة راسخة عبر عنها دون مواربة حين دعم صلاته مع القيادة الفكرية التونسية واهتم بمشاغلها على صفحات « المنار » ثم لما عاد ثانية إلى تونس خريف سنة ١٩٠٣ م ، لقد اكتشف زعيما الإصلاح أن النخبة التونسية أشد قبولا للرق من المصريين^(٢) ، وأن مبدأ الإصلاح حاصل فى عموم صفوف النخبة

(١) الدكتور على الشافى - صلة النخبة التونسية بجمال الدين الأفغانى - المجلة التاريخية المغربية عدد ٨٥ و ٨٨ يناير ١٩٧٨ م ص ٤٥ .

(٢) محمد الطاهر بن عاشور - أليس الصبح يقرب - الشركة التونسية للنشر - تونس طبعة ١٩٧٦ م ص ١٨١ .

لكنه يحتاج إلى مزيد من الرعاية قصد فتح المجالات العلمية لدعمه والمساهمة في توسيع آفاقه .

والواقع أن من يقارن ما تعرض له الخطاب الإصلاحى من عنت ومقاومة في مصر وتركيا مثلا وما لقيه من تقبل في القطر التونسى يمكن من القول أن الأفغانى وعنده اكتشفا في تونس البيئة النموذجية وأنهما كانا سعيدين باكتشافهما سعادة لا تعادلها إلا سعادة النخبة التونسية بعثورها على الجواب العملى المتصل بكيفية مواجهة الأوضاع المتردية في تونس والعالم الإسلامى .

كانت العناصر الفاعلة في النخبة التونسية تطلع بشغف زايد إلى ما تنشره العروة الوثقى فتجد فيه ما يؤكد وجهتها الإصلاحية العريقة وما يبدد بعضا من مخاوفها ويحصنها بشيء من الطمأنينة على أن نبض الأمة لم يتوقف ، كانت النخبة في تونس تقرأ كلمات العروة الوثقى فيعود لها الأمل مضاعفا : الأمل في أن ما ابتدأ من يقظة منذ مطلع القرن التاسع عشر في الربوع التونسية لم تتمكن الأيام والأحوال من إتلافه والأمل في أنه لم يقتصر على قطر أو اثنين بل إن صدهاء أصبح يتردد في ربوع البلاد العربية الإسلامية، كانت العروة الوثقى - مجلة ثم مشروعا للإصلاح والتغيير - أحسن مكافأة كان يمكن أن تقدم لهذا الجيل من النخبة التونسية الذى درس في الجامع الأعظم - جامع الزيتونة - ثم أدرك من خلال المهام السياسية والإدارية والدينية التى تولاها أن عليه مهمات جساما جاءت العروة الوثقى لتخفف من ثقلها فإذا كان المصلحان الكبيران - الأفغانى وعنده - قد اكتشفا تونس فإن النخبة التونسية قد اكتشفت - من خلال مشروعهما - نفسها ومشروعية العمل الريادى الذى بدأه منذ ما يقارب القرن ، رجال من أمثال قابادو وابن أبى الضياف ويبرم الخامس وغيرهم .

كان كل شيء في العروة الوثقى وفي مشروعهما يغرى النخبة التونسية بالانفتاح عليها والدفاع عنها والقطع مع مرارة التخاذل الذى كرسته المصائب المتوالية على البلاد الإسلامية عموما وعاصمة الخلافة خصوصا ، كانت النخبة التونسية تقرأ ما كان يكتبه المصلحان في العروة الوثقى فترتفع آخر الغشاوات من على الأعين ويتأكد عندها أن الحلول لن تأتى إلا من النخبة المسلمة والعاملة ذلك أن

« الرزايا الأخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدت إلى ما هم فيه فتقاربوا في النظر وتواصلوا في طلب الحق وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف » ، لقد أنهى « الأفغانى وعبداه » حيرة النخبة التونسية الناجمة عن دخول الجيوش الفرنسية إلى تونس ، كانت أنظار النخبة متجهة إلى عاصمة الخلافة العثمانية تتوقع منها نجدة سريعة ، لكن الباب العالى كان يتخبط في مشاكل قاتلة حالت دون تقديم أى عون للولايات الإسلامية التي كانت خاضعة له .

جاء خطاب السيد جمال الدين لينهى الانتظار العقيم ويدفع بالعلماء والنخب في تونس وفي غيرها لتتولى أمرها وتجمع شعثها لمواجهة الرزايا المتلاحقة عليها ، يقول « محمد السنوسى » معبرا عن هذا الاختيار الجديد الذى مثله المصلحان بالنسبة للنخبة التونسية والذى أنهى مرحلة توقع الحل من دار الخلافة : « ... الأمة العربية محتاجة إلى لسان معرب عن الداء الذى تكنه فى الجنان ، ينقذها من الانقياد إلى العميان بل إنها إليه أحوج من حاجتها إلى الماء والهواء إذ لم تجد بدونه متنفسا ولا مساعدا للارتواء حتى أتاح هذا الدهر بصاحب العرض الأنقى هذا الهاتف الذى صدع للأمة باسم العروة الوثقى .. ناهيك من عروة يتمسك بها أهل الهدى ويتقون بها الردى وينيطون بها أمل الحياة فلا يذهب سعيهم سدى »^(٣) .. هكذا نفهم حفاوة النخبة التونسية بمقدم الأستاذ الإمام إلى تونس وبما عرضه عليهم من الانضمام إلى التنظيم الدولى البديل الوحيد عن القيادات السياسية العاجزة والمتهاكمة^(٤) .

العلماء والأمرء :

كانت النخبة التونسية إذن تقف مع مشروع المصلحين الكبار لتكون عرافة ماضيها الإصلاحى والتحديثى ولتكتشف أفق الحل العملى الذى يخرجها من

(٣) مجموعة العروة الوثقى - دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٧٠ م ص ٤٦ .

(٤) انظر الذكرور على الشائى المذكور آنفا .

التخوف والحيرة ، وكان الأستاذ الإمام في ذات الوقت يضع أصابعه على جذور هذه الخصوصية التونسية التي جعلته يكشف بها تلميذه الأستاذ رشيد رضا بما وراء سبق « مسلمى تونس » لأهل الأزهر لافتا نظره لضرورة بحث وضعية علماء الزيتونة وسررياتهم^(٥) . وهذا ما يفسر عناية رجال الإصلاح وإكبارهم لما يحصل في تونس سواء صدر عن الخط المحافظ^(٦) أو عن الخط التجديدي .

والواضح أن التقاليد العلمية والأوضاع الاجتماعية في تونس الحديثة والمعاصرة مكنت لعدد من علماء الزيتونة مباشرة الحياة العامة فتقبلوا في المناصب السياسية العالية وتولوا المهام الإدارية واختلطوا بكبار رجال الدين وكانت حصيلة كل هذا نضجا فكريا واستعدادا واعيا لدعم كل توجه إصلاحى وعقلانى .

غير أن هذا لا يعنى في شيء أن عموم النخبة التونسية كانت مساندة للمسار الإصلاحى ، فقد كان هناك من يعتبر كل تجديد مسا مباشرا للتقاليد بل للدين نفسه فيرفضون تطبيق أى قانون جديد باعتبار أن ذلك سوف ينتج تحولات تطيح في نهاية المطاف بالإيمان وكان أهم ركيزة لهذا التوجه هى الطرق الصوفية التى تمكنت من تأطير حقيقة للحياة الدينية والشعبية في الأرياف والبادى بعيدا عن كل منهج معقلن إزاء هذا كانت هناك فصائل من النخبة المتعقلة التى تقطن المدن والتجمعات الحضرية والتى تعتبر بحكم تكوينهم الإسلامى المعقلن أن هذه التحولات أو تلك قابلة للنقاش على شرط ألا تخفى مزيدا من التوسع في هيمنة السياسى على المدنى والواضح أن هذه الفئة كانت تردد مقولة قديمة برزت في العالم الإسلامى عند ضعف الدولة العباسية بلورها عدد من العلماء من أشهرهم « ابن عقيل » و « ابن الجوزى » إنها مقولة تقوم على إدانة السياسة التى طغت على الشريعة لكن المخاطر الأوروبية الزاحفة على تونس طيلة القرن التاسع عشر حولت كثيرا من مواقف النخبة الحضرية كما قلصت من نفوذ الخطاب الصوفى .

لقد صاحبت التحولات السياسية الدولية تحولات هامة على مستوى الفكر الدينى والسياسى التى تحملها النخبة الحضرية في تونس ، إنها أدركت بمستويات

(٥) رشيد رضا - علماء تونس ومصر - مجلة المنار الجزء الأول المجلد العاشر مارس ١٩٠٧ م ص ٧١ .

(٦) انظر على سبيل المثال رشيد رضا - المنار والأزهر - مطبعة دار المنار - مصر ١٣٥٣ هـ ص ٢١ و

٢٢ ما تحدث فيه عن الشيخ محمد البشير النيفر .

متفاوتة ، ولكن بشكل قطعي ، أن الخطر الاستعماري ماحق وأنه لابد من مواجهته عن طريق تغيير نوعي في الخطاب والمواقف السياسية .

يقول رشيد رضا مبينا الفروق العميقة بين نخبة تونس الزيتونية وبين علماء مصر الأزهرين : « ... هذان الوزيران (العزيز بوعتور ويوسف جعिका) من أشهر المتخرجين من ذلك الجامع .. كان (بوعتور) نابغا في العلوم العربية والدينية ويعد من طبقة أهل الترجيح في الفقه ، وكذلك وزير القلم الجديد وهو الشيخ يوسف جعिका فهو قد درس فيه ثم اشتغل بالسياسة وتقلب في المناصب حتى صار اليوم وزير العلم والاستشارة ، فهذان الوزيران قد دخلا باب السياسة وهما شيخان زيتونيان بكل معنى الكلمة - كما يقول الغربيون - حتى ارتقيا إلى منصة الوزارة فهل يخطر في بال أحد من مدرسي الأزهر أن يستعد لمثل ذلك حتى يكون أهلا للوزارة أو لما دونها من أعمال الحكومة ؟ كلا إن أحدا منهم لا يفكر في مثل هذا الاستعداد ولو فعله أحد لكان خيرا لهم وأشد تشييتا في العلم والدين »^(٧) .

إن الإعراض التدريجي عن مقولة ابن الجوزي وابن عقيل جعل منذ وقت مبكر رجال النخبة التونسية يقطعون مع العزلة التي غمرت علماء المسلمين في المشرق قرونا متوالية ، لقد أدركت النخبة في تونس خاصة والغرب الإسلامي عامة أن ظروف انعزال القيادة الفكرية الإسلامية عن القيادة السياسية قد ولت وانقضت ، لقد كانت المخاطر الأوروبية الماثلة والمحدقة خير حافز للتكامل بين الديني والسياسي بعد أن عاش العالم الإسلامي فصلا للدين عن الدولة بشكل فعلي ، فمنذ أن توفي أبو حنيفة في السجن وضرب مالك حتى شلت يده ومنذ أن التجأ الشافعي إلى مصر هربا من حاكم بغداد وعانى ابن حنبل من رجال الدولة الأمرين ، منذ ذلك الوقت ولعدة قرون أرسنت النخب المسلمة تقاليد « لائكية » الشكل قبل ظهور اللائكية الحديثة في الغرب الأوروبي .

هذه « اللائكية - الشكلية » ، ساهمت إلى حد كبير في جعل القيادات

(٧) المرجع السابق .

السياسية مستهينة في فعلها بالشرع لا تطلب من رجاله سوى التبعية المطلقة إكساباً لحكمها صبغة الشرعية ، وهو ما أدى في ذات الوقت بالنخب المسلمة إلى انفصال فعلى عن الحياة السياسية وسير أغوارها والإغراق في المسائل الفقهية الجزئية ومن ثم التشبث بالصورة التاريخية للحكم في فترته السالفة دون أى قدرة على إبداع صور جديدة للحكم مع ما يلزم من فكر سياسى ملائم .

في الغرب الإسلامى ، وفي تونس خاصة ، جرت الأمور في الفترة الحديثة المعاصرة في وجهة مغايرة وهذا ما يفسر إقبال النخبة التونسية على مشروع السيد جمال الدين الأفغانى الذى دعا في جانب رئيسى منه إلى إعادة اعتبار العلماء بإقحامهم في صلب الحياة العامة وتحولهم إلى القطب المناظر للسلطة السياسية ضمن البناء المجتمعى للأمة ، وهذا ما كان يعنيه حين كان يتحدث بمرارة عن « انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة »^(٨) .

هذا الاختيار التجديدى كان واقع النخبة التونسية قد مارسه فعلا طيلة القرن الماضى وهو ما مكن من إرساء عمل إصلاحى وتحرك نهضوى مبكر في القطر التونسى ، فهو الذى مكن للشيخ أحمد ابن أبى الضيف من اعتباره أن « الاجتهاد لا ينقطع »^(٩) وهو ما أتاح للشيخ بيرم الخامس (١٨٤٠ - ١٨٨٩ م) من تجذير الحركة الإصلاحية الكبرى للوزير خير الدين التونسى (١٨٢٠ - ١٨٨٩ م) وهو ما أتاح للمجلس الشرعى سنة ١٨٧٩ م من مطالبة الباي بمجلس للشورى لمقاومة الاستبداد « الذى لم ينزل الله به من كتاب »^(١٠) ، ولم تزد الحماية الفرنسية (١٨٨١ م) النخبة التونسية إلا إصرارا على تعميق وعيها ضمن حركة وطنية عقلانية متنامية . وهو ما جعلها ممتدة إلى الخمسينيات من هذا القرن في حين نجدها تراجعت في المشرق لتخلفها بعد وفاة الشيخ رشيد رضا أطروحات تقليدية في فكرها الدينى متصالحة مع التصوف في منهاجها التربوى ورافضة لكل

(٨) مجموعة العروة الوثقى المذكورة آنفا - مقال انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك ص ٣٣ .

(٩) الطيب العنانى - وثائق تونسية -- حوليات الجامعة التونسية - عدد ٤ سنة ١٩٦٧ م ص ١٥٣ - ١٥٥ .

(١٠) محمد الصالح مزالى - أحوال تونس قبل الاحتلال - الدار التونسية للنشر ١٩٧٢ م ص ٤٩ .

تجديد على مستوى فكرها السياسى والاجتماعى . وهو ما يمثل تراجعاً خطيراً بالنسبة لخطاب جمال الدين والأستاذ عبده ومجلتا العروة الوثقى والمنار شاهد على ذلك وبالتالي لخطاب التحرك النهضوى المتقدم فى الغرب الإسلامى مع ما يعنيه من تجاهل لتحديات العصر .

لقد قدم الأفغانى وعبده مشروعا إصلاحيا من جهة الخطاب وأشكال العمل التغييرى ، لكن تفاعل النخبة الإسلامية لم يكن واحدا معه ففى حين تجده يلتقى كل العناية والتطوير فى الغرب الإسلامى ، وتونس أفضل مثال على ذلك ، نجد أثره كان سلبيا إلى حد كبير فى المشرق العربى وهو ما يجب أن يراعى فى محاولة فهم ما يسمى اليوم « الصحوة الإسلامية » .

في نقد الأفغاني للغرب

قراءة في « رسالة الرد على الدهريين » :

بقلم الدكتور كمال عبد اللطيف

أستاذ بكلية الآداب - الرباط - المغرب

يحتل جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) مكانة متميزة في تاريخ الدعوات الإصلاحية التي برزت في القرن الماضي . وقد ساهم صحبة الشيخ محمد عبده في تأسيس تقليد فكري إصلاحي تطلق عليه تسميات متعددة ، منها النزعة الأصولية ، الدعوة السلفية ، تيار الجامعة الإسلامية والهوية الإسلامية .

ورغم الدور الكبير الذي لعبه الأفغاني في فجر الفكر الإسلامي المعاصر فقد ظلت تحوم حول شخصيته وخطاباته كثير من الشبهات خاصة وأنه قد جمع بين الالتزام العقائدي الإسلامي والممارسة الفاعلة في أكثر من بلد إسلامي حيث عاش في بلاد الأفغان والهند وتركيا ومصر كما عاش في بعض العواصم الأوروبية ، وكان يعرف في كل محطة من المحطات الجغرافية المذكورة أتباعا ومريدين ومجادلين ، مما يدل على قوة الشخصية التي كان يتمتع بها ، وقوة الدعوة التي حاول صياغتها ، كما حاول تجسيدها في الواقع .

نقرأ لأحد دارسي الأيديولوجية العربية المعاصرة ما يعبر عن قوة والتباس دعوة هذا المصلح .. « لم يكن الأفغاني عربيا ، وكان يحمل إلى العرب نتائج تجربة ميدان ثقافي آخر : ميدان مسلمي الهند وكان يتحدث إليهم قبل أن ينشغلوا فعلا بقضايا مستقبلهم وقبل أن يضطروا فعلا لمواجهة هذه القضايا ، وكان وهو العبقريّة الحقيقية يختصر بنظرة واحدة ما سيكشفه لنا بعد ذلك تاريخ نصف قرن ، مرحلة فمرحلة ، وكان تعبيره غامضا بالنسبة للمستمعين إليه لفرط ما يتضمنه كلامه من علم مسبق ، وقد نقل تلامذته المباشرون أفكاره لكنهم لم يفهموها البتة » . (عبد الله العروى) (الأيديولوجية العربية المعاصرة ص ٦٠) .

واضح مما سبق أننا أمام فكر يتبلور في لحظة تمزق تاريخي عنيف ، يتعلق الأمر بالتمزق الذي عرفه العالم الإسلامي في القرن ١٩ بحكم الهجوم الإمبريالي الذي حوله إلى مجال اقتصادي غير مستقل كما فكك بنياته الاجتماعية والسياسية .

ولم يكن التمزق الذي عرفه العالم الإسلامي مجرد تمزق اقتصادي اجتماعي حتمته الهيمنة الإمبريالية ، بل إنه كان أيضا هجوما ثقافيا حيث اكتسحت الثقافة الأوروبية العالم الإسلامي بموازاة انتقال الأسلحة والسلع والمواد الخام معبرة عن كلية التفاعل التاريخي اللامتكافئ الذي عرفه العالم وتسبب في ميلاد زواج من المفاهيم المتقاطعة من قبيل الشرق والغرب ، التأخر والتقدم ، الإسلام والنصرانية ... إلخ ، وقد حاول الأفغاني مع مجموعة من المصلحين المعاصرين له التعبير عن جدلية هذه اللحظة في تشابكها وتعددتها التاريخي .

(نذكر من معاصريه ممن حاولوا الإمساك بروح هذه اللحظة وتجسيدها أيضا الطهطاوي ومحمد عبده وفرح أنطون وأديب إسحاق وغيرهم) .

ومن هنا الطابع المتفعل لكل ما كتب الأفغاني ، فقد حاول بلورة عناصر في الرؤية الدفاعية التي تتطلبها وضعية مجتمع متأخر تاريخيا ، ومتأخر بفعل جبروت القوة العسكرية والاقتصادية والفكرية التي كانت تحملها أوروبا الطاغية والغازية (الوجه الإمبريالي للغرب الأوروبي) .

فالطابع السجالي الذي يطبع أهم ما كتب الأفغاني يندرج في سياق محاولته لمواجهة ونقد الهيمنة الأوروبية بكل أبعادها ومؤثراتها في الوجود التاريخي للعالم الإسلامي .

لقد خاطب الأفغاني في كتاباته مسلمي العالم قاطبة ، وحاول أن يحیی في نفوسهم الطابع الكوني لرسالة الإسلام .. كما حاول مواجهة كل الذين اعتقد أنهم يترصون قولا وفعلًا بعالم الإسلام فهاجم الاستعمار والمستعمرين ، وهاجم الدهريين والماديين ، ودعا إلى ضرورة إعطاء الاعتبار الأول من الحضارة الإنسانية للدين والقيم الأخلاقية .

نشر الأفغاني مؤلفاته في صورة خطابات ورسائل صغيرة ولعل أهم ما كتبه في

نظرنا هو « رسالة الرد على الدهريين » ورسالته في الرد على رينان وهى بعنوان « الإسلام والعلم » .

لا يعنى هذا أننا لا نعتز بأهمية نصوصه الأخرى من قبل « العروة الوثقى » ورسالته « القضاء والقدر » وشذراته التى جمعت تحت عنوان « خاطرات جمال الدين الأفغانى » فهذه النصوص تمتلك طعما مخالفا لطعم النصوص الأولى ، وهى تحدد مجال الكتابة الأفغانية فى مستوياتها المتعددة ، إننا نغض الطرف عنها ونتجه صوب ما نريد أن يشكل مجالا لنقدها لكتابة الأفغانى ، أى صوب المجال المؤسس لرؤيته وموقفه من الغرب .. ولعل رسالة « الرد على الدهريين » هى النص الممثل لهذا الموقف ، ولهذا فإننا سنقف عنده لنقدم محتواه ونحاور الأسس الفكرية المعتمدة فى صلبه .

فما هى الخطوة العامة لهذه الرؤية كما تقدمها رسالة « الرد على الدهريين » ؟ وكيف يتصور الأفغانى الغرب ؟ ثم كيف يفكر فى كيفية تجاوز المسلمين لأحوال تأخرهم ؟

يؤسس خطاب الأفغانى فى رسالة « الرد على الدهريين » موقفه من الغرب ومن أسس المعاصرة المتحققة فى حاضره ، كما يؤسس فى الآن نفسه أسس دعوته المتجهة نحو إعادة فهم الإسلام كاختيار حضارى قادر على منح المسلمين القوة والمنعة اللازمتين للحضور التاريخى المبدع والفاعل فى العالم .

لكن الأفغانى فى نقده للغرب ، وفى سعيه للتجديد الإسلامى كان يقدم اجتهادات تتعلق بتجربته الذاتية ، وتجربة الظرفية التاريخية التى تؤطرها وتصوغ لها الحدود والآفاق .

وقبل أن نقدم قراءتنا الخاصة لنص من نصوص هذه التجربة ، نريد فى البداية الإشارة إلى أهم محتويات هذه الرسالة . عسى أن تتمكن فى النهاية من إبراز الدور الذى لعبه الأفغانى وما زال يلعبه فى تأطير الفكر الإسلامى المعاصر ، عسى أن تتمكن ثانية من كشف محددات البنية العامة لهذا النص .

يقول منطوق مقدمة رسالة « الرد على الدهريين » أن الرسالة كتبت لتجيب

على سؤال يتعلق بمعنى الدهرية ، وكيفية مقاومة انتشار الفكر الدهرى ، ويكتب الأفغانى جوابه بالفارسية ، ثم يترجمه محمد عبده إلى العربية .

إلا أن قراءة متأنية لهذا النص الجوالى السجالى تجعلنا نقف على محورين أساسيين : محور يتعلق بنقد الدهرية ومحور يهتم بالتفكير فى الدين باعتباره البعد الحضارى المركزى ، فى كل حضارة إنسانية مستقبلية ، يعالج الأفغانى فى المحور الأول معنى الدهرية ومقاصد الماديين وغاياتهم ويوضح كيفية ظهورهم فى الشرق والغرب ، أما المحور الثانى فقد حاول فيه التحدث عن فائدة الدين ووظيفته مبرزا قيمة الإسلام المثلئ باعتباره أعظم الأديان .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الدهرى فى نصوص الأفغانى هو من يقصد « محور الأديان ووضع أساس الإباحة والاشترك فى الأموال والإبضاع بين الناس عامة » (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ١٢٩) .

يمكن أن نعتبر أن الرسالة تصوغ معادلة إصلاحية محددة فى طرفين رئيسيين ، طرفها الأول يقرر أن الدهريين جرثومة للفساد وطرفها الثانى هو الدين باعتباره قوام الأمم وبه خلاصها وسعادتها .

وفى سياق بلورة المعادلة المذكورة وتحليلها يتعرض الأفغانى وهو بصدد إقناع مخاطبة (المواطن الهندى الذى سألته والجماعة الإسلامية التى يههما الأمر) إلى مراحل من الفكر الدهرى الإلحادى من ديمقراطيس إلى داروين ، ولا يعنى هذا أننا نقرأ فى الرسالة عرضا منفصلا وموضوعيا لتاريخ الأفكار الفلسفية المادية قدر ما يعنى أننا أمام تاريخ مختزل موجه بغاية نقد التيارات الفلسفية الطبيعية والمادية دون معرفة وافية بأصولها ، ودون نقد يكلف نفسه عناء الاطلاع أولا على المبادئ والأصول النازمة لهذه التيارات .

لا يكتفى الأفغانى بنقد التيارات التى ذكرناها بل يضيف إليه فلسفة الأنوار والفلسفة السياسية التى شكلت الأرضية الموجهة للثورة الفرنسية ويعتبر أن الدعاوى الاجتماعية والاشتراكية التى عرفت أوروا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر تتجه فى مجملها نحو تحطيم أوروا وتحطيم الإنسانية ، بحكم المبادئ التى تعتمد فى منطلقاتها النظرية ومبادئها الأخلاقية .

أما بديل الدهرية في النص - وهو البديل الذي يحاول الأفغانى بناءه - فهو الدين وقد خصص له المصلح الداعية فصولا أبرز فيها فائدة الدين وفائدة الإسلام بالذات باعتباره أعظم الأديان ، وباعتباره مثالية الأخلاق التى ترتبط به .

وفى هذا السياق يتحدث الأفغانى عن دور الدين فى إكساب عقول البشر العقائد والخصال التى تقوم عليها الهيئة الاجتماعية أما العقائد فهى الحياء والأمانة والصدق ، أما المجتمع الذى يستطيع استثمار العقائد والخصال المذكورة فهو المجتمع الذى يكون بإمكانه مواجهة الدهرية والدهريين وبلوغ السعادة الإنسانية المنشودة .

وكما أشرنا سابقا فإن التحليل لا يعتمد منطق الحجاج الموضوعى المستوعب للأفكار موضوع الجدل ، بل إنه ينطلق من موقف رفض مسبق يحاول بلوغ غايات معروفة سلفا ، ومن هنا الطابع الأيديولوجى البارز لهذه الرسالة والأطروحات الظاهرة أو الضمنية التى تشير إليها .

نريد من تقديمنا المختزل لنص الرسالة أن نوضح بنية الرؤية السلفية الثانوية خلفها ، وقبل ذلك لابد من الإشارة إلى أننا نعتبر هذا النص بمثابة بيان للحركة السلفية المعاصرة ، إنه مفتاح تصورها للغرب ، وقد كان له صدى واسع فى مجمل الكتابات الإسلامية اللاحقة وإلى يومنا هذا ، إننا نعتبر أن بعض نصوص سيد قطب من قبيل « المستقبل لهذا الدين » ونص المودودى « نحن والحضارة الغربية » ، وكذلك نص الندوى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » كل هذه النصوص تغرف وتمتص من هذه الرسالة تستعمل منطقها فى الحجاج ، وتعيد استعمال مفاهيمها من أجل الغايات نفسها التى كتبت من أجلها ، وهو ما يدل على استمرار حضور خطاب الأفغانى ودعاويه فى النصوص الإسلامية السلفية الجديدة والمستجدة فى الساحة الإسلامية .

وتتضمن الرسالة كل خصائص البيان ، الإفصاح ، الدعوة ، الاستدلال المتصاعد فى اتجاه إقرار قضية بعينها ، إنها بيان يعكس موقف الحركة السلفية من الغرب فى زمن من الهيمنة الإمبريالية ويقدم مجادلة للتيارات الفلسفية المادية ، وهى فى الوقت نفسه تقدم قراءة أيديولوجية للتاريخ الإنسانى ولتاريخ الإسلام المعاصر .

لقد كتبت الرسالة لتقدم موقف الأفغانى من الفكر الأوروبى المعاصر ، إنها تنتقد الفلسفات المادية ، فلسفة الأنوار والفلسفة الداروينية وبعض التحركات الاشتراكية ، وهى تجادل كل التيارات المذكورة فى صورتها الأوروبية وفى صورها العربية ، المتمثلة فى التيارات الفكرية الليبرالية التى عرفها العالم الإسلامى منذ القرن التاسع عشر فى إطار المثاقفة التى حصلت فى مرحلة التغلغل الإمبريالى (نقصد هنا نقده لفكر شبلى الشميل) .

صحيح أن نقد الأفغانى للتيارات التى ذكرناها لا يعبر عن فهم تاريخى موضوعى لهذه التيارات ، إلا أنه يقدم موقفاً أيديولوجياً منها ، أى يقدم ما يمكن اعتباره موقف الحركة السلفية من الغرب ومن الأسس الفلسفية المعاصرة كما تبلورت فى تاريخه المعاصر .

ولا يكتفى الأفغانى فى رسالته بالنقد بل إنه يحاول صياغة بديل يعتقد فى قدرته على مواجهة النزعات الإلحادية ، يتعلق الأمر بنزعة دينية .

التعريب وصلته بوحدة الأمة عند الأفغانى

بقلم الدكتور أحمد بن نعمان

سئل أحد تلامذة المدرسة (الأفغانى) فى الجهاد والإصلاح عن عدم اهتمامه بتأليف الكتب .. فأجاب قائلا : إننى أجاهد من أجل تأليف الرجال الذين يؤلفون الكتب .

فما أصدق هذه العبارة فى الواقع وما أكثرها تطابقا على حياة الأستاذ الذى أنجب هذا التلميذ .

وإذا سألت عن التلميذ فهو عبد الحميد بن باديس ، أما الأستاذ فلا يحتاج إلى تعريف ، وإن بدا للبعض أنه فى حاجة إلى تقويم !

ولا أنكر أننى أشفقت على نفسى عندما تشرفت بدعوة الشرق الأوسط الكريمة للمشاركة فى عملية التقويم لهذا المجاهد العظيم ، الشاهد على قرنه الماضى والحاضر معنا بروح جهاده فى هذا القرن المشرف على الاحتضار .. ولقد كان منشأ هذا الإشفاق على النفس عائدا إلى عدم قدرتى على جعل الجزء يستغرق الكل ، أو جعل الفرع يستغرق الأصل . ولكن أخذا بمبدأ « ما لا يدرك كله قد يدرك بعضه » واقتناعا بأن رجلنا من ذلك الطراز النادر من الشخصيات المتعددة الجوانب العميقة الجذور ، الوارفة الظلال ، المتنوعة الثمار ، التى يتطلب كل فرع منها كتابة المجلدات من مؤلفى الكتب فضلا عن تحرير بضع صفحات من كتاب المقالات .

ومن هذا المنطلق حاولت أن أنتقى جزءا أو فرعا من هذا الكل المتراعى الأطراف لأتخذ منه مجالا للتقويم المطلوب فى الشكل المرغوب ... وهذا النوع المنتقى هو الجانب الإستراتيجى لجمال الدين الأفغانى كباعث ومجدد لأمة محمد ﷺ حسب الأسس العلمية للأمم القوية الجديرة بالبقاء فى عالم الأحياء .

ولتحقيق هذا الغرض المطلوب أريد أن أخرج عن التقليد المعهود فأستكتب

جمال الدين لأجعله يقدم نفسه ويقوم جهاده للسادة القراء ، وهو في ذلك - كما أعتقد - أصدق وأنصح معرب عن فكره منى وفي الوقت نفسه أضمن لي وأريح للقراء ، وأؤكد للحقيقة بأن ما نقدمه من تقويم هو أبعد ما يكون عن أى إجحاف أو مبالغة وأقرب ما يكون إلى الواقع الناصع الذى جاهد فيه الرجل ، وقدم حياته فداء له ، فكان « سقراطا ثانيا » فى التاريخ فى هذه الناحية .

وقبل أن أترك القلم لصاحب الشأن كى يقدم فكره حول هندسة الوحدة المفقودة والمنشودة للأمة المحمدية المعهودة ، تجدر الإشارة إلى أن جمال الدين كان أول من أدرك ضرورة تأصيل الإسلام فى العرب ونشر العربية فى المسلمين ، إدراكا منه - كما سيتضح - بأن بقاء الأمم القوية فى التاريخ ، يتطلب بالضرورة عاملين اثنين يعلوان فوق كل العوامل وهما عاملا قوة الإيمان الدافع ، ووحدة اللسان الجامع .

فلا وجود للمسلمين بدون قوة الإيمان ووحدة الأوطان ، ولا حضارة لهم بدون وحدة اللسان المعرب عن ما فى الوجدان ، والمكسر للحواجز المصطنعة بين الأوطان ، فمن هذا القانون الحضارى يقيم أستاذنا البرهان فيقول بالحرف الواحدة: « إن الأمم المحكومة إذا يسر لها المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ ، ولم تستحل وتنحل فى غير عنصرها ، فهى أقرب الناس للفرص ، وأعلق الخلق بإعادة مجدها وتجديد إعادة سيرتها الأولى ، ولن تنهيا أشد العوامل عن المطالبة بها » .

وحدة اللسان :

وبعد أن وضع هذا القانون العام الذى لا بد منه لقيام الحضارات وبقائها والمتمثل فى وحدة المعتقد ووحدة اللسان ، المعبر عنهما فى النص بالجامعات المتكاملة والمتفاعلة فى التاريخ ، وبالتاريخ كعنصر ثالث يرمز ويحافظ على سيرورة بقاء الأمة فى بوتقتها الثقافية الصاهرة .. يستنتق على صحة قانون البقاء هذا فيقول فى مكان آخر : « هذه شبه جزيرة البلقان التى افتتحها العثمانيون وبقيت فى حوزتهم وتحت سلطانهم الأجيال فماذا أحدثت فى تلك الممالك من آثار العمران ؟ .. وإذا كان الجواب « لا شئ » حينئذ يضطرنا الإنصاف إلى أن نقول : إن الدولة العثمانية فى فتوحاتها ، وما شاهدناه من تفریطها لم تكن لتحسن

الاستعمار بل بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مدنيتهما وعلومها وصنائعها .

شعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون على السبعة عشرة مليوناً ، ولكل أمة ومملكة جامعات ومميزات من تاريخ ودين ولسان وعادات وأخلاق ، وهى فى كل هذا على طرفى نقيض مع العثمانيين الأتراك ، فلو أخذت الدولة (العثمانية) بالحزم بعد الفتح ، وعملت بصائب الفكر والرأى ، لعلمت أن بقاء تلك الممالك (البلقانية) فى حوزتها يحتاج لإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها ، افتعدها إلى وسائل تعميم لسانها بإحداث دور علم وغيرها ، حتى إذا استطاعت أن تعمم لسانها ، كان لها أحد العوامل الكبرى للبقاء ولعدم سرعة الانفصال والتفكك ، إذ يكون أترك باللسان مثلاً أو بالدعوة الدينية كما تفعل اليوم دول الاستعمار بيث المبشرين ... فإذا انتشرت الدعوة الدينية وقبلتها الأمة المستعمرة ، اشتركوا بجامعة ثانية وهى اللسان والدين ، فكان الارتباط أشد وأوثق .. أما الدولة العثمانية فلم تفعل فى ممالك البلقان ما ذكرنا ولم تفكر فيه فضلاً عن أن تسعى إليه ، فكان خروج تلك الممالك من حوزتها واستقلالهم أمراً محتماً وقوعه .. » .

ونجده فى مكان آخر من استشهاده المفعمة يذكر بلداً من ممالك البلقان ، أصبح « نموذجاً فيما بعد » ليتخذ منه الحجة على ما يقول ، فيستدل أستاذنا ببلغاريا ، تلك الدولة الشيوعية « القومية » التى ضربت الرقم القياسى - حالياً - فى استئصال جذور التوحيد ليس من قلوب وأذهان وألسنة الموحدين من أبناء وطنها (من غير أبناء ملتها) فحسب ، بل حتى من أوراق بطاقات التعريف (الوطنية) بتغيير الأسماء الإسلامية للكهول والشيوخ ، فضلاً عن المواليد الجدد كما هو معلوم وجار به العمل منذ سنوات على مرمى ومسمع من العالم الصليبي الحر وغير الحر .

سبب الضياع :

فمن هذا البلد النموذج يقول مهندس وحدة أمتنا الضائعة أو (المضیعة) بعبارة أدق ، ما نصه : « افتتح السلطان مراد الثانى بلغاريا سنة ١٣٨٢ هـ . وبقيت تحت حكم العثمانيين وفى حوزتهم نحو من أربعة أجيال .. ولم يفقد

البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلا مع العثمانيين ، وماذا فعلوا مع البلغار في مدى تلك الأجيال ، وأى أثر تركوا في بلغاريا ؟ لا شيء ... بلى ... تركوا لهم جامعاتهم الكبرى (أى مقومات وحدة أمتهم) من دين ولسان وتاريخ يسرون مع الحضارة والمدنية مع السائرين ، وحكامهم الأتراك من القاعدين » .

وبعد أن وصف لنا الأستاذ ما كان سببا للزوال والضياع لأمتنا في تلك البقاع ، نجده في مكان آخر يحدد لنا ما كان ينبغي أو يجب أن يكون عليه المسلمون ، وهو ما يهمننا أن نركز عليه الحديث في هذا المقام لكونه متعلقا بما هو حاضر وما هو آت أو مستقبل من أيام أمتنا ذات العلل والصدمات .. فيقول في هذا السياق : « لننظر في فتوحات الدولة (أى العثمانية) للممالك الإسلامية ، من مصر والشام فحلب فيغداد وتونس ، وسائر الممالك العربية فنها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب ، وكان للجامعة الدين التأثير العظيم في قبول الحكم العثماني ، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح أو السلطان سليم بأن يتخذ اللسان العربي ، وهو لسان الدين ، لسانا رسميا وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك لكانت في أمن قوة وأمن حصن من الانتفاض والخروج عن سلطانهم ، ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتترك العرب وما أسفها سياسة وأسقمه من رأى لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامي على جهل باللسان العربي جعل له في القلوب منزلة ، ساقط وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين .

فما قولك لو تعربت ، وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية وزال داعي النفور والانقسام بين الترك والعرب ، وصاروا أمة عربية بكل ما في اللسان من معنى ، وفي الدين الإسلامي من عدل ، وفي سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفي مكارمهم من عادات .

لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل همام ، مثل الفاتح أو السلطان سليمان ، أو سلطان سليم غير عسير ، ولكن مع الأسف ، عدم قبول فكرة السلطان الفاتح أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربي خطأ بين لا يضارعه إلا

توغل العثمانيين في أوروبا وشبه جزيرة البلقان ، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة » .

خطأ إستراتيجي مبيت :

ويؤكد هذا الخطأ الإستراتيجي المبيت والمقلص لظل آخر دولة للخلافة على يد أحد أبنائها (القوميين) كنتيجة حتمية للخطوة الأولى التي خطاها بعض (الأسلاف) فيقول ما نصه : « لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضيع في خلوات عديدة ، فكان يسمع بكل إصغاء ولكنه في النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له ، وفهمت من أوضاعه وأسارير وجهه ، أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربى ، وفكرة الفاتح والسلطان سليم ، بذلك صوابا ، وكذلك لا يجب أن يعترف أن توغله في أوروبا وفتح جزيرة البلقان كان خطأ » ، ثم يورد الحجج الدامغة والناطقة للبرهنة على نفاذ بصيرته (وشديد أسفه) عن ضياع ، بل تضييع وحدة الأمة المحمدية في جغرافيتها (وثوابتها الطبيعية) فيقول : « فلو أنصف الأتراك أنفسهم وأخذوا بالحزم واستعربوا وترأسوا ذلك الملك وعزلوا في أهله وجروا على سنن الرشيد والمأمون - على الأقل - ولا نقول ، على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين ، فمن كان من دول الأرض أغلى منه مملكة ؟ أو أعز جانباً ؟ وأمنع حوزة منه ؟؟ ولكن مع الأسف ، أن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير (الحرب) وهم فيما عدا ذلك وفي ما يختص بشؤون العمران ، أقل روية وعملا من سواهم يسوؤنى وأنا ممن يحبهم ، وتأثر كلما افتركت بما ارتكبه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربى ، لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ، باللسان التركى !! ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بمجاذبات أمة بدوية ، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ أو منشورا يفهم أو بيانا يترجم عن جنان .. فكيف يعقل تتريك العرب وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل من أعز الجمامعات وأكبر المفاخر ؟ .. وهذا الأمر من الواضح والظهور للعيان ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان » . ويؤكد هذا المعنى في

مكان آخر بقوله : « لا جامعة لقوم لا لسان لهم ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحى آثار رجال تاريخها » .

أمثلة حية :

ويتخذ الأستاذ أمثلة حية من عدم نجاح أى استعمار لأية ديار فى العالم إذا لم يتمكن من صهر المستعمرين عقيدة ولسانا فيقول : « إذا كان هذا العدل لا يوافق أذواق المتفقيين معهم فى الجامعات السابقة (ويقصد هنا مقومات الأمة التى تجمع إنجلترا بإيرلندا من دين ولغة وثقافة مع اختلاف فى المذهب الدينى فقط) فكيف ترجى ملاءمته لأذواق الذين لا نسبة بينهم وبينهم ، ولا صلة تجمعهم معهم ، لا فى لغة ولا جنس ولا دين ؟ ! » .. إلى أن يضيف فى مكان آخر قوله : « هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادى ، أما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الجوامع التى تجمع الشتات وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر ، فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل كل ما سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد ما شاء الله » .

وكم يصدق هذا القانون (الأفغانى الربانى) عندما نطبقه على واقع بلاد المسلمين فتجد - مثلا - أن بلاد الموحدين ، فى مغرب شمس الله (أقصد بلاد المغرب الإسلامى الناطق بالعربية) كادت تصبح أندلسا ثانية على يد الغاصب (الفرنسى) فى القرن الأخير ، لولا استماتة أهل تلك الديار العربية فى المحافظة والدفاع عن اللسان المرتبط بالأذان ! وأثبت ذلك التمسك بالجهاد المعروف ضد استبدال القلوب والعقول بالحروف ، إنه إذا أمكن أن يوجد فى الدنيا (مسلم فرنسى) أو (عربى مسيحى) فإن منطق المنطق لا يقبل وجود (عربى فرنسى) أو (مسلم مسيحى) فى تلك الديار العربية ، فهنا تكمن القضية وللحديث بقية ، عما يجرى وراء الستار من دسائس الاستعمار الذى خرج بالحديد والنار وفى نفسه شئ كثير (من الحقد) على الكبار من أهل الديار فهذا ما يجعل قانون جمال الدين الأفغانى صالحا لحاضر ومستقبل الأتحلاف ، كما كان صالحا لسائر الأسلاف ..

لصالح من نهاجم رواد الفكر الإسلامى ؟

الدكتور زكريا سليمان ييوى

استاذ التاريخ الحديث - كلية البنات - جدة

تعود جريدة « الشرق الأوسط » لتفتح ملف السيد جمال الدين الأفغانى بعد مرور عدة سنوات على تعرض الرجل لهجوم شديد من الدكتور لويس عوض فى صحيفة « الأهرام » المصرية وقيام العديد من الأساتذة بالرد عليه فى حينه .

ولا شك أن الهدف من إعادة فتح ملف الأفغانى الآن هو تلمس العوامل الإيجابية والسلبية فى الإطار الذى جاهد الأفغانى لتحقيقه وتحمس له تحمسا زائدا وهو السعى لتوحيد المسلمين من خلال فكرة الجامعة الإسلامية وما يمكن أن تفيده هذه التجربة لحاضرنا العربى والإسلامى وبخاصة بعد أن أقدمت الكيانات السياسية العربية على الدخول فى أشكال وحدوية ومحاولة الكيانات السياسية الإسلامية البحث عن حلول لبعض مشكلاتها أو وضع أطر لالتقاءها أو تفاهمها أو اتحادها من خلال المنظمات الإسلامية .

وبداية ينبغى أن نضع أيدينا على حقيقة مهمة هى أن الإطار الأسمى الذى وهب الأفغانى حياته له وكافح وسافر وتشرد وتهرب وتعذب فى سبيله يعد المحور الأساسى لحمولات الهجوم التى تعرض لها فى حياته وبعد وفاته وطوال المائة سنة التى أعقبت وفاته حتى الآن ، وبالتالى يمكن القول بأن المعادين لفكرة وجود اتحاد إسلامى هم المصدر الأساسى الذى حاول وضع العقبات أمام دعااته الذين كان من أبرزهم جمال الدين الأفغانى سواء أكان ذلك من منطلق مذهبى يتمثل فى بعض الكتاب أم من منطق يعادى الوحدة الإسلامية دينيا وسياسيا كالإنجليز إلى جانب بعض القوى السياسية التى أدركت - لقصر نظرها - ضياع هيتها ومكانتها فى الكل الإسلامى كحكاه مصر من أبناء محمد على مثل الخديوى توفيق وابنه الخديوى عباس حلمى الثانى ، ولهذا تتركز مصادر الهجوم على الأفغانى على

مصدرين أساسيين هما الكتاب الذى ترجمه الدكتور عبد التّعيم حسنين وهو بعنوان « جمال الدين الأسد أبادى المعروف بالأفغانى » وهو مؤلف إيرانى اسمه ميرزا لطف الله خان الذى قال إنه ابن أخت جمال الدين وهو أمر لم يقم عليه دليلا .

أما المصدر الثانى فهو الوثائق البريطانية التى اعتمد عليها وسار خلفها دون تمحيص كثير ممن أرادوا - لسبب أو لآخر - الهجوم على الرجل والتقليل من شأنه ومن شأن الأفكار التى نادى بها من أمثال الدكتور لويس عوض .

تهمة الإثارة :

أما الكتاب الذى صور فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى وبواعز منه للهجوم على الرجل وهو بعنوان « تحذير الأمم من كلب العجم » وحمل اسم مؤلفة أطلقت على نفسها « الحرة الى لسانها خارج ليه خادمة الوطن والدين والغيورة على المسلمين الست المصونة والجوهره المكنونة حمارة منيتى » ، وقد ارتكزت أفكار هذا الكتاب فى مهاجمة الأفغانى على اشتغاله بالفلسفة وإثارة الشعوب وهو أمر يوضح دور الخديوى فى هذا الهجوم ، كما يؤكد هذا الدور أيضا صدور كتاب آخر باسم المؤلف نفسه فى مهاجمة الشيخ محمد عبده أقوى تلاميذ الأفغانى وأقربهم إلى حمل أفكاره بعنوان « كشف الأستار فى ترجمة حياة الشيخ الفشار » ، على أن ما ينبغى توضيحه أن هذه الكتب لم تتعد فى هجومها على الأفغانى الغرض المؤقت الذى كان يهيم الخديوى بل إنها قد أقرت بقدرته ونشاطه فى خدمة الفكرة الإسلامية ، ولهذا فإن هذه الكتب لم تصبح مصدرا ثالثا لمن حاولوا الهجوم عليه وعلى دوره الإسلامى بعد ذلك .

ونعود لمناقشة المصدر الأول وهو كتاب « جمال الدين الأسد أبادى المعروف بالأفغانى » والذى يسند لمؤلف إيرانى هو « ميرزا لطف الله خان » وقام على ترجمته للعربية الدكتور عبد التّعيم حسنين وصادق نشأت ، والذى يعد المصدر الرئيسى لعدد من جوانب الهجوم التى اعتمد عليها الدكتور محمد حسين فى كتابه « الإسلام والحضارة الغربية » واعتمد عليها أيضا الدكتور لويس عوض فى كثير من حلقات الهجوم التى شنّها على الرجل .. وبداية نذكر أنه لا يوجد أى

دليل على أن ميرزا لطف الله خان ابن أخت السيد جمال الدين أو أنه حتى هو نفسه مؤلف هذا الكتاب ، ولو استطرنا في وضع الفروض حول هذا الكتاب لتساءلنا ما هو هدف المؤلف من الهجوم على خاله ؟ هل هو البحث والموضوعية ؟ إن من يقرأ ترجمة هذا الكتاب يجد أنه قد ساد الانفعال والبعد عن الموضوعية ، وأنه في مجمله قد حشد العديد من السوءات التي ألصقها بجمال الدين دون أن يقيم الدليل على أغلبها وجرّد الرجل (خاله) من أى عمل طيب مخالفًا بذلك كثيرًا من كتاب العربية والتركية ممن أدركوا عن قرب دور الرجل ونضاله ، والمرجح أن يكون هذا الكتاب لبعض أعداء جمال الدين وهم كثيرون ، وقد جمعت لهذا الكتاب العديد من المعلومات الدقيقة حول حياة الرجل وتحركاته وعلاقته بكثير من القوى السياسية التي وقفت منه موقف العداء ، ووضع عليه بعد صياغته اسم ميرزا لطف الله خان الذى من الممكن أن يكون ابن اخته فعلا لكنه لم يكن مؤلف الكتاب فى الغالب .

وبصفة عامة فإن من يراجع كتب التاريخ الإيراني يجد فيها النزوع إلى إسناد الإيرانية لعظماء التاريخ بشكل أسطوري ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد ادعى الملك دارا الكبير وهو من أكبر ملوك الأسرة الأناشية فى إيران أن أم الإسكندر الأكبر المقدونى قد أهديت إليه كجارية من أحد ملوك اليونان ثم عاشرها ثم غضب عليها وأعادها إلى بلادها ، وكانت قد حملت بالإسكندر الأكبر ، وبالتالي فإن مجيء الإسكندر الأكبر وحروبه مع إيران إنما كانت لرغبته فى الانتقام لأمه المطرودة ، وإنه إذا كان قد هزمهم فإنه إيراني الأصل ، كما ادعى بعض الكتاب الإيرانيين أن سليمان بن داود عليه السلام ما هو إلا جمشيد الملك الإيراني القديم الذى استطاع بسلطانه أن يسخر الجن والنور فى صناعة محفة تحمله فى الهواء .. ومن جهة أخرى ، فقد هاجم بعض الكتاب الإيرانيين السلطان محمود الغزنوى لمجرد أنه كان لا يعرف اللغة الفارسية وبالتالي لم يفهم أو يعرف شاعر الشاهنامه إلى غير ذلك .

وهذه أمور يمكن أن تدلنا على أسباب هجومهم على السيد جمال الدين وتأکید نسبه الإيراني ومذهبه الشيعى ، فى حين أن بعضهم قد أشار إلى أصله الأفغانى قبل أن يشتهر أمره ويذيع صيته .

وإذا كان البعض قد استند إلى كون جمال الدين شيعيا ولم يكن سنيا وإيرانيا ولم يكن أفغانيا على الإمامة باللغة الفارسية منذ صغره وأنه كان يزور المناطق المقدسة عند الشيعة ويفهم فهما جيدا للمذهب الشيعي ، فإن الإمامة باللغة الفارسية لا يعد دليلا على أنه إيراني وليس أفغانيا حيث يطلق بصفة عامة على شعوب هذه المنطقة الشعوب الناطقة بالفارسية فضلا عن أن جزءا كبيرا من بلاد الأفغان قد خضع لسيادة إيران إبان بعض فترات الصراع بين روسيا وإنجلترا على محاولة بسط نفوذها على أفغانستان ، إلى جانب أن جمال الدين قد ألم بالعديد من اللغات كالتركية والعربية .

أما عن كونه سنيا وليس شيعيا فبداية نوضح بأنه ليس محرمًا على المسلم المنى أن يدرس مذهب الشيعة ويلزم به أو أن يزور المناطق المقدسة الشيعية أو أن يلتقي بزعماء الشيعة وعلمائها ، بعد ذلك نوضح أن من أهم الدلائل على كون الرجل كان سنيا وليس شيعيا هو أنه قد طاف بعديد من البلاد الإسلامية التي تدين المذهب السني ، وكان يقصد أول ما يقصد علماء الدين ، وكان عدم تمكنه من لقائهم من الأمور التي تثير غضبه كما حدث في الهند حين حال الإنجليز بينه وبين علماء الدين المسلمين هناك ، لم يكن من السهل عليه أن يندمج فيهم أو يناقشهم أو يستجلب تأييدهم لو كان غير سني المذهب وخاصة أنه قد مر بمراكز علمية كبيرة في مكة المكرمة وفي الأزهر في مصر وإذا كان البعض قد عارضه أو هاجمه في هذا الميدان فلأنه كان قد توسع في علم الكلام والتبحر في الفلسفة ولطرقه لعديد من الآراء الجديدة والفتاوى الجريئة كونه كون مجرد هوجم في بعض جوانب فكره كما كان لتلميذه الشيخ محمد عبده ، وقد نجح الرجل في إصدار العديد من الدوريات تناولت جوانب في العقيدة تعلم منها الكثير من علماء السنة وليس من السهل على شيعي أن ينجح في هذا الأمر مهما كانت دراسته عن السنة .

الوثائق البريطانية :

ننتقل إلى مناقشة المصدر الثاني الذي يستند إليه المهاجمون للسيد جمال الدين الأفغانى وهو الوثائق البريطانية ، وفي البداية لماذا يصر كثير من الكتاب والمؤرخين

المسلمين على أن يجعلوا من الوثائق البريطانية والأجنبية بشكل عام تابوتا عظيما في معبد المصادر عند كتابة تاريخنا الإسلامى الحديث والمعاصر ؟ ومع أننى لا أقصد بذلك إهمال الاطلاع عليها أو حتى التقليل من أهميتها إلا أننى - كواحد من المؤرخين - أؤكد أنها فى مجملها تعكس وجهة نظر أصحابها ورؤياهم السياسية للعالم الإسلامى وتمتلىء بالتناقض والتآمر والتدبير والتلفيق ، ويبدو ذلك واضحا فيما رصدته هذه الوثائق للسيد جمال الدين وكتبه - نقلا عنها - كالدكتور لويس عوض ، حيث أكدت فى جانب منها جاسوسية جمال الدين للإنجليز ثم عادت لتنفى هذا وتؤكد جاسوسيته للروس مما اضطر الدكتور لويس عوض أن يذكر أن عمالة الأفغانى للروس لا دليل عليها إلا فى الوثائق البريطانية تؤيدها ببعض تصرفاته الغامضة المريبة ، ولكن معرفتنا الاستعمار البريطانى تدلنا على أن الإنجليز كالأمريكيين اليوم كانوا يصفون كل زعماء الحركات الوطنية بالشيوعية أو بالعمالة للروس ولذا وجب أن ننتفع من الوثائق البريطانية باحتياط شديد وأن ندرس ما تسرده من وقائع دون أن نقبل ما تنطوى عليه من أحكام وأوصاف وتقديرات .

أما عن انتهاء جمال الدين للمحافل الماسونية فقد خدعه فى البداية بريق شعاراتها فى وقت لم تكن قد وضحت فيه حقيقة أهدافها فيقول عن ذلك : « إن أول ما شوقنى للعمل فى « بنائة الأحرار » عنوان كبير هو « حرية ومساواة وإخاء » وأن غرضها هو منفعة الإنسان والسعى وراء ذلك صروح الظلم وتشديد معالم العدل المطلق ، إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بناء حر ، وإذا كانت آلات البناء التى بيدها لا تستعمل لهدم صرح الظلم والعتو والجور فلا حملت يد الأحرار مطرقة ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة » .

ولهذا فقد انضم جمال الدين الأفغانى إلى محفل كوكب الشرق فى مصر والذى كان تابعا للمحفل الأكبر فى إنجلترا ، وانضم معه تلميذه الشيخ محمد عبده ومحمود سامى البارودى وبمجموعة كبيرة من مشايخ الأزهر ، وبعد أن تبين له حقيقة هذه المحافل نفى يده عنها ومعه تلميذه محمد عبده ، ولم يعلن خروجه عليها خشية الاصطدام « بكيد وكلاء الدول وجواسيس الحكومة » .

بعد ذلك ينبغى أن نوضح أن السيد جمال الدين الأفغانى قد أخلص فى

دعوته لفكرة توحيد المسلمين التي عرفت بفكرة الجامعة الإسلامية وأنه إذا كان قد ووجه بعقبات وضعتها الحكومات في البلاد الإسلامية وفي تعقب الإنجليز له خشية أن يثير عليهم الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم ، وفيما أثاره بعض المفكرين من دعاة القومية أو من المنتمين للأقليات الدينية التي تعيش في العالم العربي ، فإنه برغم كل هذه العقبات قد لقي ترحيبا وتقديرا لدى أغلب الشعوب الإسلامية وأن استمرار هذا التقدير لدور هذا الرجل سيظل يوحى لجميع الكيانات السياسية في العالم الإسلامي بضرورة السعي لتحقيق أمانيتهم في الوحدة والترابط ، ومنذ الآن وحتى يتحقق ذلك وبعده يبقى جمال الدين رائدا من رواد الفكر الإسلامي الحديث وأن الهجوم على دوره إنما هو محاولات لتشويه الإطار الذي سعى لتحقيقه .

ولهذا نسأل الذين يسيرون في هذا الدرب لصالح من نهاجم روادنا ومفكرينا؟؟

صلة الأفغانى بالماسونية تجربة اجتهادية غير موفقة

بقلم الدكتور حامد بن أحمد الرفاعى

الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

أحسب أن الحديث عن الشيخ العلامة جمال الدين الأفغانى وغيره ، يأتى تلبية لحاجة الأجيال إلى معرفة تاريخها ، وحاجتها لعوامل الثقة التى تربطها بهذا التاريخ ، ومأساة الأفغانى مع بعض أبناء أمتة التى قاوم من أجل رفعتها وكافح فى سبيل استئناف مسيرتها الحضارية دليل بين على حالة الاضطراب التى عاشتها وتعيشها أجيالنا وهى تقوم الحدث والموقف والشخصية فى إطار بنيتها التاريخية .

إن علة الاضطراب والبلبله عند البعض فى تقويم شخصية ومنهج العلامة جمال الدين الأفغانى ، يعود لأمر واحد ، هو عدم استيعاب هذا النفر لظاهرة التكامل الثقافى التى تفرد بها هذا الداعية فى زمانه ، وقد وهب من فضل الله نعمة غير عادية فى التكوين الشخصى من أبرز علاماتها ذكاء خارق ، وذاكرة حافظة متميزة ، وقدرة متفوقة على استحضار مخزونه العلمى والثقافى ، وكفاءة بارعة فى البيان والتعبير ، وأسلوب أخذ فى التأثير والإقناع ، يرفد ذلك مكتسبات علمية من أولها وأبرزها حفظه المبكر للقرآن الكريم ، وتبحره فى علوم القرآن والسنة ، وإحاطته فى العلوم الشرعية المتنوعة وطول باعه فى علوم الاجتماع والفلسفة وعلوم الكون فى الفلك والطب والكيمياء وغيرها واتساع معرفته وإتقانه لعدد من اللغات مثل العربية والبشتو والأردية والفارسية والتركية والإنكليزية والفرنسية والألمانية ، كما تميز بصلات اجتماعية وسياسية واسعة إقليمية ودولية فاقت كل تصور ، حيث أصبح بهذه المقومات المتكاملة موضع تنافس ومطمع عند بلدان إسلامية متعددة ، تتسابق على استمالته واجتذابه من خلال ترغيبه باتخاذ مواقع سياسية قيادية ، وتبوء مواقع قيادية تربوية وإصلاحية على أرفع المستويات ، وقد تكرر ذلك فى أفغانستان وإيران وتركيا ومصر ومثل ذلك فى الحجاز والعراق ، كما لجأت إليه

جهات دولية تطلب إليه المساهمة في حل معضلات إقليمية ودولية ثقة بكفاءة قدراته ومهاره تحركاته .

وهكذا فرض هذا الرجل الفذ انتماؤه السياسي والوطني على أكثر من بلد عربي وإسلامي ، وفرض ثقله السياسي على الأحداث العالمية وموازاناتها ومعادلاتها في عصره ، من بريطانيا إلى فرنسا وروسيا وأمريكا .

أجل إن عدم استيعاب البعض لأبعاد هذه الشخصية المتميزة التي كان لها السبق المبكر في تجديد عالمية فكرة الإسلام ، وتجديد شمولية منهج الإسلام ، وكان لها السبق المبكر والجاد لفهم قضية الأمة الإسلامية وأهمية حشد الطاقات والإمكانات الإسلامية لها في كل مكان وقد أدرك أن هذه القضية أكبر وأجل من أن يتصدى لخاظرها وينهض بأعبائها وتكاليفها أمة مريضة ينخر في جسمها كثير من عوامل الفرقة والانقسام ، وتقتصر معها إلى من يبعث ويستثمر فيها أسباب المنعة والقوة وأسباب الصحة والعافية ، يرافق ذلك كله إدراكه المبكر والواعي لأهمية الأبعاد الدولية في علاج القضايا الإقليمية المؤهلة لخوض غمار التعامل مع تضاريس الموازنات الدولية ومعادلاتها الصعبة والدقيقة .

نعم إن عدم استيعاب البعض لهذه الشخصية المتميزة بشمولية في الثقافة وفي الفهم ، وفي فن ممارسة الحق ، حيث غطت كفاءاته وقدراته مساحات ودوائر الأحداث الإقليمية والعالمية في عصره وقد عاشها بجدية وحضور فعال .

لذا فإن الفرق كبير وكبير جدا في كل زمان ، بين من انفرجت أمام بصيرته رؤية مساحات دائرة الفهم والعمل فبادر لخوض ميادينها ، وبين من حصرت إمكاناته المتواضعة في قطاع محدود من تلك الدائرة لا يرى ولا يفهم إلا ما انحصر بين خطي الزاوية الحادة لذلك القطاع ، متخذاً من ذلك معياراً ومقياساً يقوم به الآخرين ويحكم بموجبه على أحوالهم وأفعالهم فيكون حكمه كما جاء في حق هذا العملاق حكماً تعسفياً مضطرباً .

ولا أدل على استقلالية جمال الدين الأفغاني فكرة ومنهجاً ، واستقلالته تصوراً وموقفاً ، من استعمائه على كل محاولات استمالته وترويض ولائه من قبل كل الجهات التي تعامل معها عربياً وإسلامياً ودولياً ، فكانت خصومته ومحاربه مع الجميع ،

يطرد من بلد إلى آخر حتى انتهى به المطاف في إسطنبول ، وقد أخرج منها أكثر من مرة لتنتهى حياته فيها نهاية تنبئ عن عظم المحنة التى كان يواجهها هذا الداعية المجدد وقد بتر فكاه واستوصل لسانه ، فوئد بيانه واغتيلت حجته قبل أن تغتال حياته .

وبالمقابل لابد من الإشارة إلى أمر يللمسه بسهولة كل متبع لطبيعة شخصية هذا الرجل ، وهو حدة مزاجه وعنفوان مواقفه ، وإصراره على فرض تصوراتهِ جملة وتفصيلا ، الأمر الذى أزم المواقف مع جميع من تعامل معهم ، وأفقده فرصة أحسبها كانت متاحة له فى توجيه المواقف واستيعاب الصعب منها بمرحلية إصلاحية حكيمة ، مراعيًا فوارق الفهم وفوارق الثقافة ، وفوارق الطموحات الجادة وفوارق الهمم فى تحقيق الغايات والأهداف .

وشئ آخر لابد فيه من كلمة ، وهو التفسير المتكرر عند المدافعين عن تعامل الأفغانى مع الدوائر الماسونية مبررين ذلك بانخداعه بشعار الإخاء والحرية والمساواة ، وحسب أن مقولة الانخداع مرفوضة ولا تستقيم موضوعيا مع ما توصف به شخصية الأفغانى من ذكاء وقدرات وتوقد بصيرة ، والذى يستقيم مع إخلاص الرجل وقدراته وجرأته على التعامل مع الخصوم والأعداء إنه أراد بهذه الصلة أن يلعب ورقة ألفاظ هذا الشعار الذى لا يخرج عن منطلقات الإسلام الذى يؤمن به ويعمل من أجل أهله ، طائنا بنفسه القدرة على تسخير فعالياتها بما يحقق غاياته ومهمته ، إلا أنه اصطدم منذ البداية بصعوبة هذا المركب وأن أهله أخبث من أن ينخدعوا بأمثاله ويمثل منهجه وتصوراتهِ ، فحصل الفراق وأدار ظهره لهم مستفيدا من بعض وسائلهم فى تجميع المتناقضات وتعبئة الطاقات المتشاكسة فراح يكون المتدييات يجمع الناس بهم بشعارات تعبوية عامة مثل الوطنية والتحرير .

إلا أنها بنظرى تظل تجربة اجتهادية غير موفقة ينبغي لكل داعية أن يأخذ منها درسا كبيرا ، بعد أن دفع العلامة الأفغانى ضريبة هذا الاجتهاد غير المدروس الشئ الكثير .

وأنبه إلى خطورة تفشى وطغيان ظاهرة التفسير التأمري لكل حدث عند

البعض ، مثلما أنبه إلى تنامي ظاهرة الغفلة وعدم المبالاة ، مذكرا بوسيلة الإسلام بكل ضوابطها ومعاييرها ودقة أحكامها في تحرى الحقيقة ، منها إلى خطورة تشويه أعلام هذه الأمة ، وتحقير تاريخها واتهام مسيرتها ، حتى لا نكون من حيث لا ندرى عوناً لأعدائنا فيما يسعون إليه ، لفصل أجيالنا عن تاريخ أمتهم ومآثرها ، وهدم ثقتهم بمناهل ثقافتها وأعلام مسيرتها ، لتعيش الأجيال من بعد مضطربة الرؤية والحركة ، تنجس إليهم تنهل من عطائهم وتتلصص منهمجهم حيث تنكسر الانتكاسة ويتعمق الانهدام ويتسع ما بين حاضر الأمة وماضيها .

الأفغانى باعث الصحافة فى الشرق وأحد وجهى عملة الإصلاح الدكتور مصطفى حمد شرم - جدة

برغم أن السيد جمال الدين لم يكن صحفياً محترفاً .. إلا أنه ببصيرته النافذة قد أدرك مدى ما سيكون للصحافة من دور فعال ومؤثر فى نشر الوعى القومى وتحريك الشعوب الشرقية للإبحار نحو هدفين محددين هما : أولاً : بث الروح فى الشرق ، وتنقية عقيدته ودينه من الخرافات والنهوض بثقافته وعلمه ، ثانياً : مناهضة الاحتلال الأجنبى : ليستعيد الشرق استقلاله وعزته .

وقد طاف السيد بكثير من أقطار الشرق ولعل أبهى أيامه وأصلح غرسه وأنفعه هو ما كان بمصر خلال إقامته بها (١٨٧١ - ١٨٧٩ م) ففى هذه الفترة كانت الأحداث الاقتصادية والسياسية وحالة الأدب قد أدت إلى حرث التربة فكانت الفرصة مواتية لاستنبات أفكاره الجديدة .

وقد كان ما وصلنا من إرهابات الأدب فى تلك الفترة لا يخرج عن دائرة الركافة والتقليد فهو إما مدح أو قلدح أو استعطاف .. أما أحوال الشعب وحقوقه والتزامات الحكومة نحوه .. فلا أثر لها .

وتضخمت الديون وزاد التدخل الأجنبى فى شؤون مصر بفرض نظام المراقبة الثنائية وتكوين وزارة نوبار باشا المختلطة وبها وزيران إنجليزى وفرنسى .

والتفت حول السيد جمال الدين مجموعة ممن توسم فيهم الخير أمثال إبراهيم اللقانى وإبراهيم المويلحى وعلى يوسف والشيخ محمد عبده .. وشجع بعض المؤهوبين على احتراف الصحافة ورسم لهم الطريق وشهم المعانى الجديدة التى يكتبون فيها .. وكتب فيها تحت أسماء مستعارة مثل « مظهر بن وضاح » .

جريدة « مصر » : استصدر امتيازها أديب إسحاق عام ١٨٧٧ م - وكتب فيها فصولاً منها مقالة « الحكومات الشرقية وأنواعها » و « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » واشتهرت هذه الجريدة بمقالاتها فى تعريف الوطنية وهى الجريدة الأولى

التي وردت فيها كلمة « مصر الفتاة » التي درجت في الاستعمال عند أرياب النهضة المصرية. (فيليب دى طرازي: تاريخ الصحافة العربية ج ٣ ص ١٣).

« أبو نظارة زرقاء » : جريدة ساخرة .. شجع يعقوب صنوع على إصدارها عام ١٨٧٧م، « التجارة »: صدرت بنفوذ الأفغانى عام ١٨٧٩م وامتيازها لأديب إسحق ، « مرآة الشرق » : لسليم عنحورى عام ١٨٧٩م وأشرف على تحريرها إبراهيم اللقاني وأما « الوقائع المصرية » فقد ظهر تأثيره عليها بتوجيه الشيخ محمد عبده وأديب إسحق للكتابة فيها بجرأة لم تكن معهودة .

أما « العروة الوثقى » أصدرها في باريس بالتعاون مع الشيخ محمد عبده في مارس ١٨٨٤م وصدر منها ثمانية عشر عددا في ثمانية أشهر .. وكانت توزع على الأقطار الإسلامية بهدف إصلاح المسلمين دينيا واجتماعيا وسياسيا .. وقد عاجلت العروة الوثقى التحديات التي يتعرض لها الشرق والأقطار الإسلامية في إطار من السياسة الدولية العامة ، وألهبت النفوس بحديثها في الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية .. وأججت الشعور بالقومية أما جريدة « ضياء الخافقين » فقد اعتبرت زلة كبيرة كان لا يجب أن تصدر عن السيد جمال الدين وهي التي أصدرها في لندن بالعربية والإنجليزية وكتب فيها بإمضاء « السيد الحسينى » .. يناهض فيها حكومة الشاه وبنه فارس لسوء إدارته وعظيم شره .. حيث إن التشهير بحكومة مشرقية إسلامية في بلاد استعمارية تتخذ من هذا حجة للتدخل ... والواقع أن السيد جمال الدين كان مدفوعا بحبه للانتقام من الشاه على ما لقيه منه من العذاب والطرود .

ونوجز : أنه كان لحركة السيد جمال الدين الأثر العظيم في إيقاظ الشرق والشعوب الإسلامية وتبصيرهم بما يحاق بهم وتكوين جيل من الكتاب يدافعون عن شعوبهم ، متحررين من إطناب المحسنات البديعية عندما يعرضون ، والصحفيين على دراية تامة بمتطلبات لمشاكل الأمة .. ويمتطون الجرأة على الحكام حينما يكون المطلب هو العدل والهدف هو الإصلاح .

نسيية الأحداث :

إذا أردنا تقييم تجربة الأفغانى ومحمد عبده وجب علينا نسبتها إلى زمانها ومكانها

غير متناسين العامل البشرى الفطرى لكل المصلحين ومع احترامى لكل من
خلص إلى القول بأن سياسة الإصلاح السياسى الفطرى التى أرادها الأفغانى قد
ثبت فشلها ... وأن سياسة الإصلاح الاجتماعى الهادىء والتى تمنهجت على يد
الشيخ محمد عبده هى التى ثبت نجاحها وفعاليتها .

أقول بحتمية السياستين .. فإن اجتماعتا فالخير كل الخير .. وإن انفردتا
فإحداها مؤداها الأخرى .. والمصلحان الجليلان هما وجهان لعملة الإصلاح وقد
افترض الشيخ محمد عبده مسألة الإنجليز والحدوى مبدئيا حتى لا يصطدما
ببرنامج الإصلاحى .. فتحقق ظنه .. والسؤال الآن ماذا كانت النتيجة لو أن
الإنجليز كمستعمرين رفضوا سياسة الإصلاح الدينى والاجتماعى واصطدموا بمحمد
عبده ؟؟ أظن أن البديل الأوحى المطروح وقتها هو الإصلاح السياسى .

جمال الدين الأفغانى وأرنست رينان أدب الإسلام فى مواجهة التعصب الغربى

بقلم الدكتور عبد الرزاق قسوم

أستاذ الفلسفة - جامعة الجزائر

تتحدد قيمة معتقد ما ، أو مذهب ، أو فلسفة ، لا بقدر ما تحمل من كنوز ، وما تحتويه من قيم ، وإنما بقدر ما تبرزه هذه المعتقدات أو تلك الفلسفات من رجال يعملون على ترجمة المعانى ، وتجسيد المبادئ .

نلمس هذا فى المعتقدات السماوية ، ولدى الفلسفات أو الأيديولوجيات الوضعية ، ولعل هذا ما يدخل ضمن ما يسمى إجمالاً فى لغة اليوم « بلقاء الحضارات وحوارها » على أن التقاء الحضارات وتجاوزها قصة عريقة متجددة ، تضرب بجذورها من حيث القدم فى أعماق التاريخ ، وهى فى تماسها عبر الشواطئ ، والسواحل ، تأخذ من البحر مده وجزره .

فإذا قيض الله لحضارة ما فكراً نيراً وعقلاً رشيداً ، تمتعت الإنسانية بنسمات ندية ، وأفكار خصبة غنية ، فكان المد الحضارى والإسهام الإنسانى البناء ، أما إذا أصيبت فلسفة ما ، أو حضارة من الحضارات بأناس ذوى حوصلة ضيقة ، وآفاق معتمة ، فذلك هو الضيق والحرَج الذى يولد التعصب والحقد والكراهية .

وتاريخ البشرية حافل بالتمودجين من الأمثلة ، فى كل الديانات ، ولدى كل الفلسفات ، وعبر كل العصور ، ولعل أبرز مثال معاصر ، نجده فى العقل الغربى مجسماً فى موريس بوكاى ، وسيجريد هونكه ، وغيرهما فى كتاباتهما عن الإسلام بكل موضوعية وأمانة دون اعتناق للإسلام ، ونجده أيضاً عند رشاد خليفة وغيره فيما يكتبه عن الإسلام بكل ذاتية وعمالة رغم زعمه الانتماء للمسلمين .

فإذا عدنا إلى التاريخ الحديث وجدنا معادلة أخرى معكوسة « فيلسوف » « عقلانى » « متحضر » تجاوزت شهرته كما قال الأفغانى « الغرب كله لتلامس الشرق » ، ذلك هو الفرنسى « السوربوى » أرنست رينان ، فقد استعان هذا

الفيلسوف الفرنسى بكل مقولات العقل ، وقواعد المنهج جميعها لينحت منها سلاحا يوجهه إلى صدر العرب والمسلمين فكتب فى ذلك « محاضرة » علمية ألقاها على محفل علمى من الطلاب والباحثين ، واختار لها عنوانا جذابا هو « الإسلام والعلم » .

أما المفكر المقابل لذلك ، فهو المسلم المصلح جمال الدين الأفغانى الذى حاور فى أدب إسلامى ومنهجية إنسانية خصمه مستندا قواعد الحوار ومقولات الجدل من الأدب الربانى : ﴿ وَجَدِلْهُمْ بِآلِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ . فأنصف الديانات الأخرى ولم يظلمها ، وأعلى من قيمة الفلسفة ولم يحكم بتفاهتها مجرد أن يمثلها أساء تقديدها للعقل الإنسانى .

وتعالوا نختكم إلى الفكر المدعم بالنصوص من أقوال المتحاورين ، منذ أكثر من قرن وفى مثل هذه الأيام ، وعلى التحديد فى ٢٩ مارس (آذار) ١٨٨٣م ، ألقى الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان محاضرة صاخبة أمام النخبة المثقفة ، بجامعة السوربون الفرنسية ، تحت عنوان « الإسلام والعلم » ، والملفت للنظر فى هذه المحاضرة أن صاحبها دخل بأفكار مسبقة ، واستخدم مقدمات جاهزة ليصل إلى نتائج محددة سلفا ، وهو ما ينفى عنه بادئ ذى بدء أية منهجية علمية ، فقد حاول منذ البداية كما ذكرت ذلك صحيفة « ديا » الفرنسية التى نشرت المحاضرة فى عددها الصادر بتاريخ ٣٠ مارس (آذار) ١٨٨٣م ، حاول أرنست رينان أن يحذر معاصريه من المثقفين من عدم الوقوع فى أخطاء الخلط وسوء الفهم لمربطين بالأفكار السائدة ، والمتعلقة بالإسلام والعرب .

وهكذا يستهل المحاضر حديثه بمحاولة الكشف عن أسباب الخلط وسوء الفهم اللذين يعانى منهما المشتغلون بالتاريخ عموما ، وتاريخ الفكر الإسلامى على الخصوص فيقول بلغة العالم المحلل : « إن مما يسبب غالبا سوء الفهم فى التاريخ ، هو النقص فى إعطاء التحديدات المطلوبة لدى استخدام المفردات والمفاهيم ، لا سيما التى تتعلق منها بالأجناس والأمم ، فالحديث عن اليونانيين أو الرومان أو العرب يتم كما لو كانت هذه الكلمات ، إذا أطلقت تعنى مجموعة من البشر ظلت وفية دائما لهويتها الخاصة دون حساب لما طرأ على هذه الأقوام من تغيرات

حدثت إما بسبب أنواع الغزو العسكرى أو الدينى أو اللغوى أو بسبب التيارات الكبرى المتنوعة التى تخترق عادة تاريخ الإنسانية .

ويدعم المحاضر حكمه بإعطاء المثل بالفرنسيين أنفسهم فيقول : « نحن الفرنسيون مثلاً يمكن اعتبارنا رومانين بحكم اللغة ، ويونانيين من حيث الحضارة ، ويهودا بالديانة » وانطلاقاً من هذه المقولة المنحازة المتعصبة عرقياً ، وحضارياً ، ودينياً ، يأخذ « الفيلسوف » فى نفث سمومه باسم « العلم والفلسفة » فيصدر أحكاماً أقل ما يقال عنها إنها لا تصدر عن مثقف جامعى ، فضلاً عن مفكر أو فيلسوف ، إن القارىء ليخجل عندما يقرأ « لعالم عصره » وهو يعطى مثل هذا الحكم الذى يدينه العقل والعلم معاً فضلاً عن الدين والأخلاق ، فهو يقول عن العرب والإسلام بالحرف الواحد : « إن أى إنسان يعرف حد أدنى من شؤون عصرنا ، ليرى بوضوح مدى التدنى الحالى للبلدان الإسلامية فمن الخطأ الدول التى يحكمها الإسلام ، إلى الانعدام الفكرى الذى يميز الأجناس التى تعتمد فى ثقافتها وتربيتها على هذه الديانة وحدها . إن كل الذين زاروا الشرق أو إفريقيا قد صدمتهم هذه الاتكالية التى تستبد بعقل أى معتنق لهذه الديانة ، وهذا النوع من « الحلقة الحديدية » التى تحيط برأسه ، فتغلقه تماماً أمام العلم ، وتحول دون انفتاحه على أية فكرة جديدة » . ويمضى أرنست رينان فى مواصلة أسلوبه الهيمستيرى الحاقداً على الحقيقة ومنطق الأشياء فيضيف : « إن الطفل المسلم ، قد يكون فى البدء مالكا لبعض الاستعدادات العقلية ولكنه ما أن يلحق بعض المبادئ الإسلامية ، ويبلغ السن العاشرة أو الثانية عشرة ، حتى يصبح فجأة متعصباً ، مملوءاً بنخوة عقيمة فى كونه أصبح مالكا لما يزعم أنه الحقيقة المطلقة وكأنه سعيد بحصوله على ما يجعل منه فى نظرنا شخصاً فى الدرجة السفلى ، إن هذا الكبر الجنونى هو العقدة الجوهرية للمسلم . فالبساطة المظهرية لمعتقداته توحى إليه بنوع من الكراهية لا مبرر لها لكل الديانات الأخرى ، واقتناعاً من المسلم بأن الله هو واهب المال والسلطة لمن يشاء ، دون اعتبار للمعرفة أو للقدرات ، فإن المسلم لديه بغض عميق لكل ما هو ثقافة ، أى لكل ما يشكل العقل الأوروبى » .

وعندما يتطرق أرنست رينان إلى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، والتقدم العلمى فيها قرونا عديدة بحيث أصبحت رائدة للغرب المسيحى فى العلم والفلسفة ، يتساءل المحاضر متحديا بذلك أبسط أحكام التاريخ ، ومسلمات الواقع الحضارى فيقول : « وهل وجد حقا علم إسلامى ، أو على الأقل علم تبناه ويسمح به الإسلام ؟ » .

ويجب المحاضر على هذا السؤال الغرب فينفى عن العقل العربى ، وعن اللغة العربية كل استعداد علمى أو فلسفى فالعبقريّة الوحيدة التى تميز بها العقل العربى إنما هى عبقريّة الشعر والنثر أى العبقريّة اللغوية ، أما الفلسفة فإن الله لم يهب العقل العربى أى شئ منها ولم يخلق لديه أى استعداد لتلقيها « فالعربى البدوى هو أكثر الناس اهتماما بالأدب ، ولكنه أقلهم تصوفا ، وأنقصهم ميلا إلى التفكير والتأمل » .

أما عن الفلسفة اليونانية ، ودور علماء الإسلام فى تعريف الغرب بها ، فأرنست رينان يتهم العرب بكونهم أساؤوا ترجمتها وفهمها ، لذلك كان ينبغي على حد قوله « التوجه إلى مكتبات القسطنطينية حيث توجد النصوص الأصلية للفلسفة اليونانية بدل الاعتماد على ترجمات غالبا ما اتسمت بالرداءة وصيغت بلغة لا تملك من الاستعداد ما يمكنها من التعبير عن الفكر اليونانى » .

وعندما تهافت ضمنا هذه الأحكام التاريخية فى ذهن صاحبها يستيقظ ليعترف بوجود فيلسوف عربى هو ابن رشد الذى ينتهى إلى التسليم بقيمته ولكنه ما يلبث أن يقول : « فعندما وصل ابن رشد إلى قمة شهرة لدى المدارس اللاتينية ، كادت تعادل شهرة أرسطو نفسه فإن ابن رشد آنذاك وقع تناسيه من جانب بنى ملته ، وبعد انتهاء القرن الثانى عشر لم يعد هناك أى فيلسوف عربى ينكر ذلك لأن الفلسفة كانت دائما مضطهدة داخل بلاد الإسلام على نحو لم يجعلها تختفى نهائيا ، وحل محل الفلاسفة الفقهاء ، وهكذا فإن المؤرخين لم يعودوا يذكرون الفلسفة إلا بوصفها ذكرى سيئة .. فقد كانت المخطوطات الفلسفية تحترق وصارت نادرة الوجود ، أما علم الفلك فلم يسمح بممارسته » .

ويخلص المحاضر الفيلسوف إلى استخلاص نتائج خطيرة يوجه بها جمهوره

المثقف فيقول : « إن ما يميز أساسا المسلم هو كراهيته للعلم ، وقناعته بأن البحث العلمي غير مجد لكونه مطية للزندقة وخاصة علم الطبيعة لأنه يناقض الله في علمه ، وكذلك علم التاريخ الذى يتناول عصر الجاهلية ، أى ما قبل الإسلام ، لأنه يعمل على إعادة بعث الأخطاء القديمة » .

وحتى الخاتمة التى انتهى إليها فكر أرنست رينان والتى أوقعته فى تناقض عندما قال : « إن الإسلام يملك جوانب طيبة كدين فلم يحدث أن زرت قط مسجدا ، دون الإحساس بشعور بالأسف يملؤنى بكونى لست مسلما » ويضيف : « ولكنى بالنسبة للعقل البشرى أعود فأقول بأن الإسلام لم يكن سوى معرقلا لهذا العقل » .

« وفيما يخصنى بالذات فقناعتى أن العلم جيد ، وأنه وحده القادر على منحنا أسلحة ضد الشر ، وأن هذا العلم فى النهاية لا يتقدم سوى بالتقدم .. وأعنى بالتقدم التقدم الحقيقى ، الذى لا يمكن فصله عن احترام الإنسان واحترام الحرية » .

تلك كانت إذا الخطوط العامة للتحدى الذى مثلته محاضرة أرنست رينان ، هذا التحدى الذى كانت له استجابة جمال الدين الأفغانى والتى اتسمت بالهدوء والموضوعية ، والحوار الإسلامى المتزن . وإذا كانت الحدة قد هدمت فى جمال الدين أحيانا ما بنته الفطنة كما قال رفيق جهاده محمد عبده فإن ما اتسم به رده على محاضرة رينان كما سنرى كان كله فطنة ترجمها أدب الحوار ، ووزانة العقل وقوة الحجة .

على أن ما يللمسه القارئ فى رد الأفغانى على رينان هو إغفاله لجوانب خطيرة فى المحاضرة لم يتطرق إليها أو ممالأته فى بعض الأحكام ، وهو ما يؤكد لدينا الشعور بأن جمال الدين الأفغانى كان ضحية ترجمة أو سوء تقديم لعناصر المحاضرة كلها وهو ما اعترف به مفكرنا فى بداية رده .

وبالرغم من هذه الإعاقة المنهجية فإن الاستجابة الإسلامية استطاعت أن تحكم بتفاهة التحدى الغربى ، بالحجة ، والمنطق المستمدين من الأدب الإسلامى فى محاوره تحديات أخرى مماثلة للمؤمنين .

ويستهل جمال الدين الأفغانى حواراه مع أرنست رينان بالإشادة بقيمته الفلسفية وتقديره لشهرته التى فاقت الحدود . ثم يبدأ فى عرض أهم أحكام المفكر الفرنسى فيقول : « إن خطاب رينان قد اشتمل على نقطتين أساسيتين ، أولاهما ، أنه بذل جهده فى إثبات أن الإسلام فى جوهره الأساسى معادٍ لكل تطور علمى ، وثانيا ، أن الشعب العربى بطبيعته لا يحب العلوم الميتافيزيقية ، ولا الفلسفية » .

وفهم من كلام رينان أن شجرة العلم الغالية هذه قد جفت بين أيدي أبناء الشعب العربى متأثرة بهبوب رياح الصحراء التى أحرقتها وقناعتها أن المحاضر لم يكن لديه « الوقت الكافى » لتعميق هذا الموضوع والبحث عن أسبابه العميقة التى لو درست بعظم ما كان لها أن توقع صاحبها فى مثل هذا الخلط .

ذلك بأن أية أمة ليست قادرة فى أصلها بأن تسلم زمام قيادة أمورها للعقل وحده « وهذا ما يمثل عقبة بالنسبة للإنسان بوجه عام ذلك أنه لا يمكن - كما يضيف الأفغانى - أن ننفى بأن هذه التربية الدينية سواء أكانت إسلامية أو مسيحية أو غيرها ، هى التى مكنت الأمم من الخروج من طور الهمجية لتسير نحو حضارة أكثر تقدما .

فإذا سلمنا جدلا ، بأن الدين الإسلامى قد مثل عقبة فى طريق التقدم العلمى ، هل يمكن التأكيد بأن هذه العقبة لا يمكنها أن تزول يوما ما ؟ وأين يختلف الإسلام هنا عن باقى الديانات الأخرى ؟ إن كل الديانات تملك نوعا من عدم التسامح ، ولكن لكل ديانة طريقتهما فى التعبير عن ذلك » .

فإذا سلمنا مع المحاضر بحقيقة كون الإسلام قد عمل على خنق أنفاس العلم ، وأوقف كل تقدم ، وإذا قبلنا بكون الإسلام قد عرقل الحركة العقلية والفلسفية ، وصد العقول عن طريق البحث فى الحقيقة العلمية ، فإن نفس المحاولة - إذا لم أخطئ - قد قامت بها الديانة المسيحية ، وأن قادة الكنيسة الكاثوليكية حسب علمى لم يتخلوا عن أسلحتهم فى محاربة ما يعتبرونه « مصدرا للصراع والخطأ » .

وقناعتنا ، كما يضيف الأفغانى ، أن أتباع أى دين إنما يتبعون فى ذلك الخط الذى رسمه لهم علماء الدين ومفسروه ذلك أن هؤلاء الأتباع لديهم اليقين الكامل ، بأن دينهم يحتوى على كل معانى الأخلاق ، وكل معانى العلوم ، ولذلك

فهم مصممون على أن لا يقوموا ببذل أى جهد لتجاوز هذا الدين ، وما جدوى القيام بمثل هذه المحاولة ؟ وماذا يفيد البحث عن حقيقة أخرى ، مادام المؤمن بهذا الدين يعتقد جازما ، بأن الحقيقة موجودة في معتقده ؟ وهل سيكون أسعد من ذلك لو قدر له أن يفقد إيمانه في يوم من الأيام ؟

وبعد هذا ينتقل الأفغانى إلى النقطة الثانية من رده على رينان ، وهى نفيه كل استعداد أو عبقرية علمية عن الجنس العربى يقول الأفغانى بهذا الخصوص : « إنه لا أحد يجهل أن الشعب العربى في الوقت الذى كان فيه الغرب يعيش مرحلة التخلف والهمجية ، قد سلك طريق التقدم العلمى والعقلى ، وأنه حقق ذلك بسرعة لم تعادلها إلا سرعة فتوحاته ، فقد استطاع هذا الشعب خلال قرن واحد من الزمن أن يكتسب ، وأن يستوعب معظم العلوم اليونانية والفارسية ، التى تطلب تطورها البطيء عدة قرون في أرضها الأصلية ، وهكذا لاحظنا كيف أن هذا الشعب العربى قد فرض سلطته على رقعة كبيرة من العالم امتدت من شبه الجزيرة العربية لتصل إلى جبال « الهملايا » و « قمم البيرينى » .

ويمكن القول أنه خلال هذه الحقبة كلها عرفت العلوم تقدما عجيبا لدى العرب ، ولدى كل البلدان التى كانت تحكمهم . في ذلك الوقت كانت روما وبيزنطة تمثل قبلة العلوم اللاهوتية والفلسفية ومركز إشعاع قوى لكل أنواع المعرفة البشرية ، ولكن أتى على هذه المراكز العلمية حين من الدهر بعد ذلك ، تخلفت فيه عن أبحاثها وتوقفت كل الدراسات فيها ، فتحطمت بذلك تماثيل العلم التى أقاموها وسقطت كتبهم الثمينة في طى النسيان .

« وجاء العرب الذين كانوا آنذاك جهلة ومتخلفين جاءوا لينقذوا التراث الذى تخلت عنه الأمم المتحضرة ، فأعادوا إضاءة مصابيح العلوم المنطفئة ، وطوروها ، ومنحوها إشعاعا لم تعرفه من قبل » ويتساءل جمال الدين الأفغانى : « ألا يمثل هذا علامة من علامات حب العرب الطبيعى للعلم ؟ » .

صحيح أن العرب قد أخذوا عن اليونان فلسفتهم ، كما أخذوا عن الفرس كل معالم شهرتهم في القديم ، ولكن هذه العلوم التى أخذوها عن طريق الفتوحات قد عملوا على تطويرها ، وشرحها ، وتنميتها وتكاملتها والتنسيق بينها بإعطائها ذوقا

رائعا ، وتحديدًا ومصداقية نادرين ، لكن هذا كله تم في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون والألمان والإنجليز أقل بعدا من مركزى إشعاع روما وبيزنطة بالنسبة للعرب الذين كانت عاصمتهم بغداد .

لقد كان من السهل ، على هؤلاء الغربيين استغلال كنوز العلم والمعرفة ، وقد كانت في مدينتين مجاورتين لهم ، ولكن الغربيين لم يقوموا بأى جهد في هذا المجال ، حتى جاء اليوم الذى أشرفت فيه شمس الحضارة العربية ، ونشرت أشعتها على قمم جبال الهمالايا ملقبة بأضوائها وثرواتها على بلاد الغرب » .

كذلك فإن الأوروبيين قد أحسنوا استقبال أرسطو بعد ما هاجر من اليونان وأصبح عربيا ، ولكنهم قبل ذلك لم يفكروا فيه عندما كان يونانيا ومجاورا لهم ، ويتساءل جمال الدين الأفغانى بعد ذلك « ألا نجد في هذا أيضا دليلا آخر بديها على تفوق العقل العربى ، وتعلقهم الطبيعى بالفلسفة ؟ » .

نحن نعترف ، كما يضيف الأفغانى ، بأن البلدان التى وصلت إلى قمة الإشعاع العلمى ، كالعراق والأندلس قد عادت فسقطت من جديد في حظيرة الجهل والتعصب الدينى ، ولكن لابد لنا من أن نستخلص رغم ذلك من هذا المشهد المؤلم أن التقدم العلمى والفلسفى في العصر الوسيط إنما يعود الفضل فيه إلى الشعب العربى الذى كان نفوذه هو السائد آنذاك .

ومضى جمال الدين الأفغانى في مقارنته الحجة بالحجة فيقول : « إن الإنصاف يقتضى أن أشيد هنا ، بخصائص العلماء الفرس ، وبالدور الذى لعبوه في العالم العربى ، ولكننى أسمح لنفسى أيضا بأن أقول بأن الحرايين قد كانوا عربا ، وأن العرب عندما فتحوا الأندلس لم يفقدوا جنسيتهم ، فقد كانوا عربا حتى قبل الإسلام بقرون عديدة وكانت اللغة العربية هى لغتهم الأصلية ، وكونهم احتفظوا بديانتهم القديمة الصائية لم يكن ذلك يجعل منهم غرباء عن القومية العربية ، فالقساوسة السوريون هم في أغلبهم عرب غساسنة اعتنقوا المسيحية » .

وهنا يعقد الأفغانى مقارنة بين ما ذهب إليه رينان من نفى للعروبة عن الفلاسفة ما عدا الكندى ، وعن الفرس وأقوام أخرى ، اعتنقوا الإسلام ، وهو من أصل غير عربى ، ويخلص المصلح المسلم إلى هذه النتيجة : « إن ما قلناه عن

الحرانيين والغساسنة ، ينطبق أيضا على ابن باجة وابن رشد وابن طفيل ، فلا يمكن اعتبارهم غير عرب مثل الكندي ، كما ذهب إلى ذلك رينان ، لمجرد كونهم لم يولدوا مثل الكندي في البلاد العربية ، ذلك أن الأمم إنما تتميز باللغة التي تستخدمها .. كذلك فإن انتشار الإسلام في بلاد الفرس ، قد أعطى بعدا عربيا آخر لعلماء الفرس الذين اعتنقوه ، وكانوا يحسون بشرف كبير عندما يكتبون مؤلفاتهم بلغة القرآن » .

ويؤكد الأفغانى ، أنه يكفي كدليل على بطلان حكم رينان أن نقول له بأن الثقافة تصنع الشعوب ، ولو قبلنا حكمه ، فمعنى ذلك أنه ربما تجيء إيطاليا في يوم من الأيام إلى فرنسا ، وتطلب منها استعادة مازران MAZARIN وبطرنا بارت وإن بإمكان ألمانيا أو إنجلترا أن تطلبا استعادة علمائهما الذين استوطنوا فرنسا ، واستخدموا ثقافتها وجنسيته .

ويختتم جمال الدين الأفغانى حوارَه القيم لمحاولة فك الإشكالية القائمة بين الدين والفلسفة بوصفها إحدى النقاط المهمة التي ارتكزت حولها محاضرة أرنست رينان ، وبخصوص هذه الإشكالية يؤكد المصلح المسلم ، بأنها ستظل قائمة ، وأنه كلما أتيح للدين أى دين أن ينتصر في أى مكان ، فإن ذلك سيؤدى إلى انحصار نفوذ الفلسفة والعكس صحيح ، فكلما انتصرت الفلسفة ، وما يصاحبها من عقل حر فسيتقلص دور الدين معها .

على أن جمال الدين الأفغانى يرجع كفة انتصار الدين في النهاية ، لأن الفلسفة لا تملك مقومات النصر ، وأهمها رضا عواطف الجماهير ، كما أن التعاليم الفلسفية لا يمكن أن تكسب إلا عددا قليلا من الناس ، وهم النخبة المتميزة من الشعب . كما أن العلم رغم أهميته وقيمته ، لا يمكن أن يرضى الإنسانية وحده ، لأنها - أى الإنسانية - ستظل متعطشة للمثل ، والقيم ، وهذا ما يقوم به الدين .

لم يكن الأفغانى أنشط دعاة الجامعة الإسلامية ولا أعلمهم

الدكتور محمد حرب

قسم الاستشراق - المعهد العالى للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة

أقول الحق : إني لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لأن أكتب عن السيد جمال الدين الأفغانى ، أثبتت مسألة الأفغانى فى مصر فلم أقدر على المشاركة فيها . وفى مؤتمرين دوليين شاركت فيهما وطرقت الحديث - بحكم مادة تخصصى فى التاريخ العثمانى - عن الأفغانى والإطار الفكرى والتاريخى لحركة اتحاد المسلمين المعروفة بالجامعة الإسلامية فقام بعض سادتنا وأساتذتنا من الذين تعلمنا عنهم وأفدنا من إنتاجهم العلمى يطلبون عدم الاستمرار فى هذا الموضوع ، وقالوا : لصالح من نهدم الرواد ؟ فسكت احتراماً ، وإن كنت غير مقتنع بوجهة نظرهم .

وأذكر أننى - مؤخراً - كتبت مقالة عن الأفغانى وأرسلتها إلى مجلة العربى ثم زرت جامعة إسلام آباد والتقيت هناك بالأساتذة وكان منهم أساتذة أجلاء من دار العلوم المصرية ووجدت أحدهم غاضباً منى كثيراً لأنى نشرت منذ أكثر من عشر سنوات بعض وثائق عن الأفغانى فى كتابى « مذكرات السلطان عبد الحميد » فما كان منى بعد عودتى من زيارة جامعة إسلام آباد إلا أن سحبت مقالتي من مجلة العربى معتذراً لها ، ثم فكرت فى نشر هذه المقالة فى مجلة الهلال المصرية ثم تراجع خَوْفاً من انفعالات أنا فى غنى عنها رغم أن هدفى كان شيئاً يختلف عن معارك ملفات الأفغانى ، وأنى أكتب لمصلحة الحقيقة فليس لدى انتهاء لجماعة فكرية من أى جانب كانت .

أقصد الحقيقة وما نكتبه قد يكون خطوة مهمة لمعرفة الرواد - أيا كان هؤلاء الرواد - وتصورى الشخصى أن أحدا لا يضار من مهاجمة أو مدح أو توسط طالما أن الكاتب يحاول الحياد ما أمكنه لا يحمل ولا يجمل . فالكاتب كما قال

الدكتور سعيد إسماعيل على - في مقالة له في الهلال المصرية - يكتب ويرد إذا كان الكاتب الذى أمامه نزيه القلم عفيف اللسان ويضيف هذا الأستاذ المحترم شيئا آخر وهو العلمية أى التخصص أو المعرفة عند الكتابة والرد .

إن العالم العربى يعج - للأسف - « بالانفلات الكتائى » إذا صح هذا التعبير ، فتجد أستاذا جامعا متخصصا فى تفسير القرآن الكريم لا يعرف من التاريخ الحديث شيئا من أدواته تؤهله للقراءة والكتابة فى هذا التاريخ ينصب من نفسه كاتباً تاريخياً ليس فى الصحف فقط بل يصدر كتباً فى التاريخ ليس فيها أسلوب التاريخ ولا روحه ولا وسائله ، والمشكلة ليست فى هذا فقط بل وأيضاً فى توزيع شتائه على هذا وذاك . وأستاذ آخر فى الأدب الإنجليزى ينصب من نفسه حكماً فى قضايا تاريخية لم تنشر بعد وثائقها كاملة ومازال اهل الاختصاص فيها يعانون ويحاولون حل طلاسمها . هذا النوع وذاك يتجاهل أصحابه أن العالم الآن عالم تخصص . ويتجاهلون أن « الانفلات الكتائى » أمر مضحك ومؤسف . أما هؤلاء المربون الفضلاء فلا أشك أنهم أصحاب فكر محترم لكن لى الحق فى أن أحالفهم ، فالنقد بجانبه الإيجابى والسلبى ضرورة لوضوح الرؤية أمام الأمة فى كل أجليها ، وإذا سمح لى بضرب بعض أمثلة فى ذلك أقول : إن أستاذا جامعيا درس لنا تاريخ الأتراك الحديث والمعاصر وكان رجلا متصوفا على الطريقة البيومية درس لنا أتاتورك وقال : إنه من الرواد وقارنه بعبد الناصر فقال فيه أيضا إنه من الرواد ، وجاء أستاذ يتحدث عن عزيز المصرى فقال : إنه رائد فوق مستوى الرواد ، ودرس لنا أستاذ آخر الأدب فقال لنا : إن الدكتور طه حسين أيضا من الرواد . وأذكر جيدا أن مفهوم الرائد عند الجميع أنه فوق مستوى النقد . والمحصلة النهائية توقف العقول وركود التكوين فى الأمة فمن أتاتورك إلى عبد الناصر إلى عزيز المصرى إلى طه حسين وغيرهم الكثير : رواد ، ويبدو أن كلمة الرائد رخصت أو هكذا يبدو . كل من هؤلاء الرواد له ما له وعليه ما عليه فلم لا نأخذ هؤلاء الرواد بالنقد والتحليل على مسمع ومرأى الرأى العام بشروط هى : عدم التجنى وعدم استغلال النقد والتحليل مادة إثارة وبشرط التخصص كل فى ميدانه ، وبالطبع بعيدا عن الإهباب الفكرى عن طريق الشتائم .

أقول بعد ذلك : إن السيد جمال الدين الأفغاني رائد من رواد الحركة الإسلامية في القرن الماضي لا يصلح اتخاذه الآن نموذجاً . لم أقل إن السيد رائد حركة الجامعة الإسلامية كما يشاع بل كما قلت رائد من رواد ولم يكن السيد أنشط دعاة هذه الجامعة ولا أعلمهم ولا أتقاهم فغيره من العلماء الرواد لحركة الجامعة الإسلامية ، منهم من أعلم وأنشط وأتقى من السيد جمال الدين الأفغاني وإن تفرد هو بالذكاء الأشد والتأثير الأقوى والخيال والتناقض ..

والأفغاني : شخصية غريبة الأطوار ، وهو قوى الشخصية لا يخشى في الحق - كما يراه - لومة لائم ، شخصية قيادية يدعو إلى الوحدة الإسلامية وترابط المسلمين ووقوفهم وقفة رجل واحد ، يستخدم كل ما يستطيع استخدامه من أشخاص ومؤسسات وأفكار - لتحقيق أهدافه في الوحدة الإسلامية ، يمكن أن يوصف بالثورية أو بمعنى التعجل في تحقيق أهدافه ، أصاب شهرة واسعة في كل أرجاء العالم الإسلامي ، شهرة لم يصبها أحد في مثل وضعه . يستبعد الإصلاحات الجزئية كإصلاح الإدارة فقط أو إصلاح التعليم فقط فوسائل الإصلاح الجزئية « لم تعمل على تحسين أحوال هذه الدول (الإسلامية) ولم تسهم في حل مشاكلها كما لم تمكنها من الوقوف في وجه أعدائها » .

وعند السيد جمال الدين أن الوسيلة في نهضة العالم الإسلامي إنما تنحصر في « إنهاء دولة إسلامية من حالة ضعفها وتبنيها للقيام على شؤونها وإيصالها إلى مصاف الدول القوية » . ولم يكن غير الدولة العثمانية دولة إسلامية بأوصاف السيد .

يرى الأفغاني ضرورة أن تأخذ الدولة العثمانية سياسة اللامركزية وتكون ولاياتها عبارة عن كيانات مستقلة استقلالاً ذاتياً لا ترتبط باستانبول إلا في المسائل المهمة فقط ، مكونة بذلك دولة اتحادية ثم ينضم إليها بعد ذلك جميع الممالك الإسلامية الأخرى كإيران وأفغانستان والهند . ويرى الأفغاني أيضاً أنه يمكن أن يكتفى المسلمون باتحاد الاتجاه والهدف والشعور دون أى تفكير في وحدة سياسية تنتظم جميع دولهم وحكوماتهم . ويبدو أن تراجع الأفغاني عن مشروعه الكبير في الدولة الاتحادية الإسلامية والاكتفاء بتوحيد وجهة العالم الإسلامي قد حدث بعد أن

قابل الأفغانى السلطان عبد الحميد فى إستانبول وعرض عليه مشروعه فاكشف السلطان أن الأفغانى كان نظريا فى تفكيره لم يتعمق فى فهم الوضع السياسى والفكرى فى بلاد المسلمين وقتها .

ولم يكن للأفغانى برنامج متكامل محدد المراحل واضح الأهداف فى مجال دعوته . بل إنه كان متعجلا يريد أن يرى أثر نجاحه الشخصى فى حياته . وقد أوجز أحد المفكرين الفرنسيين وهو « فرنو » فى كتابه « يقظة العالم الإسلامى » حركة الأفغانى بقوله : « قد أيقظ النفوس أكثر مما دلها على طرق جديدة » . واتخذ الأفغانى فى سبيل نشر أفكاره فى وحدة العالم الإسلامى ، الآتى :

١ - حركته الشخصية من وقوفه خطيبا ولقاءاته بالزعماء والملوك وإعداد الخطباء وكبار المثقفين المسلمين مثل عبد الله النديم فى القاهرة ومحمد عاكف فى إستانبول .

٢ - الكتابة فى الصحف : من إنشائه لجريدة « العروة الوثقى » وأصدرها فى باريس بمساعدة من تلميذه الشيخ محمد عبده للدفاع عن قضايا العالم الإسلامى و « تنبيه الشرقيين » إلى ما فرطوا فيه من واجبات أدت إلى سقوط العالم الإسلامى وضعفه .

٣ - إنشاء الجمعيات والمؤسسات واستخدامها وسيلة لنشر أفكاره . وهذه فى « تكتيك » الأفغانى - كما يبدو - لا ينظر فيها إلى فروق المذهب أو السياسة أو العقيدة أما الجمعيات والمؤسسات التى أخضعها الأفغانى لخدمة قضيته فهى : **جمعية العروة الوثقى :**

وهى إسلامية عالمية ، تقوم على أساس إسلامى بحت . تضم جماعة من كبار الشخصيات الإسلامية وكان على العضو فيها « بذل كل ما فى وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين وألا يؤخر إلا ما أخره الدين وألا يسعى قدما واحدة يتوهم فيها ضررا يعدو على الدين جزئيا أو كليا » .

وقامت لهذه الجمعية فروع فى شمال إفريقيا ومصر والهند وغيرها من أقطار المشرق الإسلامى . وهى جمعية يقول مؤرخو الأفغانى إنها سرية فى تنظيماتها

وأشخاصها وعلاقتها شأن كل التنظيمات التي أنشأها الأفغانى أو أشرف عليها .
الحزب الوطنى :

وهو تنظيم قائم على أساس وطنى قومى بحث . والحزب أنشئ فى مصر عام ١٨٧٩ م ، وامتدح اللورد كرومر - المعتمد البريطانى فى مصر - صنيع الأفغانى فى إنشاء الحزب الوطنى قائلا : « إن الحزب الوطنى هو أوضح مظهر لنهضة العرب منذ ثلاثة عشر قرنا » يعنى منذ ظهور الإسلام .

محفل الشرق الماسونى :

وهو محفل تابع لمحفل الشرق الفرنسى . وكان الأفغانى قد اتخذ من انضمامه للماسونية وسيلة لتحقيق أهدافه وقال بصدد هذا : « وأول ما شوقنى فى بناءة الأحرار (الماسونية) عنوان كبير خطير : « حرية وإخاء ومساواة » ومنفعة الإنسان وسعى وراء ذلك صروح الظلم وتشديد معالم العدل المطلق » .

ولكن ينبغى القول هنا إن الأفغانى عندما قدم طلبه للاشتراك فى الماسونية ذكر فيه أنه « مدرّس العلوم الفلسفية بمصر » ووصف فى طلبه هذا الماسون بأنهم « إخوان الصفاء » يعنى هذا أنه كان يدرك موقف الماسونية من الدين .

ولما تبين للأفغانى عقم الأساليب التى يتبعها هذا المحفل وقصوره عن تحقيق الأهداف التى يرمى السيد إليها تركه لينشئ محفلا آخر ضم تلامذته والمعجبين به بلغ عدد المشتركين فيه ثلاثمائة وكان من بينهم ولى عهد مصر محمد توفيق الذى أصبح والى مصر بعد ذلك .

الجدير بالقول هنا أن أول انضمام للأفغانى للماسونية كان فى المحفل الماسونى فى القاهرة (عام ١٨٧٨ م) وكان هذا تابعا للمحفل الإسكتلاندى البريطانى فلما غضب منه الأفغانى أنشأ محفلا تابعا لمحفل الشرق الفرنسى .

جمعية إيران الفتاة :

وهى جمعية من البابيين الإيرانيين الذين فروا من إيران بعد سلسلة من أحداث الشغب والإرهاب التى اقترفوها فى بلادهم ، مؤسس هذه الحركة البابية هو محمد على رئيس مذهب الشيخية الباطنية الذى أعدم مع أحد مريديه فى تبريز عام

١٨٥٠ م فنزح زعماء طائفة البابيين إلى بغداد فرارا بأنفسهم من الاضطهاد وعلى رأسهم صباح الأزل وأخيه بهاء الله وكانت بغداد وقتها عثمانية . وبناء على طلب من الحكومة الإيرانية إلى الباب العالي بأن ينقلهم إلى مكان أبعد ، بداخل الدولة العثمانية . نقلوا بالفعل إلى إستانبول ثم إلى أدرنه وهناك ادعى بهاء الله أنه المظهر الأول للإرادة الإلهية كما قال « الباب » مؤسس الحركة . عندئذ نشب الخلاف بينه وبين أخيه الأكبر بعد أن رفض هذا وحزبه الاعتراف بدعوة بهاء الله . وقام نزاع دام بين الفريقين تدخل على أثره الباب العالي (الحكومة العثمانية) فنفى بهاء الله وأتباعه إلى عكا ، ونفى صباح الأزل وأتباعه إلى قبرص . وهكذا عاش البابيون والبهائيون مشتين منفين مراقبين في الدولة العثمانية .

وبعد أن قام السلطان عبد الحميد بتوجيه دعوة إلى جمال الدين الأفغاني عام ١٨٩٢ م - بعد توسط منيف باشا حامى الأفغاني وبعد إهمال السلطان نفسه لطلب سابق أرسله إليه الأفغاني - لزيارة إستانبول ، أقام الأفغاني في قصر خصصته له الحكومة العثمانية في حي شيشلى هناك . وفي العاصمة قام الأفغاني بنشاط متشعب في سبيل دعوته ومن هذا النشاط أنه كان بمثابة « المرجع والمستشار » للبابيين ، فقد قام الأفغاني بتنظيم جمعية هؤلاء البابيين في إستانبول أسماها جمعية « إيران الفتاة » كما أرسل بعض منها سرا إلى إيران للقيام بالدعاية ضد الحكم الإيراني . وكانت مجموعة من هؤلاء البابيين تعيش على عملية نقل مطبوعات « تركيا الفتاة » و « الاتحاد والترقي » ، وهي مطبوعات ممنوعة من قبل السلطات العثمانية - من أوروبا لتوزيعها على أعضاء الاتحاد والترقي في داخل البلاد العثمانية . كما كان هذا القسم من البابيين يقوم بطباعة الأعمال الإعلامية والأدبية التي يكتبها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد المخالفة للنظام العثماني .

ويذكر إبراهيم تيمو ، مؤسس جمعية الاتحاد والترقي أن رضا العجمي - تلميذ جمال الدين الأفغاني وقاتل شاه إيران والذي قال له عند قتله إياه خذها بيد جمال الدين - كان يمدّه ويمد زملاءه الثوار في إستانبول بالصحف الممنوعة التي تصدرها معارضة عبد الحميد في أوروبا وتدخل البلاد العثمانية خلسة .

والجدير بالذكر هنا أن الأفغاني أقام رابطة بين جماعتى إيران الفتاة وتركيا الفتاة

في البلاد العثمانية وأوروبا . وغير معروفة - حتى الآن - مقررات جمعية إيران الفتاة في إستانبول - ويسمىها المؤرخ العثماني أبو الضياء توفيق الشركة الإيرانية - ولا يعلم أحد أعمالها ، ويبدو أنها سارت على خطة الأفغاني في تشكيلاته ألا وهي التكتّم . وقد فصل في هذا البروفيسور شريف ماردین في كتابه الرصين « تركيا الفتاة » .

وفق الأفغاني في انتقاء شخصيات شابة من مختلف البلاد التي يحل بها ومن بين المعجبين به ، كان يهتم بهم ويعنى بتربيتهم لكي يأخذوا دورهم مستقبلا في بناء الأمة الإسلامية ، وكان - كعادته - محايدا في انتقائه لمن يقرهم منه ، ذلك أن الهدف النهائي هو الأساس في حركته ، على ذلك اختار من إستانبول شابا أصبح فيما بعد رائد التيار الإسلامي في تركيا وهو الداعية المسلم وشاعر الإسلام محمد عاكف . كما انتقى الأفغاني أيضا من إستانبول الشاعر محمد أمين ويث فيه الأفغاني ثورته . وأصبح محمد أمين فيما بعد الشاعر القومي الرائد في تركيا ، وتأثير جمال الدين في فكر جمعية الاتحاد والترقي إنما جاء عن طريق زميلهم الشاعر محمد أمين .

ومن الغريب أيضا أن نعد من تلامذة الأفغاني الذين اختارهم من إستانبول الحقوق الثابه « محمد سيد أفندي » الذي أصبح فيما بعد محمد سيد بك ، القانوني التركي البارز صاحب كتاب « الخلافة : ماهيتها الشرعية » وصدر في إستانبول عام ١٩٢٤ م وهذا الكتاب عبارة عن خطبة محمد سيد بك في البرلمان التركي - في عهد أتاتورك . قدم فيها هذا الحقوق الصيغة القانونية لموجبات إلغاء الخلافة الإسلامية . وقد ألغيت وكان محمد سيد بك يرى الفصل بين الالتزام الشخصي بالإسلام وبين الشريعة الإسلامية .

ومن تلامذة الأفغاني من مصر الشيخ الإمام محمد عبده والزعيم سعد زغلول قائد ثورة مصر عام ١٩١٩ م تحت شعار « الدين لله والوطن للجميع » ووجد المصريين مسلمين وأقباط ضد الإنجليز . والجدير بالذكر أن سعد زغلول هو مؤسس حزب الوفد في مصر أول حزب يفصل بين الدين والدولة .

أيد الأفغاني دعوة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية وقدم مشروعات

أكبر بكثير من طموح السلطان الذى لم يأمل فى أكثر من وحدة هدف وحركة بين الشعوب الإسلامية تكون الخلافة فيها ذات هبة وقوة .

لكن السيد جمال الدين عرض - فيما عرض - على السلطان مشروعا يرمى إلى توحيد أهل السنة مع الشيعة . مع أن نظرة السلطان عبد الحميد لم تكن ترمى فى هذا الصدد إلا توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمى . ومع ذلك فقد استفاد السلطان كثيرا من الأفغانى فى « الدعاية » إلى الجامعة الإسلامية رغم الاختلاف الواضح بين فكر السلطان وبين السيد ، ومن أسباب هذا الاختلاف :

١ - إيمان الأفغانى بقضية وحدة المسلمين وتأييده - فى نفس الوقت - للثوار ضد السلطان عبد الحميد من القوميين والماسون .

٢ - دعوة الأفغانى إلى وحدة الأمة الإسلامية لمواجهة الاستعمار العالمى الرامى إلى تقسيم الدولة العثمانية ، وفى نفس الوقت لا يتعرض الأفغانى للاستعمار الفرنسى ولو بكلمة تنديد فى وقت احتاج السلطان عبد الحميد إلى مقاومة فرنسا فى شمال إفريقيا .

٣ - تنديد الأفغانى بالاستعمار الإنجليزى فى حين يذكر السلطان عبد الحميد أن المخابرات العثمانية حصلت على خطة أعدت فى وزارة الخارجية الإنجليزية واشترك فيها الأفغانى و « بلنت » وتقضى بإقصاء الخلافة عن السلطان عبد الحميد وعن العثمانيين عموما . وهذه الخطة هاجمها مصطفى كامل باشا المصرى فى كتابه « المسألة الشرقية » مهاجما بلنت ساخرا منه . وكان بلنت قد صرح بهذه الخطة فى كتابه « مستقبل الإسلام » .

٤ - رغم الأطماع الروسية ضد الدولة العثمانية - دولة الخلافة الإسلامية وقتها - واحتلال روسيا لأجزاء من الدولة العثمانية فقد كان موقف الأفغانى من مبدأ الاحتلال الروسى لأراضى المسلمين ومن مبدأ التوسع الروسى ، غريبا على مفهوم الجامعة الإسلامية لأن الأفغانى كان يعترف بما للروس من مصالح حيوية وإستراتيجية فى الهند تدفعهم لاحتلالها . وأن ليس للأفغانى اعتراض على هذا

الاحتلال إذا حدث . بل ينصح الأفغانى الروس باتباع أسهل السبل وأسلمها لتنفيذه ، وذلك بأن يستعينوا بدولة فارس وبأفغانستان لفتح أبواب الهند - ولم تكن باكستان قد قامت بعد - شريطة أن تساهما فى الغنيمة وتشاركهما فى المنفعة .

٥ - الخلاف العقدى الذى ظهر بين العلماء المسلمين فى إستانبول وبين السيد جمال الدين الأفغانى وظهور كتاب الشيخ خليل فوزى الفيلىاوى « السيوف القواطع » للرد على عقيدة الأفغانى وسكوت الأفغانى على هذا وعدم دفاعه عن نفسه . والكتاب باللغة العربية وترجم وقتها إلى اللغة العثمانية أيضا .

٦ - ميل السلطان عبد الحميد إلى تركيز السلطات فى يده بعد أن ذاق الأمرين من وزرائه وضباط جيشه وصدوره العظام المتأثرين بالفكر الغربى وأصحاب الانتماءات والولاءات لأعداء الدولة والذين هدفوا إلى إقامة ديمقراطية أوربية تضم مجلسا منتخبا يمثل كل شعوب الدولة العثمانية ، ومعارضة السلطان عبد الحميد لهذا بحجة أن عدد النواب المسلمين سيكون حوالى نصف العدد الكلى للبرلمان فى حين أن السيد جمال الدين الأفغانى يميل إلى الديمقراطية وعدم تركيز السلطات فى يد شخص واحد بعينه ، وميل الأفغانى أيضا إلى الحرية فى التعبير عن الرأى .

ولا أرى أن قولى هذا هو حد الفصل فى ملف الأفغانى . وأميل إلى أن ملف الأفغانى لا يفتح إلا وفيه مؤرخون يقدمون ما يستطيعون من « معلومات » ويقوم آخرون من أهل التخصص فى التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع بدراسة ما يقدم لهم من « معلومات » عن الأفغانى ويحللونها لحل هذا اللغز الغامض المسمى باسم « السيد جمال الدين الأفغانى » .

السيد جمال الدين الأفغانى وحقيقة فكره وموطنه

الدكتور محمد أمان صافى

جامعة الملك عبد العزيز - جدة

أولا - الأفغانى وفكره :

قصة فلسفة الأفغانى الإصلاحية عريقة متجددة تضرب بجذورها الإسلامية من حيث القدم والأصالة فى أعماق الحركات الإسلامية فى العالم . إننى أعتقد جازما أن الحديث عن الأفغانى صاحب التجربة الأولى فى الفلسفة الإصلاحية يأتى تلبية لحاجة الأجيال الإسلامية الماسة إلى معرفة تاريخها وحاجتها الملحة لعوامل الثقة التى تربطها بهذا التاريخ المجيد القريب منه والبعيد وما فيه من الأدوار البطولية الرائعة التى قام بها زعمائها من أمثال السيد الأفغانى ومحمد عبده ، ومن قبلهما من أمثال محمد بن عبد الوهاب والشيخ الشوكانى . وإذا كان الأفغانى ومحمد عبده امتدادا للشوكانى ومحمد بن عبد الوهاب فإن الشوكانى وابن عبد الوهاب كانا فى الحقيقة من نتاج صرخة التوحيد التى رفعها وقادها الإمام أحمد ابن حنبل للعودة إلى منهج القرآن عن طريق العودة إلى الأصولية ، وقد تحولت الصيحة الحنبلية إلى الثورة الإسلامية على يد شيخ الإسلام ابن تيمية الرامية إلى العودة بالإسلام السلفى إلى أصوله . وقد ظهر على مر الأجيال والعصور مصلحون عظام ، وثائرون مسلمون أحدثوا ثورات إصلاحية عظيمة مؤثرة ترتبط فى أفكارها الإصلاحية الثورية بالأصولية الإسلامية المستلهمة من دعوة ابن حنبل السلفية وصرخة ابن تيمية الثورية المدوية فى أرجاء العالم الإسلامى .. الأفغانى إذا نجم لامع فى تاريخ حركات البعث الإسلامى فى العصر الحديث .

فليس من الغريب أن تكون أفكار الأفغانى بذرة لكل ثورة إصلاحية ، أو تحرك وطنى فى البلاد الإسلامية ، بل فى بلاد الشرق قاطبة ، لقد زرع الأفغانى فى أرض الإسلام بذرة اليقظة والحرية والاستقلال والاستنارة والجهاد ضد كل ما هو

ضد الإسلام ، وضد كل ما هو ظالم ومستبد وجائر . ولم تتوقف الدعوة الإصلاحية المطالبة بالعودة السلفية وأصول الإسلام عند الأفغانى أو تلميذه محمد عبده ، ولكنها شكلت نبعا صافيا دافقا ظل يتنامى منذ تلك الأيام حتى أيامنا هذه التى نعيش فيها .. فقد ظل فكر الأفغانى الثورى يؤثر فى سلسلة طويلة تالية من المجددين السلفيين من أمثال رشيد رضا ، السنوسى ، المهدي ، حسن البنا ، المودودى ، سيد قطب وغيرهم كثيرين . ومن تلاميذ هذه الثورة فى العصر الحاضر من الأفغان النيازى ، والسياف ، وحكمتيار ، والربانى ، والخالص ، وجميل الرحمن . كان الأفغانى قوى الإيمان والاعتماد على الله ، لا يبالى ما يأتى به صروف الدهر . إن غبار ثورته ، وأثر حركته ، وصدى فكره الثورى الإصلاحى لا يزال يترك بصماته الواضحة على الحركات الإسلامية فى كل البلاد الإسلامية ، وهو من أكثر الشخصيات الإسلامية تأثيرا وأصاله وعمقا .. وثورة الأفغان الحالية نموذج حتى لذلك .

فقد فرض الأفغانى نفسه وفكره ومنهجه على أكثر من بلد إسلامى ، وعلى أكثر من حركة إصلاحية ، وفرض ثقله السياسى والاجتماعى على كثير من المواقف والأحداث العالمية فى عصره ، وكان فكره الإصلاحى الثورى جزءا غير منفك من كل ثورة قامت فى الوطن الإسلامى . وهو الذى وضع الجذور الحقيقية للإحياء والبعث الإسلامى فى ملة الإسلام وهو الذى حرك فى أهلها الهمم والمشاعر الإسلامية، ونبهاها إلى الخطر المحدق عليها من الغرب ومن الشرق معا .

إعادة الحقيقة الإسلامية إلى واقع الشعوب الإسلامية :

دعا الأفغانى بقوة الإيمان والاعتناع إلى إعادة الحقيقة الإسلامية الكاملة إلى واقع الشعوب الإسلامية ، وبذل فى ذلك جهدا جبارا ليدفع تلك الشعوب إلى تلك الحقيقة التى حققت المثل العليا والأخلاق الفاضلة والسلوكيات السامية فى الحياة الإسلامية فى عهدها الذهبية الأولى التى صنعت النهضة الأولى لأمة الإسلام . ولم يكن من الميسور ولا من السهل وقتئذ أن تتم هذه النقلة الثورية العظيمة .. نقل الحقيقة الإسلامية الكاملة إلى واقع الشعوب الإسلامية ، أو نقل واقع الشعوب المسلمة إلى تلك الحقيقة فى طرفة عين ، أو بين يوم وليلة نظرا لبعد

المسافة الزمنية بين تلك الحقيقة وبين واقع الشعوب .. حاول الأفغانى جاهدا نقل الشعوب الإسلامية من واقع باطل إلى تطبيق الحقيقة الإسلامية من خلال الثورة السريعة التى حمل لواءها ليجعل من القرآن والسنة النبوية نبراس المسلمين وإمامهم فى كل البلاد الإسلامية . ومن أجل ذلك وضع أساس الحركة الإسلامية المعاصرة ، وركز على القرآن والسنة باعتبارهما العروة الوثقى بين الشعوب المسلمة قاطبة . وبذلك كان الأفغانى أكثر أصالة من غيره من زعماء عصره ؛ إذ إنه تمسك بالقرآن ومنهجه القويم لأجل النهوض بالشعوب الإسلامية ، ولأجل الصمود والوقوف فى وجه حركة التغريب التى نادى بها البعض ، وموقفه الصلب والحازم من نظرية دارون الإلحادية الدهرية هو أول صيحة قوية لمواجهة هذا الخطر من الفلسفة المادية ، والحركة العلمانية فى العالم الإسلامى . وقد أبرز فى ذلك خصائص الفلسفة الإسلامية ومزاياها القرآنية ودفع بها نظرية دارون الدهرية .

إن الأفغانى يحسب حب الوطن الإسلامى دينا ، والدفاع عنه جهادا ، والموت فى هذا السبيل شهادة وهذا هو الشعار المفضل للتنظيمات الجهادية الأفغانية فى الوقت الحاضر ، وهو يرى كما يرى أبناء وطنه المجاهدون أن الله قد قدر فى ذلك النعمتين ، وللسائر فى ذلك الحسينين ، وعاش فى ذلك لأجل ذلك ، ومات عليه راضيا رغم أنوف الحاسدين الذين يحاولون عبثا تأويل كلامه إلى ما لم يقصد ، وحاولوا عبثا إطفاء نور جنباته النيرة ، وبأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الحاقدون المبتطلون . إن الأفغانى فكر نير ، وعقل إسلامى رشيد قيضه الله لإحياء الحركة الإسلامية فى العالم ، فعاشت به وعاش لها ، وتمتعت بثمار فكره المستنير ، وقد قادها نحو التثوير والتطوير والنهوض لمواجهة المخاطر ، ومسايرة المستجدات مستندا فى ذلك إلى الأفكار السلفية الإسلامية الأصيلة المستلهمة من القرآن والسنة النبوية المطهرة .

لقد أثار الأفغانى ثورة فكرية ودينية وسياسية كبرى كان الهدف منها إيقاظ العالم الإسلامى من غفوته وتنبيهه إلى مخاطر الزحف العدائى الاستعمارى الغربى ، وتجديد الاجتهاد الإسلامى ، وبعث النهضة الإسلامية فى كل الديار الإسلامية من المشارق والمغرب . وقد جاءت ثورته الإسلامية الإصلاحية هذه حلقة قوية دعمها معه تلميذه الإمام محمد عبده فى إطار الدعوة الإسلامية السلفية إلى الأصولية

الإسلامية . وثورة الأفغانى مزيج من الجانبيين الدينى والدنيوى عملا بالفكرة الواردة فى هذا القول المأثور « اعمل لدينك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .. وكان يتمتع بمهابة عظيمة وعلم غزير فى كلا الجانبيين .. حيث أحس بما يشيع فى المسلمين من خرافات وأباطيل ، فأخذ يعرض الإسلام بطريقة تقنع المنكرين ، وتقمع المغرورين ، وتستنهض المنهزمين ، وتطرد الجمود والحمول من المتنايمين المتواكلين ..

غالى الأفغانى فى التركيز على الخصائص الأدبية والفكرية التى كرم الله بها الإنسان ونوه بعظمة العقل وقدرته على كشف الأسرار والأغوار الفكرية ، ويرى تعطيل العقل مرادفا للحيوانية أو الموت ، وهو يزدري بشدة الأهواء والميول النفسية ، والتقنيات الأجنبية ، ويجعل القرآن أساس الحكم فى الأرض ، ويحتقر الجمود والحمول والفلسفات الانهزامية التى تشد المسلم إلى الوراء ، وتعطل عقله وفكره .. وفى هذا نجد أنفسنا أمام صيحة مدوية قوية ثائرة من صيحات الحق ، ودعوة صادقة مخلصة من دعوات البعث ، والإحياء لواقع الشعوب الإسلامية المر . وقد عاش الأفغانى لأداء هذه الرسالة التى حمل لواءها على أكتافه ، ومات أو قتل شهيدا فى سبيلها فى إطار الظروف والملابسات التى أحاطت به فى حياته وعصره .. لم يتحكم فيه اليأس والقنوط ، ولم يستسلم أبدا للهوان والذل ، ولم يقف عند الموانع والعقبات حائرا ، وقد ذك الجبال ، وشق البحار ، وقطع القفار لتحقيق ما أراد تحقيقه ، والفوز بما أعده الله له من تأدية رسالة الإسلام ، ومجد المسلمين بعودتهم إلى الإسلام الأول .

ثانيا - الأفغانى وقصة الخلافات والخصومات :

وقصة فكر الأفغانى مع صانعى الخلافات والخصومات فى الأمة الإسلامية والنافخين فى كبرها ، والمتكسبين بها قديمة متجددة تضرب هى الأخرى بجذورها فى القدم فى أعماق ثورته الإسلامية الإصلاحية . إن القارئ ليخجل عندما يقرأ لعالم فاضل من العلماء الأجلاء وهو يصدر ويعطى حكمه هكذا جزافا حول فكر الأفغانى ودعوته الإسلامية الإصلاحية ، ولا شك أن مثل هذا الحكم الجزافى الذى لا يصدر إلا عن ضيق السلوكيات العلمية ، والأخلاقيات الأدبية ، وهو يتحدى

بذلك أبسط أحكام التاريخ ، ومسلمات الواقع التاريخي للزعامة الإسلامية .

مأساة الأفغانى مع بعض أبناء أمته :

ومأساة الأفغانى مع بعض أبناء أمته الإسلامية التى ناضل من أجل رفعة شأنها ، وكافح فى سبيل استئناف مسيرتها الحضارية ، وبعث النهضة الإسلامية فى كل شعوبها ، هذه المأساة دليل بين على حالة الاضطراب التى عاشتها وتعيشها الأجيال المسلمة ، وهى تقوّم الحدث والواقع والموقف والشخص فى إطار بنيتها التاريخية من حيث الأصالة من خلال الدائرة الإسلامية التى تدعو إلى وضع كل شىء موضعه ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وعلة هذا الاضطراب عند هذا البعض فى تقويم منهج الأفغانى تعود إلى عدم استيعاب هذا النفر من العلماء الأجلاء لظاهرة التكامل الشخصى التى تفرد بها الأفغانى من ربه البارى ، من التكوين الخالص ، والذكاء الخارق ، والذاكرة المتميزة ، والكفاءة البارعة ، والفتنة الفائقة ، والأسلوب الأخاذ فى التأثير والإقناع ، والتبحر المبكر فى علوم القرآن والسنة ، والإحاطة الكاملة فى العلوم الشرعية ، والباع الطويل فى الفلسفة والاجتماع ، وفى العلوم الكونية ، والإلتقان الكامل لعدد من اللغات واللهجات ، كل ذلك بفضل من الله وتوفيقه ، كما تميز الأفغانى بصلاحيته الاجتماعية والسياسية الواسعة محليا وإقليميا وعالميا . نعم إن عدم الاستيعاب لأبعاد فكر الأفغانى الذى كان له فضل السبق فى تجديد عالمية فكرة الإسلام ، وكان له السبق المبكر لفهم قضايا الأمة الإسلامية بعمق لمو دليل مأساة الأفغانى المفترى عليه ، ودليل حالة الاضطراب التى تعانى منها الأجيال المسلمة . ورغم ذلك فقد استطاع الأفغانى أن يؤثر تأثيرا قويا فى سير الحركات الإسلامية ، وهو تأثير له جذوره المتجددة ، ودعوته إلى الجامعة الإسلامية لتحقيق الوحدة الإسلامية بين المسلمين ما زالت تتجدد أيضا فى كل يوم وفى كل ظرف يمر به المسلمون فى هذه الحياة الموزعة بين الحق والباطل وبين الدين والسياسة .

كان الأفغانى صاحب فكر نير مستنير ، وصاحب عقل حكيم رشيد تمتعت الإنسانية بثماره ، وأفادت الحركة الإسلامية من تجاربه الناضجة ، ولكن بعض علمائنا الأجلاء قد أساء فهمه وترجمته ، لعدم فهمه لروح العصر الذى كان

يعيش فيه هذا المصلح ، فكان من الطبيعي أن يلقي منه الأفغانى نوعا من المقاومة التى أساسها الجمود ، وعدم الفهم والاستيعاب . وفك الإشكالية القائمة بين هؤلاء وهؤلاء حول منهاج الأفغانى الإصلاحى لا يأتى إلا عن طريق التوجه الكامل إلى فكر الأفغانى ومنهاجه واستيعابه استيعابا كاملا بعيدا عن ضيق الأفق ، والجمود ، والحقْد ، وبقدر ما يكون ذلك الاستيعاب الفكرى دقيقا واضحا واسعا شاملا بقدر ما يوفر ذلك حظ الفهم والوصول إلى أعماق هذا الفكر ، والنفاز إلى طبيعته الصافية انطلاقا من الواقع وليس من الوهم ويحثا عن الحقيقة وليس الجرى وراء السراب . وهذا هو مفتاح فك الإشكالية القائمة بين المؤيد والمعارض الذى دأب على داء الاختلاف ، وقد أشار الأفغانى إلى ذلك بقوله : « الشرق الشرق .. لقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ، فوجدت أن أقتل أدوائه انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف .. فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم ... » .

كان الأفغانى مجتهدا ومجددا والمجتهد معرض للخطأ والصواب ، المجتهد فى الإسلام له أجران إن أصاب الحق من اجتهاده وأجر إن أخطأ فى اجتهاده . وهو فى بعض اجتهاداته من أكثر الشخصيات إثارة للجدل والخلاف حول أفكاره الاجتهادية . كاد العقل الإسلامى أن يتوقف لتوقف الجهاد والاجتهاد ، وذلك نظرا للظروف الاستعمارية التى كانت تحيط بالعالم الإسلامى فى عصره ، ونظرا لتنشيط حركة التبشير والتنصير ، واستطاع الأفغانى بفكره الثورى الوقاد أن يعيد إلى الفكر الإسلامى نشاطه وحيويته ، وأن يوقظه من جديد ، وغذاه بالحرية اللازمة للتفكير والاستنارة باعتبار أن الجمود العقلى يساوى موت الشعوب ، فكان ذلك بمثابة إنقاذ الشعوب الإسلامية من الموت والهلاك .

ثالثا - الأفغانى وموطنه :

لست فى معرض الدفاع عن الأفغانى ومنهاجه الاجتماعى والسياسى ، وأما ما سقته من بعض النقاط حول هذا المنهاج فالغرض منه تمهيد لما هو آت من الحديث الخاص بموطن الأفغانى الذى يقول : « لقد جمعت ما تفرق من الفكر ،

ولمست شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتني الأفغان ، وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فأيران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب : من الحجاز هى مهبط الوحى ، من يمن وتباعتها ، ونجد والعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودعاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها ، وما آل إليه أمرهم .

الأفغان وهى أول أرض مس ترابها جسمى .. هذه الأرض التى مس جسم الأفغانى ترابها أرض كونر لإحدى الولايات الأفغانية الثلاثة فى شرق أفغانستان ، وهى أول أرض أعلنت الجهاد الإسلامى عام ١٩٧٤ م ، وهى أول أرض تنعم بالحكم الإسلامى ، وهى أول الفتوح فى الحروب الإسلامية الجارية فى أفغانستان ، فأين كان موطن الأفغانى فى هذه الأرض بولاية كونر ؟ ..

وقصة سادات كونر وأشرفها تضرب بجذورها التاريخية الطيبة من حيث القدم فى أعماق التاريخ الأفغانى فى هذه الأرض الأفغانية ، ومن حيث التأثير فى أعماق الحياة الاجتماعية والسياسية للشعب الأفغانى .. وبخاصة فى كونر التى يتجدد فيها إشعاع الثورة الفكرية والنضالية والإصلاحية التى أطلقها السيد الأفغانى فى القرن الماضى بتجدد الصراع بين الحق والباطل . وفوق أرض كونر دارت معارك حامية بين أهالى كونر وبين الجيش الإغريقى بقيادة الإسكندر المقدونى قد أصيب فيها الإسكندر نفسه بجراح كما أصيب فيها عدد من قواده ، الأمر الذى أثار غضبه ضد الأهالى ، فأقام مذابح جماعية قتل فيها جميع الأسرى من أهل كونر بوحشية ، ثم قام بعمليات التدمير والتخريب والتقتيل إلى أن وصل إلى أسمار فى أعلى كونر ، ومنها وصل إلى باجور حتى وصل إلى بشاور عن طريق دير وسوات .

كونر الموطن الذى ولد فيه الأفغانى :

تقع ولاية كونر الموطن الذى ولد فيه الأفغانى شمال شرق أفغانستان ، ويحدها شرقا كل من جترال ، ودير ، وباجور ، وشمالا بدخشان ، وغربا لغمان ، وجنوبا ننجرهار ، وبها سلاسل من الجبال الشاهقة تكسو قممها الثلوج ، وتمتاز جبالها بكثرة الأشجار كالصنوبر ، والبلوط والزيتون والبطم وغيرها ، وداخل وديانها تنبت طبيعيا أشجار التوت والعنب والرمان والعناب والجوز والمشمش

وأشجار الدلب وكثير من مختلف أنواع النباتات ، وأرض كونر تحتوى على كثير من الأحجار الكريمة ، والثروة الحيوانية فى كونر من أهم مواردها الاقتصادية .

ومن المناطق المشهورة فى كونر منطقة نورستان (أرض النور) التى كانت تدعى كافرستان (أرض الكفر) قبل دخول أهلها فى الإسلام أيام الأمير عبد الرحمن خان ، وذلك سنة ١٨٩٦ م . وتقدر منطقة نورستان بخمسة آلاف من الأميال المربعة التى تربط كونر بعدد كبير من الولايات الأفغانية فى الشمال والغرب والجنوب ، وفى أقصى الشرق بباكستان والصين والهند ، وهى نقطة الاتصال بين سلسلتين من الجبال .. هندوكش فى أفغانستان وجبال هملايا فى الهند .

ويتألف أهل كونر التى ينتمى إليها الأفغانى من عدد من الأصول العرقية الأفغانية كقبائل الصافى والتاجك والماموند والسالارزى والمهمند والكوجر (العجر) والنورستانى والشينوارى ، وتجتمع كلها تحت لواء العقيدة الإسلامية والوطن والتقاليد والعادات والأصل العرقى الواحد فى وحدة إسلامية متماسكة . واللغة السائدة هى اللغة البشتونية ، وهناك لهجات ولغات محلية أخرى كاللهجات النورستانية المتعددة ، والكوجرية (العجرية) والأشكنية ، والبشوية (البشئية) وغيرها من اللهجات وأغلبها مشتقة من اللغة البشتونية (الأفغانية) كما أن كثيرا منها فى طريقها إلى الفناء والموت .

ونهر كونر من أشهر الأنهار فى الأقاليم الشرقية وقد ورد ذكره فى الأدب الوبدى باسم « راسا » وهو من أهم روافد نهر كابل ، ويشق طريقه من الشمال إلى الجنوب ، ويصب فى نهر كابل بالقرب من « سمر خيل » القاعدة العسكرية التى استولى عليها المجاهدون الأفغان أخيرا ، ويتردد صدى هذا النهر فى الأدب الأفغانى كثيرا لصفاء مائه وغزارته . ويقسم كونر إلى جزئين الشرقى والغربى ، ومن الغرب تطل عليه وديان « دره نور » (وادى النور) ومزار ، وديوكل ، وباديل وبيج ، وشيكل ، وكلها منازل قبائل الصافى ومواطنها الخضراء الجميلة ، ومن روافد نهر كونر المشهورة نهر بيج . ووادى بيج من أكبر الوديان الكونرية مساحة وسكانا ونشاطا وحركة ، وعلى يد قبائل الصافى أسلم أهل نورستان قديما . وعلى يد الشيخ جميل الرحمن اشتعلت الشرارة الأولى للثورة الإسلامية وطارت من بيج حتى شملت ولاية كونر كلها .

وعلى طول نهر كونر وعلى مدى جانبيه أو شاطئيه الشرق والغرب ينتشر كثير من المدن والقرى مثل شكه ، خيوه ، بوديلي ، إسلام بور ، منكوال ، خاص كونر ، قنر ، سوكني ، بابر ، نرهنگ ، بشد ، سركانو ، نوآباد ، أسعد آباد ، الحاضرة ، كيراله (كرهاله) ، دوشاخيل (وهو مدخل وادي بيج) مره وره ، شين كولك (شين كورك) ، دانكام ، أسمار (بها القاعدة العسكرية المشهورة) ناري ، شال ، كامديش ، بريكوت ، بريكمثال ، وغيرها .

وفيما يلي المدن والقرى التي تقطنها أسرة السيد جمال الدين الأفغاني على طول ولاية كونر وعرضها ، ونبدأ القصة بإيجاز شديد بهذا التمهيد المختصر عن تاريخ حركة الأفغاني الإصلاحية :

من كونر إلى كابل :

في سنة ١٨٥٧ م ظهر في بلاط الأمير دوست محمد خان في كابل المصلح جمال الدين الأفغاني آتيا من كونر أرض آباءه وأجداده ، ومسقط رأسه ومهد آلامه وأحزانه الإسلامية حاملا فكريا ثوريا وهاجا ، وكان الأمير مشغولا بكامل قواه بالمؤامرات التي يدبرها الإنجليز والروس ضد أفغانستان ، فلم يتمكن من الاستفادة من هذا الثائر ، ولم يلتفت إلى برنامجه الإصلاحى ، ورغم ذلك واصل الأفغاني الذى ولد في أسعد آباد بكونر سنة ١٨٣٨ م ، وأصبح أحد قادة حركات التحرير في العالم ، وأحد أشهر مؤسسى الحركة الإسلامية وخاصة في أفغانستان وصاحب مدرسة كبرى في تجديد الفكر الإسلامى - واصل نشاطه الإسلامى والسياسى والاجتماعى في العاصمة الأفغانية حتى أيام الأمير شير على خان وكان أثناء ذلك من مؤيدى الأمير محمد أعظم خان ، إلا أن الاضطرابات التي صادفتها البلاد الأفغانية أصبحت عقبة في طريقه حيث كان الأمراء الأفغان في صراع مرير مع الإنجليز والروس يحاولون إنقاذ البلاد من ويلات تلك الصراعات الدامية .. « إني اضطررت لترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض ... » فقد غادر الأفغاني بلاده مضطربة ولكنه ترك فيها حركة يتردد صداها حتى الآن في جنبات جبال « هندوكش » و « نخت سليمان » نعم ، غادرها محلقا في أرجاء العالم الفسيحة حاملا دعوته السلفية الإصلاحية إلى الوحدة الإسلامية ، وإلى

تحرير الشرق من ربة الاستعمار والعبودية والاستبداد .

ترك الأفغانى محلقا فى سماء العالم الإسلامى داعيا إلى الوحدة الإسلامية فى إطار الجامعة الإسلامية ، وإلى تحرير الشرق من العبودية والاستبداد فى إطار الحرية والاستقلال ، ونعود إلى موطنه الذى ترك فيه دعوته الثورية الإصلاحية الإسلامية ، وهى تتفاعل بين زعماء أسرة السيد الأفغانى ، وجماعة العلماء والشيوخ ، وزعماء القبائل والعشائر الأفغانية . وقد لخصت الحديث عن المنازل التى تعيش فيها أسرة السيد الأفغانى فى أربع نقاط رئيسية وهى أسرة الأفغانى ، ولغته الأصلية ، وأسرة أحواله ولغتهم ، والانتماءات المشتركة بين الشعبين الأفغانى والإيرانى ، بالإضافة إلى كلمة قصيرة للرد على الافتراءات وذلك لإزالة الشك الذى أثاره بعض المتشككين بغرض التشكيك فى الزعامات الإسلامية فى العصر الحديث ، مستغلين فى ذلك ما يجرى الآن فى بعض الأجزاء من العالم الإسلامى من المنازعات المؤسفة المؤلمة . فالمسألة ليست فى كون الأفغانى أفغانيا أو إيرانيا أو ماسونيا ، بل الهدف هو التشكيك ، وإثارة البلبلة ، وزعزعة الثقة فى الزعامة الإسلامية وموقف الدكتور لويس عوض المتحايى للثقافة الغربية المسيحية غير خاف على أحد ، وكرمه للأفغانى نابع دون شك من حبه لدينه ومن ميوله للدول الغربية التى يؤمن بولائها ، ومن هذا المبدأ هاجم الأفغانى وعبر فى هجومه عن حقه الكامن فى نفسه .. كما سيأتى ذلك بشيء من التفصيل .

أسرة السيد جمال الدين الأفغانى :

ولأسرة جمال الدين الأفغانى فى كونر بأفغانستان الشرقية منزلة عالية نظرا لمكانتها السياسية والاجتماعية والعلمية إذ كانت لها الإمارة والسيادة على إقليم كونر موطن الأفغانى ، وبيته بيت علم ومجد وعز وشرف وسيادة ورأى فى الميادين والمجالات المختلفة ، ثم إن الحياة التى أمضاها السيد الأفغانى فى البلاط فى كابل ومع الأمراء من الأسر الحاكمة كان لها تأثير على شخصيته . وهذه الحياة تعتبر نقطة تحول فى كفاحه الإسلامى الوطنى ضد التبعية والاستعمار ، كما كانت حياته فى أسرته نقطة تحول فى حياته الاجتماعية والعلمية .

عاش السيد فى أسرة ذات منزلة عالية فى منازل الأفغان إذ كان بيته بيت عز

وشرف ، وإذا كان التكوين الفسيولوجى هو المؤثر فى تكوين شخصية زعيم أو فيلسوف أو مصلح فإن الوضع الجغرافى والبيئة الاجتماعية والأوضاع السياسية ومشاهد المعارك والحروب كل ذلك له تأثير قوى ومؤثر أيضا فى تنشئه الفرد وتفكيره وسلوكه تجاه المجتمع الذى عاش فيه ، وكذلك تجاه الآخرين من الشعوب والدول والحكومات .

نبغ السيد الأفغانى فى عائلة رجالها بارزون فى ميادين العلم والأدب والسياسة والنضال أشداء أقوياء تحفظ بعزتها وكرامتها وقوتها الإسلامية وسخائها وشجاعتها ونخوتها الأفغانية وعظمتها العائلية ، ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى إقليم جبلى وعلى ضفاف نهر هادر صاف نقى المياه يطبع أهله بطابع البيئة الجبلية الناضرة ، وينقاء المياه المتدفقة وهديرها ، رؤوسهم عالية كشموخ الجبال ، وقلوبهم صلبة لا تهزها الرياح العاصفة ، وأفكارهم صافية كالسمااء حين تشرق عليها الشمس ، وحول جبال كونر الشاهقة وعلى ضفاف نهرها دارت معارك ضارية ثائرة مع الغزاة والطغاة المعتدين ابتداء من معارك الإسكندر التاريخية وحتى العصر الحاضر أيام الاحتلال الروسى لأفغانستان حيث كانت أول إقليم من الأقاليم الأفغانية فاضت فيها انتفاضة الجهاد المقدس ضد الاحتلال الروسى وأعوانه . وهذه الحياة - كما أسلفت - نقطة تحول أخرى فى حياته الاجتماعية .

بيت السيد الأفغانى بيت علم وثقافة بالإضافة إلى مكانته السياسية والاجتماعية ، تعلم السيد اللغات العربية والأفغانية والفارسية ، وكانت الثقافة الإسلامية مسيطرة ومنتشرة فى البلاد الأفغانية ، وفيما جاورها من البلاد ، وقد نبغ فى هذه البيئة الإسلامية علماء فى علوم التفسير والحديث والفقه من أمثال القاضى مبارك ، والعالم الفاضل حمد الله ، والكاتب المؤلف محمود الجونفورى ، والمنطقى الشهير عبد الحميد السالكوتى ، والمحدث العظيم الشاه نعمة الله ، وكان معاصروه وزملاؤه فى الكفاح ؛ نجم الدين العالم ، والمناضل صديق حسن ، والشيخ أخصزاده السواتى ، والملا مشك عالم ، وغيرهم من العلماء المناضلين ، وكانت الصلة قوية ومتينة بين السيد الأفغانى وبين هؤلاء المناضلين فى بلاد الأفغان .

عاش الأفغانى فى كونر كما عاش فيها آباؤه وأجداده ، وكان يتردد على مدينة

« جلال آباد » حاضرة « نكرهار » لدراسة العلوم العربية ، ووفقا للتقاليد الأفغانية في رحلة الشتاء والصيف كان السيد الأفغانى يسافر مع أسرته إلى منطقة « خوكيانى » الجبلية لقضاء فصل الصيف هناك في سفح الجبل الأبيض (سبين غر) في نكرهار ، ويلاحظ أن سادات كونر وأشرافها وغيرهم من الأغنياء يملكون بيوتا في كونر للمعيشة الدائمة طوال العام ، كما يملكون بيوتا أخرى في المصايف مثل « خوكيانى » وكابل وغيرهما من المصايف الأفغانية لقضاء أشهر الحر في الصيف ، وكنوع من تغيير الجو ، فأسرة السيد كونرية أفغانية انتشر أبنائها في الأقاليم والمناطق الأفغانية المختلفة ، أما في وادى كونر فلهم فيها خمسة مراكز رئيسية ، بالإضافة إلى قرى ومدن أخرى منتشرة في جميع أنحاء الإقليم يعيش فيها أشراف كونر وساداتها ، وهذه المراكز هي :

١ - إسلام بور (مدينة الإسلام) وتقع على شاطئ نهر كونر عند مدخل الوادى على يمين الذهاب إلى الحاضرة « أسعد آباد » وقلاعها الحصينة ما زالت شاهقة شموخ أهلها ، وكأنها في سياق مع الزمن والجبل والنهر ، ومدينة « إسلام بور » القديمة التى يقطنها فرع آخر من هذه الأسرة الكريمة ، والسيد مصطفى (بابا باشا) كان عميدا لأسرة السيد في « إسلام بور » حتى منذ عدة أعوام مضت .

٢ - نرهنك (قبيلة الشهامة والرجولة) نراها رابضة في وسط وادى كونر ، وتقع أيضا على شاطئ النهر في الساحل الغربى ، وفي مقابلها على الجانب الآخر من النهر تريض قرية « بشد » التى تشتهر بحقول الأرز الجيد الممتاز ، وتسكنها طائفة من سادات كونر وأشرافها ، وعميد أسرة السيد في « نرهنك » هو السيد غلام رسول باشا .

٣ - دو شاخيل (قبيلة السادات) وتقع بجوار « أسعد آباد » الحاضرة ، على شاطئ نهر « بيج » تحت سفح الجبل ، ويلتجئ إليها أفراد قبائل « صافى » وغيرهم لحل المنازعات القبلية ، والمشاكل الاجتماعية ، وللتبرك أيضا .

٤ - شين كولك (شين كورك) (الطوفان الأخضر) وتقع بين « أسعد آباد » و « أسمار » بعيدا عن الشاطئ ، وأحد أفراد هذا الفرع من الأسرة كان سفيرا لأفغانستان في

مصر ، وهو السيد شمس الدين مجروح . وأسمار هذه قاعدة عسكرية هامة في الوادى ، وكانت مسرحا للمعارك الدامية بين الثوار المجاهدين الأفغان ، وبين القوات الحكومية الموالية للشيوعية ، وقد استسلمت بكامل أفرادها وأسلحتها للمجاهدين .

٥ - شال (الرداء النسائي) وتقع بين « أسمار » و « كامديش » في أعالي وادى كونر ، بالقرب من حدود مقاطعة « دير » المشهورة ، ومن أشهر شاعرات هذه الأسرة في « شال » هي (مستورة شال) التي كانت تعمل مذيعة بإذاعة كابل ، وكانت لها مشاركات أدبية وشعرية ونقدية في الإذاعة والصحافة الأفغانية .

وهكذا نرى انتشار أسرة السيد جمال الدين الأفغانى في مختلف أنحاء منازل الأفغان في أفغانستان وغيرها ، وخاصة في وادى كونر بأسفله وأعاليه ووسطه ذلك الوادى الذى لا يتكلم أهله إلا اللغة الأفغانية .

لغة السيد جمال الدين الأفغانى الأصلية :

تنتشر في أفغانستان لغات ولهجات كثيرة ، يزيد عددها على ٣٥ لغة ولهجة أفغانية ، أكثرها رواجاً وانتشاراً لغتان .. الأولى : الأفغانية التى اشتهرت باسم البشتونية أو البختونية ، والثانية : الدرية التى تعرف باسم الفارسية ، وكان السيد الأفغانى يجيد اللغتين ، فما هى لغته الأصلية يا ترى ؟؟ إن السيد الأفغانى من سادات كونر المشهورين وأشرافها الذين لا يتكلمون إلا اللغة الأفغانية (البشتونية) كبقية القبائل الأفغانية التى تقطن هذا الوادى الجميل ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فإن جدته من الأم السيدة مريم كانت ابنة الزعيم دولت خان تزوجها السيد على الترمذى عندما استقر به المقام في « دير » بعد انتقاله إليها من موطنه الأصلي ، والزعيم دولت خان ينتمى إلى الأسرة الحاكمة التى كانت لها السيادة على إقليم « دير » المجاور لإقليم كونر ، فالأستران .. أسرة السيد كانت لها السيادة في كونر ، وأسرة أخواله كانت لها السيادة على مقاطعة دير ، وهى تنتمى إلى قبيلة « اليوسفزى » الأفغانية المشهورة . وأفراد هذه الأسرة أيضا لا يتكلمون إلا اللغة الأفغانية (البختونية) فالسيد أفغانى كونرى المولد ، وأفغانى

الأصل أبا وأما ، وأفغانى لحما ودما ، وكان يتكلم اللغة الأفغانية لغة آباءه وأجداده ، وتعلم اللغة الفارسية لغة البلاد الأفغانية الثانية ، كما كانت الأسمتان لا تعرفان فى ذلك الوقت غير اللغة الأفغانية (البشتونية) أو (البختونية) ولذلك نراه يطالب الحكومة الأفغانية حينذاك بتقوية هذه اللغة والنهوض بها ، وذلك عندما قدم إليها برنامجها الإصلاحى المشهور .

وبالإضافة إلى ذلك كان السيد يتكلم اللغة الأفغانية مع ملازمه الوفى أى تراب الأفغانى الذى عاون الشيخ محمد عبده فى ترجمة كتاب السيد « الرد على الدهرين » إلى اللغة العربية ، وكان كذلك يتكلم مع صاحبه وصديق أسفاره الحاج موسى القندهارى الذى كان يرافقه فى مصر وفى تركيا ، وكان من أصدقاء السيد الأفغانى أيضا السردار عبد الله خان الذى لم يكن يتكلم أو يجيد إلا اللغة الأفغانية ، وقد كان الشيخ الشهيد عبيد الله خان صافى الذى ترجم العروة الوثقى إلى اللغة الأفغانية ، قد قابل الحاج موسى القندهارى الذى لم يكن يتكلم أو يجيد إلا اللغة الأفغانية ، وقد قص عليه بالتفصيل ما كان يجرى بينه وبين السيد الأفغانى من الحوار والمناقشات والأحاديث فى أسفارهما .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : « ... وفى نفيه الأخير إلى الهند كتب مذكرات كثيرة فى موضوعات مختلفة بالفارسية والأفغانية ... » . ومن المعروف أن السيد جمال الدين الأفغانى كان قد أصدر أول جريدة فى أفغانستان باسم « كابل » كما يرجع الفضل إليه فى صدور جريدة « شمس النهار » أيام الأمير شير على خان ، فعلى السيد كتب هذه الموضوعات الكثيرة للجريدة أو صحيفة « كابل » أو للجريدة « شمس النهار » على اختلاف الأقوال فى الأقدمية .

وكان السيد الأفغانى يسكن فى منطقة شرق كابل العاصمة الأفغانية فى حى يدعى « سراجى » وكان الناس فى هذا الحى يلقبونه بالشيخ الكونرى وبالملا الكونرى نسبة إلى موطنه كونر بأفغانستان الشرقية ، ويلاحظ أن أهالى الولايات الشرقية يتمركزون حتى الآن فى الأحياء الشرقية من كابل .

كان زعماء أسرة السيد جمال الدين الأفغانى يقودون الغزوات الهجومية ضد الجيوش الإنجليزية التى كانت تتمركز على الحدود بين أفغانستان والهند

البريطانية .. إننى ما زلت أذكر جيدا - كأنتى أسمع وأرى - تلك الصرخات والهتافات المدوية التى كان يتردد صداها ووقعها الجميل فى جنبات وادى « بيج » الضيق فى كونر عندما أعلن زعماء أسرة السيد الجهاد المقدس ضد الحكومة الإنجليزية التى أعلنت عزمها على إنشاء طريق فى منطقة « مومند » (منطقة القبائل الأفغانية الحرة) المتاخمة لحدود أفغانستان فى إقليم كونر منبت السيد الأفغانى ، وكان الإنجليز قد استقطعوها وضموها إلى إمبراطوريتهم فى الهند ، وما زلت أشاهد تلك الحشود البشرية المتوجهة نحو الحدود بقيادة زعماء سادات كونر للاشتراك فى الحرب المعلنة ضد الإنجليز مع القبائل الأفغانية الأخرى ، وقد حاولت - وأنا صغير - الاشتراك فى الجهاد إلا أن الأخ الأكبر هو الذى اشترك فيه مع بقية أفراد قبيلة « صافى » ومنعنى بشدة وبنوع من الزجر لصغر سنى .

أسرة أخوال السيد جمال الدين الأفغانى :

قلنا : إن لأسرة السيد الأفغانى منزلة عالية فى منازل الأفغان فى الميادين والمجالات العلمية والسياسية والاجتماعية ، وقد تحدث عنها كل من أرخ للسيد الأفغانى ، أو تحدث عن فلسفته الإصلاحية ، فهل كانت أسرة أخواله تتمتع بمثل هذه الشهرة والمنزلة العالية ؟ هل كانت لها منزلة رفيعة فى المجالات العلمية والسياسية بين القبائل الأفغانية وعشائرها ؟

لعلنا نعرف جميعا كتابا مشهورا فى الفقه الحنفى وهو « وقاية الرواية فى مسائل الهداية » المشهور بين أهل العلم وطلابه فى أفغانستان باسم « شرح الوقاية » لمؤلفه برهان الشريعة محمود بن صدر الشريعة عبيد الله المحبوبى ، وحظى الكتاب بعشرات من الشروح والحواشى ، منها حاشية « لاجبوكى » التى طبعت لأول مرة فى مدينة بشاور ، ومؤلف هذه الحاشية اللاجبوكية هو الملا « بازير » اليوسوفزى ابن الشيخ إلياس الزعيم والشيخ الأكبر فى هذه الأسرة ومؤسسها الأول ، وقرية « لاجبوك » تتمتع بشهرة علمية كبيرة بسبب حاشية اللاجبوكى للملا (الشيخ) بازير ، وبسبب وجود ضريح أبيه الشيخ إلياس فيها ، وكان الشيخ إلياس هذا قد تعلم الطريقة الصوفية النقشبندية على يد الشيخ آدم المشوانى الأفغانى الذى كان يعيش فى البنجاب بالهند ، وعندما أمر الإمبراطور المغولى

« شاه جهان » بطرد الشيخ آدم من البلاد توجه إلى البلاد الحجازية المقدسة ومعه تلميذه ومريده إلياس ، وقد توفي الشيخ آدم بالمدينة المنورة عام ١٠٥٣ هـ ، وعاد الشيخ إلياس إلى بلدته « لاجبوك » وواصل إرشاد الناس على الطريقة النقشبندية ، وتوفي عام ١٠٨٦ هـ عن عمر كان يزيد على ٩٠ عاما .

وكان الشيخ إلياس يتمتع بزعامة أسرة أخوال السيد جمال الدين الأفغانى فى المجالات العلمية والروحية إلى جانب الزعامة الاجتماعية ، بينما كان ابنه الملا بازمير يمثل الزعامة العلمية فى حلقات الدرس والتحصيل فى مسجد بلدة لاجبوك ، وعندما زاد عدد أفراد هذه الأسرة ، وضاعت بهم بلدة لاجبوك قام الشيخ غلام محمد خان أحد أحفاد الشيخ إلياس النقشبندى المجددى بنقل الأسرة كلها إلى مدينة « دير » الحاضرة ، وكان الرجل طموحا فجمع من حوله القبائل ، فاجتمعت له الزعامة الدينية ، وزعامة القبائل بجانب الزعامة العلمية ، تولى بعده أمر هذه الزعامة المزدوجة ابنه الشهير محمد قاسم خان اليوسفزى ، واستمرت الإمارة والسيادة والزعامة فى هذه الأسرة - أسرة أخوال السيد الأفغانى - إلى عصور متأخرة .

إلى هذه الأسرة الدينية والصوفية والعلمية والسياسية ينتمى الزعيم دولت خان الأفغانى والد السيدة مريم التى تزوجها السيد على الترمذى الجد الأكبر للسيد الأفغانى ، فهو إذا ينتمى إلى جد كريم من سادات كورن وأشرافها ، وإلى جدة كريمة من سادة القبائل اليوسفوية الأفغانية .

الانتماء المشترك بين الأفغان والفرس :

لاشك فى أن التاريخ المشترك بين الشعبين المسلمين .. الأفغانى والإيرانى ، والحدود المتداخلة بين البلدين الشقيقين .. أفغانستان وإيران ، والتشابه الشديد بين التقاليد والعادات الأفغانية والإيرانية ، والاشتراك فى الثقافة واللغة ، مع الاشتراك فى كثير من أسماء الأقاليم والمدن والقرى والأنهار ، والانتماء المشترك إلى الجنس الآرى ، كل ذلك له تأثير قوى فى الانتماء إلى صفات مشتركة ، وبالتالي فإن ذلك كله يمهّد الطريق للادعاءات فى نسبة المفاخر الأدبية والتاريخية ، وخاصة إذا كان أحد الطرفين يتمتع بإمكانيات لا يتمتع بها الجانب الآخر مثال

ذلك كله ما يأتي كتناذج للتوضيح وليس على طريق الحصر :

١ - الاشتراك في الانتماء إلى الجنس الآرى : من الثابت تاريخيا أن الجنس الآرى أو القبائل الآرية القديمة كانت تعيش قبل الميلاد بآلاف السنين في مهدها الأول في أعالي جبال « بامير » أو في المناطق الشمالية من أفغانستان بالمعنى الأوسع ، وكانت لها هجرتان بعد أن ضاقت بها تلك الأجزاء من أفغانستان .. الهجرة الأولى كانت إلى الشرق وفيها قامت بنشر اللغة الآرية وآدابها وطقوسها الدينية في كتابها « الويدا » في ربوع الهند الفسيحة ، وكانت الهجرة الثانية إلى الغرب وفيها قامت بنشر لغتها الثانية الزندية وآدابها وديانتها في كتاب « الأوستا » للزردشت الآرى الذى ولد في مدينة بلخ التاريخية في شمال أفغانستان ، وقد آمن بها الملوك الآريون من الأسرة الأسبسية البلخية المشهورة ، فالديانة الأولى - إن صح هذا التعبير - بدأ ظهورها على أيدي الريشيين (الشعراء) في أفغانستان ، ثم نضجت واكتملت في البلاد الهندية ، فهي ديانة أو طقوس دينية آرية (أفغانية - هندية) والديانة الثانية الزردشتية نشأت على الأرجح في شمال أفغانستان وانتشرت في إيران وتمركزت هناك فهي أيضا ديانة آرية (أفغانية - إيرانية) وعلى هذا فإنه يجوز لكل من البلدين أن يدعيها لنفسه ، وخاصة بعد أن قام الاستعمار بإحياء القوميات التاريخية والعقائد الخرافية للشعوب القديمة لمحاربة الإسلام .

٢ - من الثابت تاريخيا أيضا أن أساطير رسم الخرافية قد تمت وجزت أحداثها بين كل من إقليمى سيستان وزابلستان في أفغانستان الجنوبية الغربية ، وهما إقليمان تاريخيان قديمان ذكرهما أصحاب الشهنامات أمثال الفردوسى وغيره كثيرا ، وإلى زابلستان هذه ينتمى السلطان محمود الغزنوى حيث كانت أمه من بنات أحد أمرائها ، ومن هنا يلقب أحيانا بالزابلى أيضا ، والإقليمان ما زالا موجودين باسميهما التاريخيين .. سيستان وزابلستان ، هذا في هذا الجانب ، وفي الجانب المقابل في إيران يوجد الآن منطقتان بهذين الاسمين .. بمعنى أن جزءا من سيستان التاريخية اقتطعته الحكومات القديمة وضمته إلى إيران ، أما زابلستان فلست أدرى كيف وجدت في إيران الحالية غير أن نقول : تسمية جديدة هناك لنسبة المفاخر الخرافية إليها . علما بأنه لا توجد حدود مشتركة بين زابلستان

الأفغانية وبين ما يسمى بـزابلستان في إيران الحالية ، كما هو الحال بين سيستان الأفغانية وسيستان الإيرانية .

٣ - التاريخ يقول والواقع يثبت أن الطالقان تقع وتوجد في أفغانستان الشمالية وإليها ينسب عدد كبير من العلماء والأدباء والكتاب ، وهناك الآن إقليم في إيران يسمى طالقان أيضا ، ولا توجد حدود مشتركة بين الطالقان الأفغانية التاريخية القديمة وبين الطالقان في إيران ، ولعل السبب هو وجود عدد من المفاهير الأدبية والعلمية في الطالقان ، ونسبة هذه المفاهير إلى الطالقان الإيرانية دون الأفغانية .

٤ - ومن الأسماء المشتركة بين البلدين المسلمين أيضا .. مرغاب الأفغانية ومرغاب الإيرانية ، وأسعد آباد الأفغانية في كورنر بأفغانستان الشرقية ، وأسعد آباد الإيرانية ، وكذلك أسد آباد الأفغانية وأسد آباد الإيرانية ، أما إسلام آباد فاسم لثلاث مدن في كل من أفغانستان ، وإيران ، وباكستان ، ومن الأسماء المشتركة في الأنهار .. هلمند الذي يلقب بنيل أفغانستان ، و « هريرود » في غرب أفغانستان .

٥ - وقدما ادعى الإمبراطور الفارسي دارا الكبير أن أم الإسكندر المقدوني كانت جارية من جواربه حيث قام أحد ملوك اليونان الأقدمين بتقديمها له كهدية ، وعندما غضب عليها أعادها إلى بلادها وهي حامل بالإسكندر الأكبر . فلما ولد الإسكندر وكبر قام بالهجوم على الإمبراطورية الفارسية وهزمها انتقاما لأمه المطرودة . فإذا كان الإسكندر قد هزم الإمبراطور الفارسي فإنه فارسي الأصل وليس من الأصل الإغريقي ، وبالتالي لم يتلق الهزيمة من الإغريق .

٦ - يدعى بعض الكتاب الإيرانيين أن سليمان عليه السلام ما هو إلا جمشيدا (يما) الإمبراطور الآري القديم الذي تمكن بسلطانه أن يسخر الجن والنور في صناعة عرش له يطير في الهواء . وههدفهم من مثل هذه الخرافات والأساطير نسبة المفاهير إلى الجنس الفارسي .

٧ - الأسر البيشداوية والكيانية والأسسية أسر ملكية جاء ذكرها في كتاب الأوستا وكانت تحكم البلاد الآرية (الأفغانية) قبل الهخامنشيين والماديين بزمن طويل ، أي لا علاقة زمنية بين البيشداديين والكيانيين والأسبيين في باختر الأفغانية

وبين الهخامنشيين والماديين فى إقليم فارس القديم . وللبيشداديين والكيانيين والأسبيين مفاخرهم القومية والأدبية والبطولية جاء ذكرها فى كتاب الأوستا ، هذه البطولات والمفاخر نسبها بعض الكتاب إلى الهخامنشيين والماديين لأن عظمة الإمبراطورية الهخامنشية والمادية تقتضى ذلك .. إن المجد والعظمة ليس إلا للملوك إيران قديما وحديثا .

٨ - زردشت الآرى من بلخ فى أفغانستان الشمالية وبما أن بلخ خارجة عن النطاق الهخامنشى الإيرانى القديم ، فيجب إذن فرض وجوده وحياته فى الدولة الهخامنشية لأنه فى نظرهم مفخرة من المفاخر التاريخية ، والمفاخر التاريخية والأدبية والدينية والبطولية يجب ألا تخرج عن النطاق الإيرانى قديما وحديثا . علما بأن كتاب الأوستا لا يذكر الهخامنشيين على الإطلاق .

٩ - هاجم بعض الكتاب الإيرانيين السلطان محمود الغزنوى لمجرد أنه لم يقدر المفاخر الجاهلية التى قدمها له الفردوسى فى الشاهنامه ، فاتهموا السلطان محمود بأنه لم يكن يجيد الفارسية وبالتالى لم يقدر شاعر الشاهنامه الشهير .

١٠ - وادعاء عدد من العلماء فى إيران وجود كلمات فارسية فى القرآن الكريم معروف لا يجوز للمسلم الدخول فى تفاصيلها وما وصلوا فى ذلك إلى تأويلات خرافية تشبه تأويلات علماء بنى إسرائيل قديما .

إن هذا الاشتراك والامتزاج فى الأسماء والجنس واللغة والأدب والأنهار والحدود يسهل موضوع نسبة المفاخر إلى الجانب الآخر المقابل ، وخاصة إذا كان الجانب المقابل يتمتع بمزايا ادعائية وإمكانيات لا يتمتع بها هذا الجانب .. والمضحك المبكى فى هذا الشأن أن القائمين بهذا الغش التاريخى يستدلون بما يأتى :

أولا : أن أفغانستان كانت جزءا من إيران تمكنت القبائل الأفغانية من تكوين دولة مستقلة خاصة بها بطريق أو بآخر وفقا لادعائهم الواهى .

ثانيا : وجود مناطق وأقاليم ومدن وقرى وأنهار بالأسماء المشتركة ، ولا يهجم بعد ذلك أن تكون تلك الأسماء حقيقية أو مخترعة ، هى أسماء على كل حال مستعملة فى كل من البلدين .

والدليلان لا أساس لهما من الصحة ، وأقوامهما في نظرهم أضعفهما في نظر الحقيقة التاريخية والعلمية ، فكون أفغانستان كانت جزءا من إيران في بعض العصور ليس دليلا على أنها إيرانية ، لأن إيران في بعض العصور تمكنت من الاستيلاء على كثير من البلاد في الشرق والغرب ، فهل هذه البلاد التي استعمرتها إيران قديما إيرانية ؟ وهل يجوز لنا أن نطلق على الهند بأنها جزء من بريطانيا ؟ مع أن بريطانيا حكمت الهند أكثر من مائة وعشرين سنة ، ولو ألقينا النظرة المحايدة على تاريخ المنطقة التي يطلق عليها الآن اسم أفغانستان وإيران فإننا نرى أن إيران كانت جزءا من أفغانستان في كثير من العصور القديمة والحديثة كالعصور الكوشانية والهياطلية قبل الإسلام ، والعصور الغزنوية والغورية بعد الإسلام ، وأيام الدولة الهوتكية والدرانية في العصور الحديثة ، وإذا كان إطلاق اسم أفغانستان حديثا على الأراضي الأفغانية فإن إطلاق إيران على الأراضي التي تسمى اليوم بإيران حديث أيضا ، شأنها في ذلك شأن أفغانستان تماما .

فالخلفية التاريخية لهذا الصراع قديمة قدم الشعبين المسلمين الأفغان والإيراني ، وقد تفنن بعض الكتاب في استغلال هذه الخلفية التاريخية المشتركة تفننا عجيبا ومضحكا حتى وصل الأمر ببعض إلى اختراع الأسماء ، وإذا تعذر عليه ذلك قال مدعيا : إن أفغانستان كان جزءا من إيران ، وكلاهما مضحك ، وشر البلية ما يضحك .

رابعا - حركة الأفغانى وظلم ذوى القرى والخصوم :

وقع الظلم على السيد جمال الدين الأفغانى وعلى حركته الإصلاحية مرتين .. مرة من قبل أعدائه الذين عادوه وطاردوه وظلموه وهو حى ، ولم يتورعوا في الظلم والمطاردة والعداوة عن استخدام أخبث الأساليب المعروفة لديهم ، واتهموه بكل التهم ، وسلبوا منه كل محمدة ، لم يتحروا في ذلك الحقيقة ، ولم يحاولوا تحليل أفكاره ومواقفه وما مر به من أحداث ، كل ذلك طمعا في إبادة ما يدعو إليه من الأفكار التي دوختهم وخلقت أخطارا لمصالحهم . ولحركة الأفغانى أعداء كثيرون من ذوى القرى ومن غير ذوى القرى ، فقد كان من حظ هذه الحركة أن يتكالب عليها أعداء متناقضون في ظاهر الأمر ، ولكنهم متفقون على هدف واحد مشترك

وهو الحيلولة دون قيام أية حركة إسلامية أصلية قوية في العالم تقف في وجه ظلم الظالمين ، واستغلال المستغلين واستبداد المستبدين مهما كلفهم ذلك من ثمن . وقد حاولوا بكل الطرق استيعاب هذه الحركة واحتواء زعيمها ، وإيقاف ما يدعو إليه من الإصلاحات ، وقد وصفوه بكل رذيلة وشر ، وأسندوا إليه كل نقيصة وذنبة ، ومن ثم لم يكن غريبا أن يتشدقوا بتهم ادعائية لا يسندها الواقع ، ولا تؤيدها البراهين ، بل إنهم بذلوا جهودا خبيثة على المستويين السياسى والإعلامى لاثام الأفغانى والوقوف عقبه في سبيل تحقيق آماله العريضة لتوحيد الشعوب الإسلامية كنواة لإنشاء الجامعة الإسلامية ، وذلك إدراكا منهم لخطورة تأثير هذه الدعوة الصادقة على أهدافهم وأغراضهم ، وكان هذا الفريق من أعدائه مؤلفا من ذوى القرى ومن غير ذوى القرى ، ومن المنتمين إلى الإسلام ومن غير المنتمين إليه ، ومن أعداء الإسلام . إن ما كتبه الدكتور لويس عوض عن الأفغانى يعد استمرارا دون شك لتلك الحملة المسعورة التى بدأت في حياة الأفغانى ولم تنته حتى الآن .. إن أعدى أعداء الأفغانى ، وألد أعداء الحركة الإسلامية ، وأشد أعداء الشرق ، وأكثر العلماء حبا للغرب وللثقافة الغربية ، وأكثر العملاء تفانيا في الدفاع عن كابوس الاستعمار الغربى في بلاد الشرق الذين نقدوا الأفغانى وحركته ، وحاولوا تشويه بعض جوانب من شخصيته الفذة لم يبلغوا ما بلغه داعى التغريب والتصليب صاحب القلم المأجور الدكتور لويس عوض في حلقات بحثه عن الأفغانى الذى نشرته مجلة التضامن التى تصدر في لندن باللغة العربية ، والقارىء يدرك السر في هذا الاختيار .. لندن التى تمت فيها مؤامرة سلمان رشدى ضد الإسلام بعد نشر مؤامرة الدكتور لويس عوض ضد الأفغانى بسنوات ، إن العملية سلسلة من المؤامرات متصلة الحلقات تحاك ضد الإسلام وضد زعماء الإسلام في لندن ... في المؤامرة الأولى قذف الدكتور لويس الأفغانى بكل النقائص والنقائص والمثالب وسلب منه كل الحماد والمحسن والمكارم حتى يخيل إلى كل من يجهل تاريخ هذا المناضل الأفغانى أنه ذلك الإنسان « الذى يتخبطه الشيطان من المس » كالدكتور لويس عوض الذى أصابه مس من شيطان الحقد والتغريب ، ومن شيطان الكراهية والعداء لكل ما هو إسلامى . والغريب أن أسلوب الدكتور لويس بمكانة من الخبث يوحى أن هجومه على الأفغانى مبنى على الدفاع عن

الإسلام بينما واقع الحال والمقال يؤكد غير ذلك ، وهذا الأسلوب الماكر هو بعض ما تتميز به المؤامرة الأولى في لندن ضد هذا الزعيم المسلم .

أما المرة الأخرى التى ظلمت فيها حركة السيد جمال الدين الأفغانى وما تزال تظلم فهى تخلى المسلمين عنها ، وإهمالهم لها ، وعدم التفاتهم إليها رغم كل المعانى الجميلة والأسس القيمة ، والآمال المتألقة التى كشفت عنها هذه الحركة ، وبعثت فى الشعوب الإسلامية والشرقية الحياة والنشاط من جديد بعد أن ران عليها صدى الإهمال وعلاها ، وغطاها ركام الغفلة والركون إلى متاع الدنيا فى حياة الأمة الإسلامية فى العصر الذى كان يعيش فيه الأفغانى . إننا نرى هذا التخلي والإهمال فى المسلمين عامة ، وفى مواقف بعض من ينتمى إلى العلماء والمثقفين الذين لا يكتفون بالإهمال والتخلي ، بل يتجاوزون ذلك ويضعون الأفغانى داخل دائرة سوداء خاصة يرسمونها له بأنفسهم لاتمت إلى الحقيقة بصلة ، وكأنهم يرسمون له صورة كاريكاتيرية هدفها التشويه وإسقاط الاحترام والوقار والتقدير .. وبالتالي تشويه صورة الزعامة الإسلامية فى العصر الحديث . فإذا كان الأفغانى هدفا للهجوم القاذع هذه المرة فإن دور الزعماء المصلحين الإسلاميين فى المرات القادمة ، ومجلة التضامن فى لندن عندها استعداد لنشر مثل هذه المهزليات القاذعة . وهؤلاء مازالوا يقومون بإصدار بيانات النيل من حركة الأفغانى ، وعلى رأسهم الكاتب الأجنبى روبرت كارمن دريفوس الذى اتهم الأفغانى فى كتابه « رهينة الخمينى » بأنه مؤسس الإرهاب فى العالم فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وامتد إلى الربع الأخير من القرن العشرين ، وتبعه فى ذلك الدكتور لويس عوض الذى هو على دينه وعلى دين ذلك الاستعمار الذى حاربه الأفغانى ، يقول لويس : « كنا جميعا مخطئين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى ، رجل يوزع السعوط ييمناه وينشر الثورة بيسراه . كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين الأفغانى ثائر إسلامى ، ومصلح اجتماعى ، ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته . إن جمال الدين الأفغانى عكس ما كنا نتصور .. إن اسمه ليس هو اسمه ، إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى ، وليته كان إيرانيا فحسب ، إنما هو الإيراني الغامض .. وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون » .

إنه يحاول عبثا تحطيم صورة الثائر الأفغانى لأجل تحقيق هدفه الغامض الماكر

الخيث الذى يرمى من ورائه عزل الشباب المسلم عن ماضيه المجيد ، ومحاصرته فى الحاضر الخاسر ، وتجريده من ثروة تراثه العظيم . ثم جره بعد ذلك بسهولة إلى هاوية التغريب الذى يدعو إليه ، ليرى نفسه فى النهاية ولا شعوريا مكبلا محاصرا بين الصليبية التى هى غاية الدكتور لويس والصهيونية التى هى أخت الصليبية فى كراهيتها وعداوتها للزعامة الإسلامية . إن هؤلاء المهملون والمتخلفون الذين يضعون الأفغانى فى دائرة العداوة السوداء عن هذا الهدف الغامض ساهون ، وفى اتهامهم للأفغانى لانغون ، وعن المصالح الإسلامية العليا غافلون ، وإلى الافتراءات الهزلية لكل من روبرت كارمن ولويس عوض لا يلتفتون وما لهؤلاء القوم لا يعقلون .

إننا نرى هذا التخلل والإهمال فى الموقف لقلة من المفكرين الذين يتركون الأفغانى وحركته الإسلامية وأفكاره الإصلاحية نهبا لكاتب دساس ، لدجال كذاب ، لمغامر حاقد ، لمخاطر مخبول ، لعميل التغريب ، لممثل الأحقاد الصليبية ، الذى أراد أن ينتقم لأفكاره الغربية فتناول الأفغانى بالإقذاع والافتراء ، واتهمه بتلك التهم المبدعة وهى من اختراع هذا الكاتب الحاقد الذى طعن فى شرف الأفغانى وعلمه وعقيدته ، والقبول بهذا الطعن والسكوت عليه هزيمة منكرة ، ونصر للصليبية الحاقدة التى يدعو إليها ، ونصر للتغريب الذى يؤمن به ويدعو إليه ، ويدافع عنه ، إن كرمه الشديد للأفغانى نابع من حبه الشديد لدينه واحترامه الأشد لدور الغرب الذى هو أحد ربابه فى احتلال الشرق الإسلامى الذى هو يعاديه بأفكاره المسمومة .. إن ما كتبه لويس عوض عن الأفغانى قد جاوز كل حد معقول .. كل حد فى الإقذاع والبذاءة والافتراء والتهم ، لم يلتزم بأصول البحث ، ولم يستخدم الأدوات اللازمة للتوصل إلى الحقائق المنهجية التاريخية ولم يرجع إلى العصر الذى كان يعيش فيه الأفغانى ، بل رجع إلى عالم الجاسوسية وإلى عالم السفارات والشرطة إن هذه العوالم الكاذبة لا تصنع التاريخ .. لا تصنع تاريخ رجال التاريخ ، إنها تشوه التاريخ . وبناء على ذلك فقد قام لويس عوض باستنباطاته الخاطئة وفقا على هواه الغامض دون مراعاة أصول البحث .. تلك الاستنباطات التى وضعها فى مخيلته قبل الكتابة عن الأفغانى الأمر الذى قاده إلى تجاهل سلسلة من الحقائق ، وإلى تغليب التحليل الشخصى المغلف بالأهداف فى دراسته عن الأفغانى . كان يجب على لويس عوض أن يقوم

بإبراز المنهاج التاريخي الذي يقتضى بدوره إبراز العنصر الرئيسى المؤثر فى حركة الأفغانى وفى عالمه السياسى ممثلا فى الحملة الإمبريالية التى تعرضت لها البلاد الشرقية فى تلك الحقبة من تاريخ الشرق .

ونرى هذا التخلّى والإهمال فى مواقف بعض المفكرين من علمائنا الأجلاء الذين يتكون زعماء الإسلام منها مباحا لبعض الكتاب من عشاق التنصير والتغريب ، وعلى رأسهم لويس عوض الذى يقصد العقول ، ويغزو النفوس ، ويملؤها حقدا وضغينة وتشكيكا ، وقلة قليلة من هؤلاء الأجلاء الذين يقومون بإهدار طاقاتهم الفكرية والعلمية التى هى ملك عام للإسلام والمسلمين فى قضايا مصطنعة يشغلون بها أنفسهم ولا يرون فى حركة الأفغانى الإسلامية العظيمة ما يستحق العناية والدفاع ، والوقوف فى طريق من يهاجمها من الداعين إلى التنصير والتغريب ، وهم يهتمون بالصراعات القولية والقضايا الفرعية أكثر من اهتمامهم بالموضوعات الجوهرية .

ألا ما أبشع الظلم بالتخلّى والإهمال بترك الزعامة الإسلامية منها للثام وبخاصة إذا كان الظلم من أخ لأخيه ، أو إهمال أخ لأخيه ، وتخلّى أخ لأخيه ! ما أحسن من قال :

وظلم ذوى القرى أشد مرارة على النفس من وقع الحسام المهند
لقد آن الأوان ليتفكر علماء المسلمين فى واقع الزعامة الإسلامية وأن يلتفتوا إلى ما تعرض لها من الهجمات ، وأن يجعلوا العمل والعقيدة مقياسا لتقويم القضايا الفكرية والمناهج الإصلاحية لهؤلاء الزعماء بدلا من مقاييس الأرضية الضيقة المبنية على المصالح والاتجاهات وعلى الشعارات والقوميات والمنافع الزائفة . إن حركة الأفغانى وفكره الإسلامى ليست قضية خاصة بشعب دون شعب ، أو بطائفة دون طائفة ، أو ببلد دون بلد ، إنها قضية كل مفكر وعالم ومؤرخ .. قضية كل مسلم لأنها حركة إسلامية لإيقاظ الشعوب الإسلامية ، فلا يجب تركها نهيا لأقلام الصليبية ولعشاق التغريب . كان الأفغانى حصنا حصينا ، وسدا منيعا للدفاع عن الإسلام ، ونقاشه مع أرنست رينان الذى هاجم الإسلام فى إحدى محاضراته فى السربون ووقوفه ضد المادية وتأليفه « الرد على الدهريين » نماذج تمثل

بعض الجوانب من دفاعه عن الإسلام . فهل نعى هذه الحقيقة الناصعة في الأفغانى لنشارك المدافعين عن حركة الأفغانى ولنرد كيد الكائدين والحاقدين ليس عن الأفغانى وعن حركته بل عن الحركة الإسلامية ؟ إن هذه الهجمة المسعورة على الأفغانى ترمى من ورائها الهجوم على الزعامة الإسلامية ككل فإذا كان الأفغانى قد جعل هدفا لهذه الهجمة اليوم فإن دور الزعماء الإسلاميين آت غدا دون شك . إن لويس عوض وروبرت كارمن دريفوس وأمثالهما لن يقفوا عند هذا الحد ومكاتب الجاسوسية فى كل من بريطانيا وفرنسا وبعدها أمريكا مفتوحة أمام هؤلاء الذين يرغبون فى الهجوم على الزعامة الإسلامية فى الشرق .

افتراءات روبرت كارمن دريفوس :

بعض ما افترى عليه روبرت كارمن دريفوس فى كتابه « رهينة الخمينى » إن جمال الدين أفغانى من أصل يهودى ، ومؤسس الحركة البهائية الأولى فى العالم ومؤسس حركة الإرهاب فى العالم فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وقد امتدت هذه الحركة الإرهابية إلى الربع الأخير من القرن العشرين الميلادى . والبهائية التى أسسها أو نظمها الأفغانى هى المسئولة عما حدث فى إيران فى العصر الحاضر ، وجمعية العروة الوثقى التى أسسها الأفغانى لوحدة المسلمين قد تجمعت تحت رايها كل التنظيمات الإرهابية كما يقول روبرت كارمن دريفوس فى كتابه المزعى « رهينة الخمينى » ويلاحظ أن الدكتور لويس عوض لا يختلف عن هذه الروح المزعزعة عند تسجيله المنهج السياسى للسيد الأفغانى .

افتراءات لويس عوض :

وفيما يلى بعض ما افترى عليه الدكتور لويس عوض : « كنا جميعا مخبطين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى رجل يوزع السعوط يميناه وينشر الثورة ييسراه . كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين ثائر إسلامى ، ومصلح اجتماعى ، ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته . إن جمال الدين الأفغانى هو عكس ما كنا نتصور .. إن اسمه ليس هو اسمه ، إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى . وليته كان إيرانيا فحسب إنما هو الإيراني الغامض .. وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون ..

« مغامر مجهول كافر مجنون مخاطر مغمور زنديق مخبول ملحد مأجور أفاق دساس دجال كذاب متلون متفربح مرتد سكير مهيج سياسى زعيم إرهابى عميل مزدوج رجل لكل القصور داع للفوضوية والأخلاقية منكر لوجود الله ينتحل لقباً في كل دولة .. فهو بين الأفغانيين رومي ، وبين الأتراك والمصريين أفغانى ، وفي بعض الدول استانبولى ، وفي بعضها الآخر بغدادى » .

« ولد جمال الدين الأفغانى في قرية أسد آباد بالقرب من مدينة همدان في غرب إيران وليس في قرية أسعد آباد الأفغانية ، ونشأ نشأة شيعية . وتلقى التعليم على أيدي الشيعة والبهايين » .

« وقد نشأ الأفغانى في هذه التقاليد الشيعية التي جعلت منه إنساناً مزدوج الشخصية بل ومتعددتها ، يفصل الكلام والتعليم بحسب من يخاطبه ، وبحسب ظروف الزمان والمكان ، حتى بدت تعاليمه وأقواله المأثورة ومواقفه وتحركاته جملة من المتناقضات التي يصعب نسبتها إلى رجل واحد » .

قذاعة الأسلوب وبذاءته :

بهذه البذاءة ، والقذاعة ، وبهذه الإساءة الفادحة ، وبهذا الأسلوب الفاحش قام لويس عوض بتوجيه سهام الحقد والكراهية إلى زعيم من زعماء المسلمين في العصر الحديث بغرض تشويه الزعامة الإسلامية والتعبير عما يكنه من الكره والحقد نحو الإسلام وزعامته . وقد قام باختيار عنوان ماكر خبيث للإيفاء بهذا الغرض الخبيث « الإيراني الغامض » واختار وقتاً مناسباً لنشر سمومه القاتلة نظراً لتوتر العلاقات بين بعض الدول العربية وإيران للصيد في الماء العكر ، وذلك لإصابة هدفين بسهم واحد .. إشعال نار الفتنة بين البلاد والشعوب الإسلامية ، وإثارة الشك في الزعامة الإسلامية ، بالإضافة إلى إثارة الفرقة بين السنة والشيعة بطريقة دق الطبول إلى جانب أذن الطائفتين الإسلاميتين ليتخذ من ذلك طريقه إلى إلحاق الضرر بوحدة المسلمين .. معتمداً في ذلك على تقارير الجاسوسية والبوليس والسفارات ، والنبش في القبور في كل من بريطانيا وفرنسا ، وهو يعلم أن مثل هذه التقارير لا تصنع التاريخ . وقد قام باختيار مجلة التضامن في لندن التي اشتركت معه في صنع المؤامرة ضد الزعامة الإسلامية بإعطاء مقالاته صفة الجرأة والشجاعة والإقدام على بيان الحقيقة ، وهي بعيدة كل البعد عن الحقيقة والجرأة .

يأتى نشر هذا البحث البيديء بهذا العنوان المثير وهذا الأسلوب المؤلم اللاذع ، وهذا المنطوق الغاضب ، وفي هذه المرحلة المهيجة التى أصبح فيها القتال الدائر بين العراق وإيران يأتى بالأخضر قبل اليابس ، ولا يصل إلى سمع القارئ العربى عن الثورة الإيرانية إلا ما يغضبه ويؤله ويثير فى نفسه اليأس والأسى والحزن الشديد . وهو يرمى من وراء هذا التوقيت الزمنى إلى إثارة نوع من الكراهية والعداء بين الإيراني والعربى وبين المسلم الذى لا ينتمى إلى الأصل العربى وبين المسلم من الأصل العربى . والقارئ العربى يدرك ذلك ويشهد بالخبث والبراعة لمجلة التضامن ولكاتبتها لويس فى نطاق هذه المؤامرة المدبرة ضد التاريخ الإسلامى فى أروع صوره فى العصر الحديث .

غموض الهدف :

إن هوى لويس عوض أو هدفه الغامض هو الذى جعله يقف على طرف مناقض تماما لما كتبه علماء شوقيون وغربيون عرفوا بسعة الثقافة والقدرة على التعميق والتحليل والتحميص من أمثال الإمام محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا ، ومحمد باشا الخزومى ، وعبد الرحمن الرافعى فى الشرق ، ومن أمثال رينان وبراون وجولدزهر ولوتر ستودارد فى الغرب . إن القارئ العربى لما يكتبه لويس عوض يدرك بالتأكيد موقفه الثابت من كل ما يتصل بالثقافة الإسلامية وهو يعبر عن هذا الموقف المحدد تصرّحاً أو تلميحاً أو من بين السطور والعبارات ، وإصراره الشديد على هذا الموقف الغامض يدفعه إلى افتعال فى التدليل وإلى المبالغة فى تبريح الزعامة الإسلامية من الشواهد الواهية ، والمصادر الضعيفة فى عالم الجاسوسية ، وهذا الذى فعله فى سلسلة مقالاته الهزلية عن الأفغانى الذى خاب فيه مسعاه وهزل مبتغاه ، تلك التى تتسم بالشطط والشمط ، والبعد عن الحقيقة ، والجنوح إلى الإجحاف ، وقد تجاوز فى ذلك كل حد معقول ، إنه من التجنى والإسفاف حقاً أن يحاول كاتب دسّاس النيل من قدر الثائر المصلح الأفغانى ، وأن يحاول المساس بعظمة الداعية المسلم أو التشكيك فى نقاء فكره الإسلامى ، وسلامة عقيدته الدينية ، ومنهجه السياسى ، وحياته الفكرية ، إن الأفغانى الثائر من أعظم شخصيات العالم الإسلامى والشرق فى القرن التاسع عشر

الميلادى . إن ما كتبه أقلام إسلامية وعربية وأجنبية من تدين الأفغانى ، ووضوح فكره ، وصراحة قوله ، وجراته وإخلاصه وتقانيه ليس بشيء فى نظر لويس عوض الذى تمرد على الأفغانى وعلى من كتب عنه من العلماء والكتاب والمؤرخين فى مصر وفى غيرها من بلدان العالم فى الشرق والغرب ، والذى وجه إلى الأفغانى اتهاماً ظالماً فى مجازره الفكرية وفضائعه التاريخية التى جعلتنا نفقد كل احترام له ولزملائه الذين يسيرون وراءه فى هذا الدرب الذى يؤدى إلى تشويه كل مراحل التاريخ الإسلامى وصناعة العظماء والزعماء فى الإسلام .

إن هواه المرموز وهدفه الغامض هو الذى دفعه إلى اتهام الأفغانى بالمغامرة والإرهاب وبالكذب والزندقة ، ولتحقيق هذا الهدف الغامض قام بتأويل أقوال وأفعال الأفغانى ، وتأويل أقوال وتصرفات المعاصرين للأفغانى على نحو يوافق نواياه السيئة وأهدافه التى تتسم بالغموض والرمزية .. ولأجل ذلك فرق فكر الأفغانى إربا إربا منطلقاً فى عوالم من الخيال الباطل والاعمال الظالم لا أول لها ولا آخر .. وهو فى النيل من قادة البعث الإسلامى أكثر مكرراً وأشد نخبتاً وأعظم هدفاً .

كان الأفغانى الذى هاجمه لويس عوض نجماً لامعاً فى تاريخ حركات البعث الإسلامى ، شديد الإيمان بالقوة الديناميكية للإسلام ، وكان يؤمن ويدرك أن العقيدة الإسلامية هى العامل المشترك بين الشعوب الإسلامية التى كان الاستعمار الغربى يتسلل إليها ، وكان صاحب مدرسة فكرية كبرى فى تجديد الفكر الإسلامى وتنقيته مما علق به من أباطيل الوهم وخرافات العقيدة الباطلة .. كانت آثار أقدامه فى ذلك ثابتة راسخة ، وغبار معاركه الثورية تغطى سماء الشرق ، وكان صدى أفكاره تتردد بين جنبات الهندوكش ، وكانت آلامه وأحزانه الإسلامية ممتدة من كونر إلى كابل إلى طهران .. إلى الهند والقاهرة والآستانة وباريس ولندن .. وكان يقاوم سلطة البابا فى روما من خلال نشاطه السياسى والفكرى واعتقد أن هذا أحد الأسباب القوية التى جعلت الأفغانى هدفاً لحملة لويس عوض المسعورة التى ليس من المستبعد أن تكون حلقة من حملة أكبر تدبر للنيل من الزعامة الإسلامية من وراء الحجاب .

البحث عن تراث محمد عبده والأفغانى
فى فكر الإسلاميين المعاصرين
هل تتبنى المدرسة الإخوانية شعارات الاجتهاد والانفتاح
على العالم والتجديد ؟

محمد الهاشمى الحامدى

هل يجوز القول بوجود حلقة مقطوعة بين تراث الأفغانى ومدرسة الإمام محمد عبده من جهة وبين أدبيات الإسلاميين المعاصرين المحسوبين من قريب أو من بعيد على حركة الإخوان المسلمين ؟
إن مشكلة الأستاذ الإمام بالأساس هى اتخاذ مرجعا لتيارات وأسماء كثيرة متضاربة بعده ، فقد نسب إليه تلميذه محمد رشيد رضا كما نسب إليه محمد لطفى السيد وطه حسين ، وكان ذلك مما أسهم بشدة فى صرف تلاميذ حسن البنا عنه وعن أستاذه جمال الدين . لكن إلى أى مدى أضر هذا الانفصال بين المدرستين بمجهود التجديد والعقلنة والاجتهاد فى الفكر الإسلامى المعاصر ؟
هذا المقال الموجز إثارة للموضوع وفتح حوار أرجو أن يشارك فيه كثيرون .
مدرسة الأفغانى وعبده :

لأبد للمرء أن ينبه ابتداء إلى أن جمع هذين العلمين فى باب واحد لا يعنى تجاهله للفروق الأساسية بين منهجهما فى الإصلاح . لكن ما يجوز الجمع هنا هو المقارنة التى نعقدتها مع مدرسة أخرى تجاهلت إلى حد كبير تراث الرجلين ، تراث جمال الدين فى الإصلاح السياسى والدستورى والعمل لتأكيد الوحدة الإسلامية القائمة والدفاع عن الفلسفة الإسلامية ، وتراث محمد عبده فى محاولة التقارب مع الحضارة الغربية وتوسيع دائرة الاجتهاد والاقتباس من الغير (الغرب أساسا).
لم يكن الأفغانى وعبده رجلين معزولين فكريا ، بل لقد كانا على العكس تماما ، رائدين لتيار واسع ممتد فى الوطن الإسلامى الواسع ، يقدمه منير شفيق فى كتابه « الفكر الإسلامى المعاصر والتحديات » بهذا البعد العالمى ويصفه باتجاه الفكر الإسلامى ذى الجذور الأصولية ، ولكنه حاول التوفيق مع عدد من

الجوانب الفكرية والحضارية الغربية وحاول الانفتاح عليها أو الالتفاف حولها وإعطاءها مرادفات إسلامية . ومن ممثليه رفاة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده (بعد مرحلة العروة الوثقى) والشيخ محمد رشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وخير الدين التونسي وعلال الفاسى ومالك بن نبي ، ومن سمات هذا الاتجاه أن بعض أهله تبنا عددا من المقولات الغربية من خلال إيجاد مرادف لها أو استخراجها وإعادة استنباطها من الإسلام ، فبعضهم حاولوا تفسير آيات القرآن بما يتوافق والذوق الغربى العلمى كما فعل الشيخ محمد عبده أو محاولة بعضهم اقتباس جوانب الحياة الغربية فى تنظيم الحكم كما فعل خير الدين التونسي ورفاعة الطهطاوى أو السعى للتوفيق مع القومية وبعض إصلاحاتها كما فعل مالك بن نبي أو ترجمة الديمقراطية الغربية باعتبارها الشورى أو العكس كما فعل عبد الرحمن الكواكبي ، ويمكن أن يدرج فى هذا الاتجاه على نطاق عالمى الشاعر محمد إقبال وعلى شريعتى .

يركز منير شفيق فى هذا التقديم على الصورة التى ضخمها كثير من الإسلاميين المعاصرين لينقضوا صلاتهم بمدرسة الأفغانى وعبده . لكن ما من شك أن الأمثلة العينية لتنازلات محمد عبده مثلا للغرب لا يمكن أن تغطي السمات الأصلية لفكره وأستاذه : ذلك التطلع الرهين لإنشاء فكر إسلامى معنى بالنهضة والحضارة يتحرك فى ساحة واسعة تشمل الأمة كلها دون سقوط فى أى شكل من أشكال الحزبية والطائفية .

حسن البنا وسيد قطب :

جاء حسن البنا ليؤسس حركة الإخوان المسلمين بعد ثلاثة وعشرين عاما من وفاة محمد عبده وبعد أن أصبحت المدرسة العلمانية أعلى صوتا وأقوى نفوذا ، فكانت المسألة السياسية هم الأول ، وكان تشتت جهود الحاديين على الإسلام مصدر قلق كبير له ، واختار لمواجهته إجابة تنظيمية سياسية بالدرجة الأولى وفكرية بالدرجة الثالثة .

وجدت حركة الإخوان المسلمين صلات قرى أوثق مع حركة الإصلاح السلفية التى كانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب منطلقا لها فى الجزيرة العربية خلال

القرن الثامن عشر الميلادي وكانت رسالة البنا في العقائد تقليدا لرسائل ابن عبد الوهاب في نفس الموضوع من قبل . وبالمقابل لم يترك زعيم الإخوان رسائل مفصلة في الفكر ولا في السياسة وربما لم يكن مطلوبا منه ذلك هو بالذات لطبيعة تكوينه ومشاغله كشيخ وزعيم لكن هذه الملابس كانت أيضا سببا في ضعف صلة حركة الإخوان ككل بتراث المدرسة الإصلاحية العقلية التي كان محمد عبده رائدها الأبرز . أصبح تنظيم « الإخوان المسلمين » خلال عقدين أو ثلاثة من الزمن قاعدة الحركة الإسلامية الحديثة في أغلب أقطار العالم العربي ولكن الطابع العام للأصل والفروع ظل مشغولا بتأكيد شمولية الإسلام من مدخلها السياسي فتراجعت أسهم المهمات التي اعتبرت المدرسة الإصلاحية الأولى ذات أولوية مطلقة ، كالتجديد والاجتهاد وتطوير الفكر الإسلامي المعاصر .

لا يعنى ذلك أن الإخوان لم يهتموا بهذه المسائل ، ولكنهم واجهوها متطوعين عن جهود الأولين الذين نظروا إليهم كمسيهوين بالغرب أكثر من كونهم مجدددين في الفكر الإسلامي . كما أن الإخوان كانوا مشغولين بتوضيح برنامج حزب محدد ، بينما كان الأفغانى وعبده متحزبين للأمة إذا جاز التعبير ، أى أنهما لم يكونا متحزبين على الإطلاق ، كانا يسهمان كرائدين للأمة ودليلين لها ، وكان تراث المدرسة الإخوانية تراث حزب داخل الأمة وطائفة محددة من أبنائها ، وأكثر من ذلك أنها كانت طائفة محاربة بشدة لفترات طويلة من الزمن .

وجاء الشهيد سيد قطب في أشد مراحل هذه الحرب ظلما ومرارة ليدعو ضحاياها إلى عدم التفكير في البرامج والمشاريع . ليس الإسلام مطالبا بذلك على الإطلاق حتى يدعن سكان الدول المعتبرة إسلاميا له ولشريعته دون جدال (أصبحت شروط إطلاق الصفة الإسلامية على مجتمع أو شعب عسيرة جدا مع سيد قطب وتكاد لا تنطبق على شعوب العالم الإسلامي المعاصر) .

التوفيقون :

لا يستعمل هذا الوصف دائما في معرض التقييم السلبي ، وهناك في قضية المال أسباب معقولة لإطلاقه إيجابا على جهود مدرسة الأفغانى وعبده ومدرسة الإخوان المسلمين .

يعرض الدكتور حسن الترائى على الحركة الإسلامية أن تطرح على نفسها مهمة التجديد فى أوسع مستوياتها وأن تبلور نمطها المعاصر فى التدين ، وينقد بشدة العقلیات التى تجتهد لمعالجات مشكلات هذا الحزب الإسلامى أو ذاك بدلا من التفكير ضمن مستوى الوطن الأكبر والأمة .

لكن الشيخ راشد الغنوشى الأقل انخراطا فى معمعة السياسة اليومية من حسن الترائى يمضى شوطا إلى الأمام فى بناء قاعدة لدعوة التجديد والاجتهاد على أساس من مراجعة مسيرة المدرسة الإخوانية الحديثة والاعتراف بمجوانب تقصيرها ، وعلى أساس أيضا من التسليم بدور مدرسة الإصلاح الكبرى التى قادها الأفغانى وعبدہ ونظراؤهما فى العالم الإسلامى من دون التوقف عند بعض المآخذ التقليدية على الأفغانى بالماسونية وعلى محمد عبده بتأويل الجن بالميكروب ، وطير الأبايل بالبعوض أو الذباب ، وحجارة السجيل بمجرثومة الجديرى .

مشقات المصالحة :

لكن هذا التوجيه نحو وصل ما انقطع بين جهود مدرسة الإصلاح والمدرسة الإخوانية لا يلقى طريقه يُسّر ، وإنما يواجه على العكس من ذلك مشقات عديدة من داخل التيار الإسلامى ومشقات أكبر من خارجه .

إن الشيخ محمد الغزالى لا يبدو بعيدا عن الحقيقة فى ما قاله بـ « الشرق الأوسط » يوم الأربعاء ٢ أغسطس ١٩٨٩ م من أنه ليس هناك رغبة من أحد فى نمو التيار الإسلامى المعتدل الذى يجمع بين مواجهة تحديات الحضارة والنهضة وتحديات الإصلاح السياسى المرحلى .

إن النظام الدولى السائد لا يضيق بالتطرف رغم كثرة استنكاره اللفظى له وإنما يضيق بكل جهد عاقل يحاول أن يقدم الإسلام دينا للسلام والعمران وللحضارة وأن ينشر الثقافة الرفيعة التى تنقل هذه القيم للبشرية جمعاء .

وهناك الآن أكثر من مراقب يعى يقينا أن التيار الإسلامى سيحقق كسبا تاريخيا كبيرا لو استعاد صلاته بالمهمات الكبرى التى طرحتها مدرسة الأفغانى وعبدہ وفكر من موقع الأمة لا من موقع الطائفة ، وتبنى عن قناعة وجدية

حقيقتين شعارات الاجتهاد والانفتاح على العالم والتجديد .

* * *

كان العمل في إعداد هذا الكتاب في مراحله النهائية عندما نشرت صحيفة « الشرق الأوسط » السعودية مقالا بعنوان « البحث عن تراث محمد عبده والأنفاقي في فكر الإسلاميين المعاصرين » في عددها ٣٩٠٤ بتاريخ ٦ أغسطس ١٩٨٩ م ، وكانت علاقة هذا المقال بهذه الدراسة وثيقة فرأيت أن أضيفه إلى هذا الكتاب إتماما للفائدة . وبهذا يتم الكتاب . والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .